كتب أنصفت حضارتنا

فريد جحا

A
306
J47k

فريد جحا

كتب أنصفت حضارتنا

B. U. C. LIBRARY
12 FEB 79
RECEIVED

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٧٧

الفهرس

صفحة

المراجـع ٧
تمهيـد ١٣
الفصل الأول : مقدمـة ١٥
الفصل الثاني : تاريخ العرب العام ٢٧
الفصل الثالث : تاريخ الطب العربي ٤٦
الفصل الرابع : الفـن العربي ٥٩
الفصل الخامس : حضـارة العـرب للدكتور غوستاف لوبـون ٦٩
الفصل السادس : تاريخ الأدب العربي ٨٣
الفصل السابع : مدونة الكتابات العربية ٩٧
الفصل الثامن : فتح العرب لمصر ١٠٧
الفصل التاسع : قصة الاسراء والمعراج ١١٥
الفصل العاشر : كتابا المستعرب فارمـر ١٣٥
الفصل الحادي عشر : تاريخ الأدب العربي الأندلسي ١٤٥
الفصل الثاني عشر : العلم عندالعرب ١٥٨
الفصل الثالث عشر : تاريـخ الأدب الجغرافي العربي ١٧١
الفصل الرابع عشر : الحضـارة العربية ١٨٨
الفصل الخامس عشر : التصور العربي ٢٠٤
الفصل السادس عشر : المعجـزة العربية ٢٢٩
الفصل السابع عشر : خاتمـة ٢٤٣

جميع الحقوق محفوظة

صمم الغلاف : بتول ملاطيه لي

المراجع

١ ـ أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ، لجماعة من العلماء المصريين، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ·

٢ ـ آسين بلاثيوس (ميكيل) ، قصة الاسراء والمعراج وأثرهما في الكوميديا الالهية (بالاسبانية) مدريد ، ١٩١٩ ·

ASINPALACIOS (M)
La Escatalogia Musulmana en la Comedia Divina, Madrid, 1919.

٣ ـ ايتنكهاوزن (ريتشارد) ، فن التصوير العربي ـ ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، بغداد ، ١٩٧٤ ·

وبالفرنسية

Ettinghausen (R) La peinture Arabe, Skira Geneve, 1962.

٤ ـ أمين (أحمد) فجر الاسلام ، ضحى الاسلام ، ظهر الاسلام ، مطبعة لجنه التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ·

٥ ـ بالانثيا (آنخل كونثالث) ، تاريخ الفكر العربي الأندلسي ، ترجمه الى اللغة العربية الدكتور حسين مؤنس بعنوان (تاريخ الفكر الأندلسي) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ·

٦ ـ بتلر (ا٠ ج٠) ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٢٥١ هـ / ١٩٣٣ م ٠
بالانكليزية
Butler (A.G) the Arab Conquest of Egypt, Oxford, 1902.

٧ ـ بدوي (عبد الرحمن) ، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٥ ٠

٨ ـ براون (ج) الطب العربي ، كامبردج ١٩٢١ ، الترجمة العربية القاهرة ١٩٦٦ ٠

٩ ـ بيبلو غرافيا الثقافة العربية ، لجماعة من المؤلفين المصريين ، القاهرة ١٩٦٥ ٠ (الدليل البيبلوغرافي للقيم الثقافية العربية) ٠

١٠ ـ بروكلمان (كارل) تاريخ الأدب العربي (بريل ١٩٤٣ ، ١٩٤٩ ، ١٩٤٢) ٠ الأجزاء ١ و ٢ و ٣ من المجلد الاول ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ والأجزاء ٤ و ٥ ترجمة الدكتورين يعقوب سيد بكر ورمضان عبدالتواب دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ٠

١١ ـ بنت الشاطىء ، الغفران ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧ ٠

١٢ ـ بريس (هنري) الشعر الأندلسي باللغة الفصحى في القرن الحادي عشر باريس ١٩٣٧
Pérès (H.) La Poesie Arabeen Arabe classique au XI Siècle, Paris 1937.

١٣ ـ تيمور باشا (أحمد) التصوير عند العرب ، مع تعليقات الدكتور زكي محمد حسن ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٤ ـ تراث الاسلام ، لجماعة من المستشرقين باشراف ارنولد، ترجمة جرجيس فتح الله ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢ ٠

١٥ ـ تشرويلي (انريكو) كتاب المعراج ومسألة المنبع العربي الاسباني للكوميديا الالهية بالايطالية ٠ مدينة الفاتيكان ١٩٤٩ ٠
Cerulli (Enrico) il libro della Scala et la questione della Fonti Arabo - Spagnole della divina comedia, Cita del Vaticana, 1949.

١٦ ـ علي جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ وما بعد ٠

١٧ ـ دافين (بريس) ، الفن العربي مستمدا من أبنية القاهرة ، بالفرنسية باريس ١٨٧٧ ٠

١٨ ـ ديورانت (ويل) ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران وزميله ، صدر في ٢٦ جزءا باللغة العربية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ ـ ١٩٧٣ ٠

١٩ ـ ريسلر (جاك) الحضارة العربية (بالفرنسية) ، باريس ١٩٦٢ ٠
Risler (J.) La civilisation Arabe, petite Dibliotheque Pagot, Paris 1962.

٢٠ ـ الزركلي (خير الدين) الأعلام الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٦٩ ٠

٢١ ـ سارتون (جورج) ، مقدمة تاريخ العلم بالانكليزية
Sarton (G.) intraduction to the History of Science 1929 - 1948.
The historg of science, 1952. تاريخ العلم بالانكليزية ١٩٥٢
مترجم الى العربية باشراف لجنة من العلماء ، دار المعارف ١٩٥٧ ٠

٢٢ ـ سنديو (خوسيه مونيز) ، معراج محمد ، ترجمة من العربية للقشتالية واللاتينية والفرنسية ، أمر بها الفونسو العاشر العالم ، مدريد ١٩٤٩

٢٣ ـ سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احيـاء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م ٠

٢٤ ـ سوفاجيه (جان) ـ حلب Alep بالفرنسية ، باريس ١٩٤١ ٠
احصاء آثار حلب الاسلامية بالفرنسية باريس ١٩٣١ ٠
Jnventaire des Monuments Musulmous de la ville d'Alep Paris 1931.

٢٥ ـ عيسى (أحمد بك) تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م ٠

٢٦ ـ عبقرية الحضارة العربية ، لمجموعة من العلمـاء العرب والأجـانب ، نيويورك ١٩٧٥ ،
The Genivs of Arabe Civilisation, New York University press, New York, 1975.

٢٧ ـ العقيقي (نجيب) المستشرقون ، ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٧ وما بعد ٠

٢٨ ـ فانتاجو (ماكس) المعجزة العربية ، ترجمة رمضان لاوند ، مطابع دار الكشاف ، بيروت ١٩٥٤ ٠
Vintajeux (M.) Le Miracle Arabe - Paris 1950.

٢٩ ـ فارمر (هـ ٠ ج) تاريخ الموسيقى العربية بالانكليزية ٠
Farmer (H.G) The History of Arabian Music, 1935.
والترجمة العربية بقلم الدكتور حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٣٧٥/١٩٥٦ ٠

ـ مصادر الموسيقى العربية
The Sourees of Arab Music 1940.
الترجمة العربية بقلم الدكتور حسين نصار القاهرة ، ١٩٥٧ ٠

٣٠ ـ فكري (أحمد) مساجد القاهـرة ومدارسها ٣ أجـزاء دار المعارف ، القاهـرة ٠

٣١ ـ كراتشكوفسكـي (أغناطيوس يوليا نوفتش) تاريـخ الأدب الجغرافي العربي ، موسكو ١٩٥٧ ، الاصل الروسي ٠
الترجمة العربية بقلم صلاح الدين عثمان هاشم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ، ١٩٦٥ ٠

٣٢ ـ لوبون (غوستاف) حضارة العرب ، بالفرنسية
Lebon (G.) La civilisation des Arabes, Paris 1884.
الترجمة العربية بقلم عادل زعيتر القاهرة ٠

٣٣ ـ ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية في اسبانيا (بالفرنسية)
Livi Provinçal (E) La civilisation Arabe En Espagne. Paris 1948.

٣٤ ـ لوكلير (لوسيان) تاريخ الطب العربي بالفرنسية
Leclere (L.), Histoire de la Medecine Arabe, Paris 1871, New York 1971.

٣٥ ـ ميلي (الدو) العلم العربي ودوره في التطور العلمي العالمـي النسخة الفرنسية
Mieli (A.) La Science Arabe et son rôle dans l'evolution scientifique Mondial. Leiden 1939.
النسخة العربية ترجمة الدكتورين النجار وموسى القاهرة ، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م ٠

٣٦ ـ مارسية (جورج) الفن الاسلامي

Marçais (G.) L'Art Musulman

ترجمة الدكتور عفيف بهنسي ، مطبوعات وزارة الثقافة دمشق ٠

٣٧ ـ مجلة الثقافة العربية الليبية عدد آذار ، ١٩٧٦ ٠

٣٨ ـ مجلة الهلال القاهرية ، عددا ، ك٢ ، وحزيران ١٩٧٦ ٠

٣٩ ـ مظهر (جلال) أثر العرب في الحضارة الاوربية ، دارالرائد بيروت ١٩٦٧

٤٠ ـ للكاتب نفسه ـ مآثر العرب على الحضارة الاوربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ٠

٤١ ـ هرزفلد ، مدونة الكتابات العربية بالفرنسية في ثلاثة أجزاء القاهرة ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ٠

Herzfeld (E.) Corpus inscriptionum Arabicarum. De Caire 1954, 1955, 1956.

تمهيـد

أعددت مواد هـذا الكتاب في سنتي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ، وكتبت فصوله في الأشهر السبعة الاولى من عام ١٩٧٦ ٠ بدأ المؤلف العمل فيـه ، وقلبه يطفـح سعادة واعتزازا بعد أن عاش أيام حرب رمضان المجيدة ، وشهد الأمة العربية تجتمع حول هدف التحرير ، ثم تضرب العدو ضربات موجعات ، وتحقق نصرا ، ان لم يكن مؤزرا ، فانه أعاد للعربي ثقته بنفسه ، وأبرزه أمـام العالم ـ كما عرفـه التاريخ ـ انسانا شجاعا مقدامـا ، يعرف كيف يخطط للنصر ، وكيف يقاتل من أجل الحق ، وكيف يضحي بحياته ، وهـي أثمن ما يمكـن أن يقدم انسان فداء للوطن ، وللمثل العليا ٠

ثم شهـدت صفحات الكتاب ـ بعد هـذا ـ تلك السنة التي امتدت طوال النصف الثاني من عام ١٩٧٥ والنصف الاول من عام ١٩٧٦ ، لقد كانت سنة نكراء سوداء ، تمزق فيها التضامن العربي ، أغلى مكاسب رمضان ، واقتتل فيها الاخوة العرب في لبنان لسبب لا يعرفه أحد ، ونزف فيها قلب المؤلف دما ، بعد أن رأى قومه يحتربون ، ويهرقون بأيديهم دماء أشقائهم الزكي ٠

زادني اعداد مواد الكتاب سعادة واعتزازا ، فهاهـم أولاء علمـاء أغراب يشهدون لحضارة العرب وسمئوها ورفعتهـا ، وهاهو ذا الحاضر المجيـد يليق بالماضي المجيد ٠ ثم عزتني كتابة فصول الكتاب عما كنت أسمع وأقرأ وأرى ،

مما يفعله قومي ، فاذا كانت صفحة الحاضر مظلمة ، فان صفحة الماضي مشرقة قرأنا فيها أن العرب في اللحظة المناسبة يرتفعون على الخلف ، ويعودون الى التضامن ، الذي يقودهم الى الوحدة أمام الخطر الداهم والعدو المشترك •

لذلك لم يلم بي التشاؤم لحظة واحدة ، فلقد كنت دائما ميالا الى التفاؤل ومقتنعا – عن ايمان عميق – بقدرة أمتي العربية العظيمة على تخطي الصعاب في اللحظة المناسبة ، وعلى الارتفاع الى مستوى المسؤولية المطلوبة ، وهاهي ذي صفحات تاريخها حافلة بما يؤكد ذلك ، وفيه هذه الحضارة العربية العظيمة – بشهادة خمسة عشر عالما أوربيا – حضارة رائدة ، وصفت (بالعبقرية) في كتاب و (بالاعجاز) في كتاب آخر •

يبقى أن أقول أنني كتبت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب بعقل هادىء موضوعي ، وبقلب حار محب ، لقد التزمت في عرض الكتب ، وما تضمنت من آراء ، المنهج العلمي ، والرد الدقيق الى المصادر ، ولكني حرصت مع هذا على أن يشيع في هذا المؤلف روح من الحب والاعتزاز : حب لهذه الامة العربية العظيمة التي أتشرف بالانتساب اليها ، والاعتزاز بهذا التراث العظيم الذي خلفته ، في تلك القرون الثمانية التي كانت فيها حضارة العرب منارة تشع علما وفنا وأدبا ، فيها تراث الأمم الماضية ، واسهام العرب في تقدمه وتطويره •

وسيسعدني كثيرا أن يجد فيه القراء العرب ما أردت لهم أن يجدوه فيه : تقييما موضوعيا لحضارتهم ، وعرضا علميا لكتب أنصفتها ، وعاطفة يمتلىء بها قلب عربي تجاه أمته ، وما خلفت من تراث عظيم •

حلب في السابع والعشرين من رجب لعام ١٣٩٦

الموافق للرابع والعشرين من تموز عام ١٩٧٦ •

الفصل الأول

مقدمة

– ١ –

استهوتني حضارتنا العربية منذ قرأت ، أول الصبا ، لغوستاف لوبون ، من كتابه (حضارة العرب) قوله الشهير : « لم يعرف التاريخ أرحم من العرب » ثم انقلب ذلك الهوى الى شغف ، بعد أن أتيح لي في السنوات الاخيرة ، الاطلاع على كتب كثيرة تناولت الموضوع باللغة العربية واللغات الأجنبية •

لم يكن ذلك الهوى ولا هذا الشغف نتيجة كوني عربيا ملأ العرب وتراثهم قلبه حباً واعتزازآ فحسب ، بل لأن هذه الحضارة أيضا ، قد استطاعت في مدة قصيرة من الزمن ، استيعاب الحضارات السابقة ، والانتقال الى الابداع في مختلف مناحي الفن والفكر والأدب والفلسفة ، وهو ابداع جعل منها حضارة رائدة ، امتازت بما حملت من جوانب انسانية رائعة ، دفعت بعض العلماء الى الاقرار بعبقريتها في كتاب (عبقرية الحضارة العربية – مصدر النهضة) (١) والى رفعها الى مقام (المعجزة) عند بعضهم الآخر(٢) في كتاب (المعجزة العربية) •

— ٢ —

حبي الحضارة العربية واعجابي واعتزازي بها ، دفعاني في السنوات الثلاث الاخيرة الى قراءة كل ما وقع تحت يدي من كتب عالجت هـذا الموضوع بصورة خاصة ، وموضوع الحضارات بشكل عام • وكنت أريـد من قراءاتي هـذه أن ألتمس مكانتها بين الحضارات من جهة ، وأن أتعرف مزاياها ، ومدى اسهامها في تقدم الانسانية « من الهمجية الى المدنية » (٢) من جهة أخرى •• لقد قرأت حوالي مائة كتاب ، وجدت فيها جميعا ما كنت أبتغيه من قراءاتي هذه ، وهأنذا أشرك القراء في تعرّف بعض من تلك الكتب ، مقدما بكلمتين مختصرتين عـن الحضارة بصورة عامة ، ثم عن الحضارة العربية بصورة خاصة •

— ٣ —

يمكن تعريف الحضارة ببساطة ويسر على الشكل التالي : « الحضارة تراث الأمة المادي والمعنوي » • نريد بالتراث المادي : الآثار الضخمة من مدن وأبنية وتحف فنية وتماثيل • أما التراث المعنوي : فهو مـا خلفته الامـة من علـم وفلسفة وفنون وآداب وتفكير ودين •

على أن هذا التراث لا يمكـن أن يكـون حضارة الا اذا توفرت فيه ثلاث مزايـا : أن يكون ممتازا ، وأن يكون أصيلا ، وأن يسهم في تطور البشرية ، ويدفع بالتراث الانساني خطوات الى الامـام • ان التراث الذى لا تتوفـر فيه هذه المزايا ، يبقى في السفح ، ولا يرتقي الى القمة التي تلتقي فيها حضارات الأمم العظيمة •

والحضارة تراث طويل ، أسهمت فيه ، جميع الامم • شهد النور على ضفتي

النيل ، وبين الرافدين ، وعلى شواطىء المتوسط ، وفي الصين والهند ، ثم انتقل الى الغرب ، الى اليونان ، أقرب نقطة من أوربا الى الشرق ، بعد الاتصال المباشر بينها وبين مهد الحضارات ذاك •

ولقد مرت أيام زها فيها الغرب عجبا بنفسه ، فادعى أن حضارة الاغريق • انما نشأت هكذا من العدم ، ولم تتأثر بغيرها من الحضارات ، وأطلق عليهـا ما سمي (بالاعجوبة اليونانية ، أو المعجزة الاغريقية) • ثم جاء عهد الموضوعية والتقيد بالحقائق ، فقال سارتون « ان من سذاجة الاطفال الافتراض أن العلم بدأ في بلاد اليونان ، فالمعجزة الاغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصـر وبلاد ما بين النهرين ، والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعا » • (٣) وقال ويل ديورانت في كتابه العظيم قصة الحضارة : « ان قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسيا كانت مسرحا لاقدم مدينة معروفة لنا فحسب ، بل لان تلك المدينة كونت البطانة والاساس للثقافة اليونانية والرومانية • وسيدهشنا أن نعلم كم من مخترع من ألزم مخترعاتنا ، وكم من نظام من نظمنا الاقتصادية والسياسية وما لدينا من علوم وآداب وما لنا من فلسفة ودين يرتد الى مصر والشرق •• ان الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، ان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاء لأن ما ورثوه لنا أكثر ممـا ابتدعوه • لقد كانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت الى مدائنهم مع صناعتي التجارة والحرب • فاذا ما درسنا الشرق الأدنى وعظمنا من شأنه ، فاننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا صرح الحضارة الاوربية والامريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد » (٤)

وهكذا كانت آسيا ، وضفاف النيل من افريقية مهد الحضارة البشرية • ثم انتقلت الحضارة الى أوربا ، الى اليونان ، عن طريق (كريت) والمستعمرات

التي أنشأها الفينيقيون في معظم أرجاء البحر المتوسط ٠ كما أعقب فتوحات الاسكندر تفاعل وتمازج هائلان ، تما بين الحضارة اليونانية الهيلينية ، وحضارات الشرق القديم ، وقد قامت الحضارة الهيلينستية بهذا الدور ٠

بلغت هذه الحضارة ذروتها في مصر البطالمة ، وسورية السلوقية ، ثم حمل عنها الرومانيون اللواء ، فأضافوا اليها ما أضافوا ٠ ثم أخذت الدولة الرومانية وحضارتها في الانحدار ، بأسباب من غزوات البرابرة ، والاضطهاد الديني الذي عانت شعوبها منه ،ثم انقسامها أخيرا الى امبراطوريتين : شرقية وغربية ٠

الحضارة العربية :

-٤-

في تلك الآونة ، وبدءا من مطلع القرن السادس الميلادي ، كانت جزيرة العرب تبشر بحوادث كبيرة : لقد زاد اتصالها بالحضارتين المجاورتين (الرومية والفارسية) ، وارتقى فنها الشعري الى سماوات عالية ، وازدادت شعورا بوحدتها وقدرتها على التحدي ، بعد أن دحرت جيوش فارس في (ذي قار) ٠

ويختار الله العرب ليحملوا رسالة الاسلام ٠ ويستطيع الرسول العربي (ص) خلال نيف وعشرين من السنين أن يوحد الجزيرة تحت راية الرسالة الجديدة ٠ ساعد في تحقيق ذلك : كتاب الله المعجز ، وشخصية النبي الفريدة ، وصحابته الشجعان الابطال ٠

ويمضي العرب منذ السنة الاخيرة من حياة رسولهم في فتوحات تحرير ، فتوحات امتدت حوالي قرن من الزمان ، ومدت دولة العرب من اسبانيا غربا الى حدود الصين شرقا ، ومن جبال طوروس شمالا الى أواسط افريقية وبحر العرب

جنوبا ٠٠ دولة كبرى واسعة ، لم يكتف العرب فيها بما حصلوا عليه من رفاه ومغانم وبلاد ، بل انتقلوا يغترفون من حضارة الشعوب التي اتصلوا بها ، ويصنعون حضارة كانت منارة العالم خلال سبعمائة سنة ، امتدت بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين ٠

ولكن الذي يؤسف له ، أنه لم يتح لهذه الحضارة أن تأخذ مداها ، وتؤتي أكلها ، كما أراد أبناؤها ، ذلك أن انقساما رهيبا جزأ الدولة العربية،وغزوات بربرية أتتها من الشرق والغرب ، فضلا عن انتقال الحكم من أيدي العرب الى أيدي الأتراك في الشرق ، واستيلاء الاسبان على الاندلس العربية في الغرب ٠

-٦-

خلف العرب بين القرنين الثامن والخامس عشر تراثا هاما تجلى في آثار مادية ، وفي كتب كثيرة تناولت مختلف مناحي النشاط الانساني من فن وأدب وعلم وطب وفلسفة والهيات وتاريخ وجغرافيا وفلك وموسيقى ، فضلا عن القوانين التي استمدوها من دينهم ، ومما عرفوه عن الأقوام التي اتصلوا بها ٠

عاش العرب أولا قرنين يتصلون بالتراث اليوناني والروماني من جهة ، وبالتراث الهندي الفارسي من جهة أخرى ٠ نقلوا وترجموا وعرّبوا خلال هذين القرنين ٠٠ حتى اذا ما استوعبوا ما نقلوا الى لغتهم ، انكبوا ينتجون ويبدعون ، ويضيفون الى ما عرفوه ، حتى وصلنا ووصل العالم ما عرف (بالحضارة العربية) ، وهي الحضارة التي كانت ثمرة تلاقح الحضارة العربية القديمة ، (٥) والدين الاسلامي ، والتراث الاغريقي ، والتراث الفارسي والهندي ، والتي توفرت لها كما بينت في مقال لي سابق ،(٦) المزايا الثلاث

التي أوجبنا توفرها في الحضارة وهي مزايا الامتياز والاصالة والاسهام في تطور البشرية ٠

ـ ٧ ـ

لم تبدأ دراسة الحضارات ، بشكل دقيق وموضوعي ، الا اعتبارا من منتصف القرن الثامن عشر ، وذلك حين أكب علماء عصر (التنوير) في فرنسا على هذا الجانب التاريخي من جوانب الانسانية ٠ ولقد قدموا ـ ولأول مرة ـ دراسات في مختلف جوانب الحضارة ، تحقيقا لرغبة فولتير حين قال : « أحب أن أعلم الخطوات التي سارها الانسان من الهمجية الى المدنية » ٠

ثم تتالت الدراسات بعد هذا في انكلترا والمانيا وايطاليا ، حتى اذا ما انتصف القرن التاسع عشر ، كانت الكتب الجيدة والعلمية قد توفرت في سائر اللغات الاوربية ٠

ولقد انصب اهتمام المؤرخين بادىء ذى بدء على دراسة الحضارتين اليونانية والرومانية ، فكشفوا جوانبهما ، وقدموا كتبا كثيرة لا مجال الآن لاستعراض أسمائها وأسماء الذين ألّفوها ٠

ولما نزلت الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت في مصر ، كان في عدادها كثير من العلماء والمؤرخين ، الذين انكبوا على دراسة هذا القطر العربي ، من جميع النواحي ، ثم جمعوا دراساتهم في كتاب مشهور أسموه (وصف مصر ـ La Description de l'Egypte) ، وهو كتاب نشر في نهاية الربع الاول من القرن الماضي ، ولا يزال ، على الرغم من انقضاء قرن ونصف على سنة صدوره ـ من أحسن ما ألف في موضوعه ٠

كانت الحضارة المصرية القديمة بآثارها وأهراماتها قد أدهشت هؤلاء العلماء ، وكان تعريفهم بها بمثابة فتح الطريق أمام بعثات التنقيب ، للقيام بحفريات في مصر ، وفي بلاد ما بين النهرين من وطننا العربي ٠٠ وأدت الاكتشافات الأثرية الى توضيح التاريخ القديم للشرق بصورة عامة ، ولشرقنا العربي بصورة خاصة ٠ وألفت مئات الكتب ، في مختلف اللغات ، تعريفا بالحضارات المصرية والسومرية والأكادية والبابلية والآشورية والفينيقية ٠

أما الحضارة العربية بعد الاسلام ، فلم يلتفت لدراسة آثارها المادية ، وتراثها العلمي والأدبي والفلسفي ، الا في وقت متأخر ، وذلك حين عكف المستشرقون على جمع المخطوطات العربية ، ونشرها ، ودراستها ، والقاء أضواء على ما تضمنته صفحاتها ٠ ويمكننا أن نعتبر السنة / ١٨٥٠ م / سنة البدء في دراسة حضارتنا ، وفي اصدار الكتب التي تضمنت هذه الدراسات ٠ ولقد صدرت منذ تلك السنة ، كتب كثيرة ، في مختلف اللغات الاوربية أولا ، ثم في اللغة العربية ثانيا ، كتب درست حضارتنا العربية دراسة شبه وافية ، بحيث أصبحنا اليوم أكثر معرفة بهذه الحضارة من قبل ، وان كنا لا نزال نجهل كثيرا من جوانبها ، نظرا لوجود عدد من المخطوطات كبير ، لم يتح له النشر العلمي أو الدراسة المعمقة حتى الان ٠

دراسة الحضارة العربية :

ـ ٨ ـ

بدأ أول احتكاك لاوربا بالحضارة العربية في القرن الخامس الهجري (العاشر الميلادي) حين بدأت تهتم بها « رغبة في الاطلاع على كتب العلم الطبيعي والطب والفلسفة »(٨) ، ثم ازداد هذا الاحتكاك بعد الحروب الصليبية « التي كانت

نتائجها السياسية صفرا ونتائجها العلمية والفنية كبيرة جـدا » (٩) ، وبعد أن غدت طليطلة وغيرها من مـدن الاندلس « موارد لطلب العلـم والتوسع في المعرفة » (١٠) ، وحيث سعى اليها الطلاب من أنحاء أوربا كافة للاستفادة من العلم ، وللقيام بالترجمة والتأليف ٠

وعني بعض من ملوك أوربا وبخاصة فريدريك الثاني (الامبراطور الالماني الذي عاش مـن سنة ١١٩٤ ، الى سنة ١٢٥٠ م) ، والفونسو العاشـر (ملك قشتاله ١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) ٠٠ عني بعض من هؤلاء الملوك بالحضارة العربية ، وحرصوا على ترجمة الكتب التي تحوي نتاج العقل العربي الى اللغة اللاتينية، وأسسوا بعض « المراكـز الثقافية التي عهـدوا بالتدريس فيهـا الى أساتـذة عرب »(١١) ، علموا فيها الطب والفلسفة والمعارف الانسانية ٠

وقد كثر النقل من العربية الى اللاتينية في مواد العلوم الطبيعية والفلسفية، ثم أخذت أوربا تعنى باللغة العربية نفسها مدفوعـة بـدوافع دينية وسياسية وتجارية ، ورافق ذلـك في ايطاليا ـ بـدءا من القرن الخامس عشر الميلادي ـ ازدهار التجارة في مدنها والبدء بحركة التبشير ٠ ٠ثم اقتدى الفرنسيون وغيرهم بالايطاليين في دراسة اللغة العربية ، ولم يكد القرن السابع عشر يهل ، حتى انقلبت تلك العناية الى جهد منظم ، وذلـك باحداث كراسي لتدريس اللغات الشرقية في الجامعات ، وبظهور حركة الاستشراق ، وباحداث مدارس للغـات الشرقية ، وانشاء جمعيات تعنى بدراسة اللغات الشرقية وتصدر مجلات تتولى نشر بحوثهـا ٠

وقد كان القرن التاسع عشر قرن الاستشراق والمستشرقين في كل أنحـاء أوربا ، (١٢) فلقد كثروا في دولها جميعا كثرة بالغة ، وقاموا بجهد تجلى في

جمع المخطوطات ، ونشرهـا مطبوعة ، ودراستها ، ثـم تأليف الكتب التاريخية والفنية والأدبية والعلمية ٠٠

— ٩ —

جهد المستشرقون هذا بالغ بعض الناس في اطرائه والاشادة به ، وبالـغ بعضهم الآخر في الحملة عليه ٠٠ والحق انما يقع في تقييم موضوعي لهذا الجهد يقول : ان حركة الاستشراق حركة هامة في تاريخ العلم والمعرفة ، فيها الخير ، وفيهـا الشر ٠٠ يتجلى خيرهـا في حفظ الكثير من التراث الشرقي ونشـره ، ودراسته الدراسة الموضوعية العلمية المتجردة عن الهوى والتعصب ٠ ويتجلى شرها في الافكار المسبقة ، والتحامل على العرب والمسلمين ، والتعصب السياسي والديني والعرقي ٠ واذا كان جانب الشر غالبا على ما صدر من دراسات رافقت ظهور الاستعمار الاوربي ، فان جانب الخير قد أخذ يقوى ويشتد ، وأخـذ المستشرقون ـ وقد تزودوا بزاد جيد من المعرفة ، وتخلصوا شيئا فشيئا مـن الهوى والتعصب ـ أخذوا يقفون الموقف العلمي الرصين والموضوعي ، فأدوا بذلك للتراثين الشرقي والعربي ، خدمـات لا تقدر بثمن ٠ لقد عرفونا بمـا خلّف أجدادنا من تراث هام ، (١٣) ونشروا الكثير من مخطوطاتنا ، وعلمونا طرائق نشرها نشرا علميا ، وعنهم أخذنا طرائق البحث العلمي الذي يعتمـد على الجهد والدراسة الموضوعية ، ويصل الى أفضل النتائج وأدقها ، مستفيدا من معطيات المعرفة الحديثة ٠

— ١٠ —

اتخذ المستشرقون تجاه الحضارة العربية ثلاثة مواقف :

الموقف الاول : أمـلاه التعصب ، فـذهب الى أن الحضارة العربية نقـل للحضارتين الاغريقية والفارسية ، نقل ليس فيه جديد ، ولا اسهام في تطويـر التراث الانساني ٠

والموقف الثاني : موقف أقل هوى وتعصبا من الاول ، انه يعترف بوجـود حضارة يسميها (الحضارة الاسلامية) ، منكرا عليها صفة العروبة ، ومدعيا أنها نتاج الشعوب التي اعتنقت الاسـلام وكانت من أصول روميـة وفارسية وهندية ٠٠ وواضح أن هذا الموقف يتحيز للشعوب غير العربية على اعتبار أنها من أصل آري ، وهو يقع من ثم في بحران التعصب العرقي ، لا حبا بالاسلام ، بل كرها للعرب ٠

أما الموقف الثالث : فموقف ايجابي ، انه يعترف باسهام العرب الكبير فيها، ثم يسميها (بالحضارة العربية) لأنها استظلت براية الدولة العربية ، وكـان نتاجها مكتوبا كله باللغة العربية ٠

الموقف الثالث هذا هو الذي وجهت عنايتي اليه منذ سنوات ثلاث ، فجمعت كل ما وقع تحت يدي ومعرفتي من مصادره ، ثم قرأتها قراءة دقيقة ، ولخصتها تلخيصا موسعا ، ورأيت من المفيد أن أجمع ذلك في كتاب ٠ وهأنذا أفعل ذلك في الفصول التالية : سأعرض آراء علماء ومستعربين أوربيين في تراثنا وحضارتنا اقتصر على كتب ألفها هؤلاء العلماء مع تقديري لكثير مما ألف علماء ومؤرخون عرب في هذا الموضوع ، (١٣) ، أقتصر على هذه الكتب للاسباب التالية :

— لأنهم بدؤوا قبلنا — منذ أكثر من قرن — في نشر تراثنا ودراسته ٠

— ولأنهم أقدر من علمائنا على الدراسة الجدية والمنهجية والصبر عليها ٠

— ولأنهم أوربيون، قالوا كلمتهم في حضارتنا ملتزمين في الغالب بالموضوعية٠

— ولأن لدراساتهم ، وما فيها من آراء ، قيمة علمية رفيعة ، فهي صادرة عن علماء أعاجم ، لا يمكن أن يتهموا بالتعصب للعرب ٠

الحواشي :

١ — عنوان كتاب صدر في نيويورك باللغة الانكليزية في /٢٥٠/ صفحة من الحجم الكبير وقد كتبه مجموعة من العلماء العرب والاميركيين والانكليز، وهو في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة تظهـر جوانب (عبقرية الحضارة العربية — مصدر النهضة) في : دور العرب في الثقافـة الاسلامية ، وفي الأدب والفلسفة والتاريخ والعمارة والفن ، والعلوم البحتـة ، وعلوم الحياة ، والتكنولوجيا ، والمواصلات والتجارة ٠

The Genius of Arab civilisation, souree of Revaussonce. New York University press, New York 1975.

٢ — ماكس فانتاجو ، المعجزة العربية ، ترجمة رمضان لاوند ٠

Vantajoux (Max), Le Miracle Arabe, Charlot, Paris, 1950.

٣ — القول لفولتير ، وقد اتخذه المؤرخ ويل ديورانت شعارا لكتابـه العظيم (قصة الحضارة) الذي يقع في سبعة مجلدات ضخمـة ، ترجـم الستة الأوليات منها الى اللغة العربية في ثمانية وعشرين جزءا ٠

٤ — جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ترجمة الجامعة العربية الجزء الاول ٠

٥ — ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، جـ ٢ من الترجمة العربية بقلم محمـد بدران ص ١٠ من طبعة عام ١٩٦٧ ٠

٦ ـ الحضارة العربية قبل الاسلام موضوع جديد لم يوف حقه بعد في كتب الحضارة ، بسبب قلة المصادر ، وعدم اجراء تنقيبات أثرية في مواقعها من اليمن ومدائن صالح والبتراء وغيرها ٠٠ على أن كثيرا من الكتب في الآونة الاخيرة ، قد بينت بوضوح أن للعرب مدنيتهم قبل الاسلام ، وأن الدراسات المقبلة ستنصف العرب في ذلك العهد الذي سموه بالجاهلي ٠

٧ ـ مزايا الحضارة العربية ، في مقالين لي بمجلة المعلم العربي التي تصدر عن وزارة التربية بالجمهورية العربية السورية ، في العددين الحادي عشر والثاني عشر (ت ٢ و ك ١ من عام ١٩٧٣) ٠

٨ ـ علي أدهم من مقال له بمجلة الهلال القاهرية عدد شهر يناير (كانون الثاني ١٩٧٦ ص ١٤) ٠

٩ ـ سيديو ، في كتابه تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ٠

١٠ـ علي أدهم المصدر المشار اليه سابقا ٠

١١ـ علي أدهم المصدر المشار اليه سابقا ص ١٥ ٠

١٢ـ للتوسع في قضية الاستشراق والمستشرقين ، ينظر الكتاب القيم الذي ألفه نجيب العقيقي بعنوان (المستشرقون) وهو في ثلاثة أجزاء ويضم تاريخا لحركة الاستشراق وتقييما لها ، ثم تراجم لغالبية المستشرقين مع التعريف بأبحاثهم وكتبهم ٠

١٣ـ نذكر منهم على سبيل المثال : كتب أحمد أمين في فجر الاسلام وضحاه وظهره ـ وكتاب الدكتور علي جواد (تاريخ العرب قبل الاسلام) ـ وكتب محمد عزة دروزة وبخاصة (تاريخ الجنس العربي) ـ وكتاب (أثر العرب في النهضة الأوربية) لجماعة من المؤلفين المصريين ـ و (ببليوغرافيا الثقافة العربية) التي أصدرتها الشعبة القومية المصرية لليونيسكو ـ وكتاب (أثر العرب في الحضارة الاوربية) لجلال مظهر ـ وكتاب عبد الرحمن بدوي (دور العرب في تكوين الفكر الأوربي) ٠

الفصل الثاني

تاريخ العرب العام(١)

تأليف المستعرب الفرنسي ل ٠ أ ٠ سيديّو

ـ ١ ـ

أمتعتني قراءة هذا الكتاب وأسعدتني ، فلما حاولت معرفة أسباب ذلك تبدت لي في ثلاثة :

أولها : مضمون الكتاب الذي كان عرضاً فلسفياً لتاريخ العرب ، ولحضارتهم ، وما كان لها من تأثير في الحضارة الحديثة ٠ « فلقد حل الوقت الذي توجه فيه الانظار الى تاريخ تلك الامة التي كانت مجهولة الامر في زاوية من آسية ، فارتقت الى أعلى مقام ، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون » (٢) ٠

وثانيها : أسلوب الكتاب في الاصل الفرنسي ، انه « جيد الاسلوب مع طول جمله ، وتوقع الكثيرون خلودا له ٠ فقد قال المستشرق غوستاف دوغا : لم تكن

غاية سيديو اصدار كتاب قائم على التحذلق ، بل أراد رسم صورة حية ساطعة لحركة الاسلام العجيبة في جميع نواحي التاريخ والأدب والفلسفة ، والعلم على الخصوص ٠٠ فوفق لبعث حضارة غابرة مؤثرة في حضارتنا ، وأعاد الى الامة العربية مكانها ٠٠ ان من النادر أن تجد بين المستشرقين من طرزوا دراساتهم بمثل أسلوبه الصحيح الرائع ، فالحق أن أسلوب تاريخ العرب هو مثال الاسلوب التاريخي »(٣) ٠

وثالثها : الترجمة العربية التي قام بها الاستاذ عادل زعيتر الذي هو إمام من أئمة البلاغة في هذا العصر ، وسيد النقلة المترجمين الى اللغة العربية منذ عرفت العربية الترجمة والنقل الى اليوم ٠ وقد بلغ أسلوبه في القوة والبلاغة والأصالة والابتكار ما يسمو به الى مصاف بلغاء العربية في أزهى عصورها»(٤)٠ انها ترجمة رائعة حافظت على مضمون الكتاب وروحه ، وعرضتهما بلغة عربية مبينة لا تشعر في أي سطر فيها بأثر الترجمة ٠٠ لكأن الترجمة كتبت باللغة العربية الفصيحة الفصيحة ٠

- ٢ -

ومؤلف الكتاب هو المستعرب سيديّو (١٨٠٨ - ١٨٧٦) ، انه ابن مستشرق ممتاز(٥) ، (جان جاك سيديو ١٧٧٧ - ١٨٣٢) الذي تضلع بالعربية وانزوى لمدة طويلة للتخصص بعلم الفلك عند العرب ، منتجا أبحاثا « لم يقدر له نشرها جميعا ، فتولاها ابنه لويس »(٥) الذي تخصص مثل أبيه في علم الفلك عند العرب ، وأتقن البحث في رياضياتهم ٠ وكان من نتائج ذلك كتب كثيرة في هذه العلوم (٦) ، وفصل طويل في « تقدم العلوم الرياضية والفلكية عند العرب » في كتابه موضوع هذا البحث(٧) ، لذلك استحق التقدير من المستشرق الكبير

دوساسي ، فعينه في سنة ١٨٣٢ « سكرتيرا لكلية فرانسا ، وسكرتيرا لمدرسة اللغات الشرقية ، فأدار هذين المعهدين العظيمين في أكثر من أربعين سنة » (٨)٠

- ٣ -

هذا الجو الذي ولد فيه سيديّو وعاش ، والذي يعبق بحب العرب ، وبالاعجاب بتراثهم ، دفعه الى التعمق فيه ، ودراسته واكمال المسيرة التي بدأها والده ، والتي كانت منتهاها في كتاب (تاريخ العرب العام) « الذي قدّر منذ نشره تقديرا صائبا »(٩) ، فأعيد طبعه للمرة الثانية في فترة يسيرة ، والذي أعجب علي مبارك باشا وكان وزير المعارف المصرية ، فأمر بترجمته ، ثم طبع في سنة (١٣٠٥ هـ) ، ثم أعاد الاستاذ زعيتر الترجمة التي نشرت بعد ما يقرب من ستين عاما ، فكانت أكمل وأوفى لان الترجمة الاولى كانت « تلخيصا للكتاب بنحو نصفه ، وعرضا مخالفا لآراء المؤلف ومناحيه مخالفة تامة »(١٠) ٠

وتقع هذه الترجمة الثانية في /٥٤٠/ صفحة من القطع المتوسط ، وتقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية :

الأول : القسم التاريخي ويشتمل على تاريخ العرب القديم وهو في خمسة أبواب تتوزع على خمسة عشر فصلا ٠ عناوين الابواب كما يلي :

الباب الأول : جغرافية بلاد العرب ، والعرب قبل محمد ٠

الباب الثاني : محمد والقرآن ٠

الباب الثالث : العرب بين وفاة محمد واصطراع بني أمية وبني العباس ٠

الباب الرابع : عظمة العرب وانحطاطهم في الشرق ٠

الباب الخامس : عظمة العرب وانحطاطهم في الغرب ·

الثاني : القسم الحضاري ويشتمل على بحث في حضارة العرب في باب واحد يصف (الحضارة العربية) ، ويلح على الجانب العلمي فيها ·

الثالث : تاريخ العرب المعاصر في باب واحد بعنوان (حال العرق العربي الحاضرة) في المشرق وأفريقية ·

وقد أخذ القسم التاريخي السياسي من الكتاب أكثره فكان في حوالي أربعمائة صفحة ، أما القسم الحضاري فقد خصص له المؤلف اثنتي عشرة ومائة صفحة ·

— ٤ —

القسم الأول استعراض دقيق وجيد وصحيح بوجه عام لجغرافية بلادالعرب — يريد بها الجزيرة العربية — وذلك في فصل مطول ينهيه بالمقارنة بين الشعب العربي الذي عاش في جزيرة « هي من بقاع الدنيا الممتازة »(١١)، وبين الشعوب التي هاجرت من صحارى آسيا ، فكان العرب بناة حضارات أما اولئك فمدمرون لها ·

ثم يقدم في الفصل الثاني تاريخ « العرب قبل محمد » في الجزيرة وخارجها والعوامل الكثيرة « التي كانت تحفز القوم الى الوحدة العربية »(١٢)، وهي اتحاد الاصل (١٢)، ووحدة الطبائع والعادات(١٣)، ووحدة اللغة(١٣) ، والاسواق العامة(١٤) ، والشعر العربي الذي يلقى فيها (١٥)، وروح دينية توجههم نحو الوحدانية (١٦)، والحج الى الكعبة « هبة الله للشعب العربي حتى تكون شاهدة على أن العرب خير أمة »(١٧) ·

وفي الباب الثاني من الكتاب بحث جيد عن محمد والقرآن ، فيه وصف جيد لحال (بلاد العرب وقت ظهور محمد)(١٨)، حين « كان كل انسان في جزيرة العرب مستعدا لاكبر الانقلابات » (١٨)، وتعريف ممتاز بحياة الرسول العربي في فصل مطول (١٩)، الرسول الذي تجاوز « كل ما اعترضه من ضروب العوائق· وما ألقته طقوس الوثنية الهمجية بين قومه من الجذور العميقة ·· » (٢٠) ، وقام « بما لا يحصيه عدد من الاصلاحات التي أوجبها بقوة بيانه » (٢٠) ، فلم يعد بامكان أحد الا أن يعجب « بتلك النتائج العظيمة التي تمت بفضله »(٢٠)·

وفي فصل القرآن(٢١)، فهم لكتاب الله الكريم دقيق ، وعرض واسع لتعاليم الاسلام ·

ويبدأ بعد هذا في استعراض التاريخ العربي بالتفصيل ، فيخصص الباب الثالث للعهدين الراشدي والاموي ، في فصول خمسة عن الخلفاء الأولين ، والعرب الفاتحين ، والفتوح الجديدة ، وبني أمية والامبراطورية العربية الناهضة ·· وفي هذا الباب تعليلات للفتوحات العربية المدهشة ، واشادة بأخلاق العرب وتسامحهم ، وشجاعتهم ، ودحض لقضية حرق مكتبة الاسكندرية من قبل عمرو بن العاص(٢٢)، وألم لما أزهق في الفتن من أرواح لو أريقت دماء أصحابها في الفتوحات لتغير وجه التاريخ(٢٣) ·

وفي الباب الرابع تاريخ العرب في عهدين : عهد العظمة (بين سنتي ١٢٥ و ٦٥٦ هـ — ٧٤٢ — ١٢٥٢ م) ، ثم عهد الانحطاط بين سنتي (٦٥٦ — ٩٤٥ هـ — ١٢٥٢ — ١٥٣٨ م) أي ، العهدين العباسي والمملوكي في المشرق(٢٤) ·· « كان دور أوائل العباسيين أسنى أدوار العرب في الشرق ، لقد انقضى زمن الفتوح وحل عصر الحضارة وبدىء بخلافة المنصور عهد اولئك الخلفاء الرفيعي الشأن الذائعي الصيت في آسية ، وفي أوربة »(٢٥) وهم المهدي والهادي

والرشيد » الذي اتصف بأطيب المزايا كالشجاعة والكرم والمروءة »(٢٦) ، والمأمون « الملقب بأغسطس العرب ، والذي حقق ما يفوق الآمال التي أنيطت به » (٢٧) والمعتصم الذي كان « ذنبه الوحيد أنه جعل حرسه الخاص من غلمان الترك » (٢٨) « الذين هم قوم فطن غلاظ أفظاظ لم يكادوا يقبضون على أعنة الأمور حتى أدت الى أسوأ النتائج » (٢٩) وكان تناقض عجيب فقد كنت ترى مسالك السلطة مضرجة بالدم ، وحرس بغداد التركي يملي ارادته على خلفاء النبي ، وكنت ترى العرب الذين تعبوا من الحرب ومن الفتن الداخلية منهمكين في دراسة العلوم والآداب ، فلم يزل عمل المأمون بموته ، بل زاد نموا شيئا فشيئا ، وأخذ بنو العباس ، بعد أن انزووا في بلاطهم ، يحاطون بالعلماء ، أي بأولئك الذين يبتعدون عن الامور التي تغري البهائم ويجدون في محادثة ذوي البصائر ما يسليهم عن سوء طالعهم (٣٠) ٠

ثم بدلت الحضارة مكانها ، « فأخذ العرب يلقون أسطع الأنوار من القاهرة لا من بغداد ٠٠ فلقد ازدهرت التجارة والصناعة والزراعة والآداب والفنون والعلوم في العهد الفاطمي بمصر كما ازدهرت في عهد خلفاء بني العباس الأولين »(٣١) ٠

وبرز في أثناء ذلك صلاح الدين الأيوبي « الجماع لأفضل الصفات ، فهو شجاع عند كل ابتلاء ، عظيم النفس صادق في عهوده صدقا منقطع النظير ، خالص التقوى ، مشبع من روح العدل ، معتدل وقت النصر ٠٠ وكان صلاح الدين أول قابض على قوات مصر والشام ، وفي هذا سر ما أصاب به الصليبيين من قوارع »(٣٢) ٠

ويكون الباب الخامس مخصصا لتاريخ العرب في الغرب ، أي في المغرب والاندلس (بين سنتي ١٢٥ ـ ١٠١٨ هـ ـ ٧٤٣ ـ ١٦٠٩ م) وصقلية ،وفيها

عرض مفصل لهذا التاريخ في أكثر من مائة صفحة (٣٣)، مع اشادة بالحضارة العربية التي أقامها العرب في هذه البلاد ٠ ففي صقلية كان الأهلون « مدينين للعرب بالادارة الجيدة واصلاح الزراعة والفنون والصناعة »(٣٤) وفي الاندلس « أسفر التاريخ عن حضارة ثلاثمئة سنة تباين جهل شعوب الغرب وهمجيتها »(٣٥)، حضارة كان « العرب فيها أرقى من النصارى أخلاقا وعلما وصناعة بمراحل (٣٦)، وكنت ترى حب الثقافة عاما في جميع الطبقات (٣٧)، وبلغ العرب درجة رفيعة من الكمال في فن البناء والموسيقى والرقص » (٣٧)، لقد كان عدد سكان اسبانيا يزيد كثيرا على عددهم في أيامنا ، وكان في القسم الاسباني الذي ملكه العرب ست مدن عظيمة ، وثمانون مدينة تانوية،وثلاثمئة مدينة من الدرجة الثالثة ، وما لا يحصى من الضياع والقرى والكفور ، وكان يعد في قرطبة وحدها مئتا ألف بيت وستمئة مسجد وخمسون مشفى ، وثمانون مدرسة عامة ، وتسعمئة حمام شعبي ، وكان عدد سكان قرطبة مليون شخص ٠٠ »(٣٨) ٠

ويصف المؤلف في فصل خاص (وقائع عرب الاندلس الاخيرة) (٣٩) بين سنتي (١٢٣٤ و ١٦٠٩ م) وفي صفحات الفصل الاخيرة تفصيل لما قاساه هؤلاء وبخاصة بعد سقوط مدينة غرناطة ، وانتهاء الحكم العربي نهائيا ٠٠ حيث أسلموا الى محاكم التفتيش ، وأحرقت مخطوطات العرب التي حفظت منذ قرون بكل عناية (٤٠)، ثم صدر مرسوم يحظر عليهم ان يستحموا وأن يرقصوا على الطريقة المغربية وأن يتكلموا باللغة العربية (٤١) ٠

« وحلت سنة ١٦٠٩ فأنزلت بالعرب آخر ضربة اذ أمر فيليب الثالث بتكديس عرب بلنسية ومرسية في سفن ونقلهم الى شواطىء افريقية ، ومن العرب أناس كثيرون جازوا جبال البرانس فأحسن هنري الرابع قبولهم»(٤٢)٠

« ويقدر العارفون عدد من طرد من بلاد الاندلس منذ سقوط غرناطة حتى سنة ١٦٠٩ بثلاثة ملايين عربي ، ومن هؤلاء العرب كانت تتألق صفوة السكان في أمور الصناعة والزراعة ، ومما أدى اليه اخراجهم حدوث فراغ في اسبانية لم تقدر القرون على ملئه ، فلم يستطيع الاسبان قط أن يعيدوا الى سهول بلنسية ومرسية وغرناطة ما عرفته من الازدهار أيام سلطان العرب » (٤٣) ·

ـ ٥ ـ

أما (وصف الحضارة العربية) فمكرس له الباب السادس وهو في ثلاثة فصول تشغل مائة صفحة ونيف من الكتاب(٤٤)، وتتناول بالوصف تقدم العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية،والفلسفة والفقه والآداب والفنون والاختراعات·

وقد مهد لذلك بالحديث عن (مدرسة بغداد ، وعن « حمل العرب وحدهم لواء الحضارة في القرون الوسطى ، ودحرهم بربرية أوربة التي زلزلتها غارات قبائل الشمال ، وسيرهم الى (منابع فلسفة اليونان الخالدة) ·· انهم لم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة ، بل وسعوه وفتحوا أبوابا جديدة لدرس الطبيعة»(٤٥)، وكان من نتيجة ذلك أن «دونت مؤلفات لا تحصى في كل موضوع وذلك باللغة العربية التي هي لغة العلم في الشرق وفي جميع البلدان الاسلامية · ولا تزال هذه المؤلفات موجودة تقريبا ، وتعد في مجموعها من أوسع ما عرف ، من دوائر الأدب ·· »(٤٦) ·

وينقل المؤلف عن (همبولد) في كتابه عن الكون قوله : « كان العرب مستعدين ، بما يقضي بالعجب ، ليمثلوا دور الوسيط في الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادي الكبير ، وفي القسم الجنوبي من افريقية الوسطى · والعرب كانوا ذوي نشاط منقطع النظير ، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز في

تاريخ الدنيا ·· والعرب ـ على عكس بني اسرائيل ذوي التعصب وعدم التسامح ـ كانوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحود بخلقهم القومي، وذكريات وطنهم الاصلي مع تقلبهم في مختلف الاقطار ·· وانك لتجد العرب حين خرجوا من جزيرتهم غير حاملين معهم دينهم فقط ، بل تجدهم حاملين ، أيضا ، لسانا كاملا وأزاهير شعر لم يفت أمره شعراء البروفنس الطوافين وشعراء المانية الجوالين » (٤٧) ·

ثم ينتقل المؤلف الى الحديث عن علمي الرياضيات والفلك ، فيخصص لهما فصلا مطولا يدل على عنايته بهما (٤٨)، وهو يعدد في هذا الفصل مآثرهم في ذلك ، ويعرف بالكثيرين من العلماء والفلكيين العرب ، وقيامهم بأعمال دقيقة باهرة ،وباختراعهم أدوات كثيرة ، وبانشائهم المراصد الكبرى ، وباحداثهم المدارس التي كانت مدرسة بغداد على رأسها « ان ظاهرة مدرسة بغداد ـ في بدء أمرها ـ هي الروح العلمية التي كانت سائدة لاعمالها ، فكانت مبادىء أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلومات الى العلل ، وعلى عدم التسليم بما لا يستند الى التجربة ، وكان العرب في القرن التاسع أصحابا لهذا المنهاج الخصيب ، فأضحى ، بعد زمن طويل ، أداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول الى أجمل اكتشافاتهم »(٤٩) ·

وهو ينهي هذا الفصل القيم بتلخيص ما تم على يد العرب من تقدم في العلوم الصحيحة ، واكتشافات يعزي فخر أكثرها الى علماء أوربة في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، بينما يجب أن يرد ذلك الى العرب أصحابها الاصليين · وهانحن أولئك ننقلها حرفيا عن الكتاب :

١ ـ استبدال الجيوب بالاوتار ، ادخال المماسات الى حساب المثلثات ،

تطبيق الجبر على الهندسة ، حل المعادلات المكعبة ، أدق النظريات الرياضية ، كلها أمور أسفرت عنها المخطوطات العربية حتى الان ٠

٢ ـ حركة أوج الشمس ، شذوذ سير الشمس ، مقدار السنة ، كلها أمور عينها بالضبط فلكيو بغداد ٠

٣ ـ لم تظل الجغرافية الرياضية راقدة بين أيدي العرب ، فقد صححت أزياج بطليموس تصحيحا اقترحه (دوليل) حوالي سنة ١٧٠٥ فقط ٠

٤ ـ لم نكد نعد بضعة أرصاد فلكية أتي بها بين القرن السادس والقرن السادس عشر في أوربة على حين ملأ راصدوا العرب الكثيرون المذكورون أنفا النقص الكبير في تقاويم العلم ٠

٥ ـ أسس (تيخو براهة) مرصد أورايغبرغ في سنة ١٥٧١ مع أن مرصد سمرقند كان محل اعجاب فلكيي المشرق قبل ذلك بقرن ٠

٦ ـ عدت الحلقة بين الآلات الكثيرة التي استعملها تيخو براهة على أنها من مخترعاته ، مع أن الميل ذا الثقب وذات الحلق مما استعمل في مرصد مراغة والعرب قد عرفوا الرقاص أيضا ٠

٧ ـ لاحظ العرب قبل علماء العصر الحاضر بزمن طويل النقصان التدريجي لميل سمت الشمس ٠

٨ ـ قدر العرب بالضبط مقدار مبادرة الاعتداليين منذ القرن الحادي عشر ٠

٩ ـ لم يكن تيخو براهة أول من اكتشف شذوذ أعظم عرض للقمر ، فقد رصد العرب هذا الشذوذ قبله بستمئة سنة ٠

١٠ ـ عد تعيين الاختلاف الثالث للقمر أهم ما يفتخر به تيخو براهة ، ومن حق أبي الوفاء أن ينتزع منه هذا الشرف ٠

ونتائج كتلك من شأنها أن تخلع على علم الفلك الشرقي لباس الابداع ولن نقدر على انكار ذلك بعد الان ، ونحن نفترض أننا كلما أوغلنا في زياد مخطوطات العرب جمعنا براهين جديدة على ارتقاء العلوم الرياضية لدى العرب ٠

واذا ما بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا :

أن جربرت الذي أضحى بابا باسم سلفستر الثاني أدخل الينا بين سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تعلمه في الاندلس من المعارف الرياضية ٠

وأن أدهيلار الانكليزي طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الاندلس ومصر فترجم من العربية كتاب (الأركان) لأقليدس الذى كان الغرب يجهله ٠

وأن أفلاطون التيفولي ترجم من العربية كتاب الاكر لثاذوسيوس ، وأن رودولف البروجي ترجم من العربية كتاب « الجغرافية في المعمور من الارض » لبطليموس ٠ وأن ليونارد البيزي ألف حوالي سنة ١٢٠٠ ، رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب ٠ وأن كنبانوس النبرى ترجم من العربية في القرن الثالث عشر كتاب أقليدس ترجمة جيدة شارحا له ٠ وأن فيتليون البولوني ترجم كتاب البصريات للحسن (ابن الهيثم) في ذلك القرن ، وأن جيرار الكريموني أذاع ، في ذلك القرن أيضا ، علم الفلك الحقيقي المتين بترجمته المجسطي لبطليموس والشرح لجابر ، الخ ٠

وفي سنة ١٢٥٠ أمر الاذفونش القشتالي بنشر الازياج الفلكية التي تحمل اسمه واذا كان صاحب الصقليتين روجر الاول قد شجع على تحصيل علوم العرب في صقلية ، ولا سيما كتب الادريسي ، فان الامبرطور فريدريك الثاني لم يبد

أقل حضا على دراسة علوم العرب وآدابهم وكان أبناء ابن رشد يقيمون ببلاط هذا الامبرطور فيعلمونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعي »(٥٠) ٠

وقد اتفق للعلـوم الطبيعية عند العرب مثل مـا اتفق للعلـوم الرياضية والفلكية من التفوق ويرى سيد يونقلا عن همبولد « وجوب عدّ العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية بالمعنى الحديث »(٥١) ، ثم يأخذ في التدليل على صحة هذه المقولـة في فصل يخصصه للحديث عـن الطب والصيدلة وعلمـي النبات والحيوان ٠

ويكون للفلسفة والفقه والآداب والفنون والاختراعات فصل ثالث من هذا الباب المكرس لوصف الحضارة العربية ٠

في هذا الفصل يجزم المؤلف بوجـود فلسفة عربية بالمعنى الصحيح(٥٢) ، أخذت عن اليونان فلسفتهم أولا ، ثم سرعان ما كان لهـا ممثلوها كالكندي ، والمعتزلة ، والمتصوفة(٥٣)، والغزالي (٥٤) واخوان الصفا (٥٥) وابن رشـد وغيرهـم ٠٠

وفي هذا الفصل أيضا تعريف بعلوم اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير والمعاجم وعلوم البلاغة (٥٦) ٠٠ ثم تفصيل القول بأهـم كتب الادب العربي (شعره ونثره) (٥٧)، وبكتب التاريخ الهامة(٥٨)،كتب ابن خلدون والمقريزي وابن تغري بردي وابن أياس والمسعودي والطبري والنويري وابن الفرات وابن الاثير والمقري ٠٠ فضلا عن كتب التراجم ٠

وللصناعة العربية صفحة مشرقة فلقد بلغ العرب حـد الكمال في الفنون الثانوية أو الميكانيكية ، واثباتا لذلك يورد سيديو قول فياردو :

« يكفي أن نذكر ما اتفق لهم من صيت بعيد عند جميع الشعوب في الدباغة

والسبك والتكفيت والصقل والحياكة ، ومـا تلك السيوف المسقّاة الباترة ، والدروع الخفيفة التي لا تخرق ، والزرابي الوثيرة ، ونسج الصوف والحرير والكتان الهيف الزاهـرة سوى شهـود عـدول علـى تفوق العرب في الفنون الصناعية »(٥٩) ، ثم صفحات أخريات عن التجارة والزراعة الاندلسية ثم كلمة عن بعض اكتشافات العرب التي قلبت وجه الدنيا من النواحي الادبية والسياسية والحربية كالورق والبوصلة وبارود المدفع (٦٠) ٠

وتكون نهاية هذا الفصل كما يلي : « وهكـذا تجلى أثر العرب في جميع فروع الحضارة الاوربية الحديثة ، وظهرت بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر ، آداب تعد من أعظم ما عرف ، وتشهد الانتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب ، وبما كان لهم من الاثر البليغ في أوربا النصرانية ، فجاء هذا مسوغا للرأي القائل أن العرب كانوا أساتذة لنا ، وما أتى العرب به من المواد التي لا تقدر بثمن عـن تاريخ القرون الوسطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الاحوال من ناحية ، وما جاء به العرب من صناعة منقطعة النظير ومن مبان دالـة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى ٠٠ كلهـا أمور يجب أن ترفع ـ في أعيننا شأن الامة العربية التي ازدريناها زمنا طويلا»(٦١) ٠

— ٦ —

هذه النصوص الكثيرة التي استشهدنا بها من (تاريخ العرب العام لسيديو) تبرزه لنا كتابا جيدا يعرض لنا التاريخ السياسي والحضاري للعرب منذ ظهور الاسلام حتى نهايـة القرن التاسع الهجـري / السادس عشر الميلادي ٠ ولكنه

ـ رغبة منه في اتمام الصورة يقدم لنا في الباب السابع (حـال العرق العربـي الحاضرة) منذ القرن السابع عشر الميلادي الى عام ١٨٥٠ م (٦٢) ٠

ان تاريخ العرب معروض عرضا دقيقا،وحضارتهم مصورة تصويرا ممتازا وبخاصة ، في نواحي العلوم الرياضية والفلكية التي ينقلها سيديو ، ويعرفهـا معرفة جيدة ٠ فاذا ما أضفنا الى ذلك أن الكتاب من أوائل الكتب التي صدرت عن تاريخنا وحضارتنا ، وأن كثيرا من تراثنا كان لا يزال مخطوطا ومجهولا ، ارتفعت في نظرنا قيمته ، وقدرنا الجهد الكبير الذي بذله هـذا العالـم الكبير (سيديو) ، حتى أعطانا هذا الكتاب الذي اجتمع فيه المضمون الصحيح الدقيق والاسلوب الممتاز ، الذي أضافت اليه الترجمةالعربيةالانيقة جمالا على جمال٠

وها نحن أولاء نختم هذا البحث بثلاثة نصوص نجد فيها جماع المزايا التي عرضناها فيما تقدم ٠

النص الاول : « فقد أنشأ العرب أسواقا عامة يتعارفون فيها ويتحابون ، ولم تكن هذه الاسواق التي تقام في عكاظ ، وفي المجنة وفي ذي المجـاز ، سوى مؤتمرات للشعر في الحقيقة ٠

« ولا شيء أروع من تلك الاسواق على ما كان يسودها من البساطة ، فقد كانت تشابه الالعاب الاولمبية ، فكان ينهض مقاتل متزن الخطا أمـام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة ما يشير الى أنه من طبقة عالية ، وكانت الابصار تتوجه اليه مع ذلك ، فينشد بصوته الرخيم من فوق مرتقى قصيدة بأسرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرتـه أحيانا وتراه يصف الانتقام أحيانا ، وتراه يمتدح القرى والشجاعة ، ولا سيما الكرامة ، أحيانا ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمناهل المبتغاة وخفة

الغزال أحيانا ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التي يود الشاعر أن يوحي بها اليه ، فيشاهد على وجهه المتنبه علائـم الاعجاب بالبطل الصابر في الضراء ، كما تشاهد عليه علائم احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد الى نشيده بحماسة جديدة » (٦٣) ٠

النص الثاني : « وأوائل الخلفاء هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، لم يسكرهم سلطانهم ، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء ، بل ظلوا أوفياء لحيـاة الزهد والورع التي كان محمد قدوة لهم فيها ، فكانوا مثله ، يقصدون المسجد للوعظ والصلاة ، ويستقبلون الفقراء والمظلومين في بيوتهم ، وسـار عمر بن الخطاب الى القدس ليتسلمها ، فسافر من المدينة الى فلسطين من غير حاشية أو حرس ، وتوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوى ثوب وعبد وجمل ، وكان علي يتصدق على الفقراء في كل جمعة بما عنده من النقود ، أفلا نذكر أن أبا بكر كان يأخذ من بيت المال خمسة دراهم مياومة ؟ أفلا نذكر أن عمر بن الخطابكان ينام على درج المسجد بين المساكين ؟ أفلا نذكر حفنة تمر علي بن أبي طالب ؟ فهذه الامور هي وما ماثلها مما هو معروف ، وكان الخليفة مسؤولا عن أفعاله لذلك أكره عثمان على تقديم حساب عن أموال الدولة ، وكان يمكن الادعاء على الخليفة ، ولم يأنف علي من الحضور الى المحاكـم متهمـا نصرانيا بسرقة سلاحه ، وكانت أحكام القضاء نافذة ، فلم يجرؤ أحد من أولئك الخلفاء الاربعة الذين عرفوا بالخلفاء الراشدين على العفو عن مدين ؟ وكانت الشريعة واحدة للفقير والغني والسويّ والعاميّ ٠ »(٦٤)

النص الثالث : كان المأمون يعد سلامة الامم في العلم ، فلم يرد أن يشع نور العلوم من جو دولي الامر الطارىء ، فجعل شرف الآداب في حرز من تقلبات

الحوادث بما حبسه عليها من الوقف الدائم ، وفتحت المدارس في كـل ناحية ، وصرت ترى لاول مرة في تاريخ العالم على مـا يحتمل ، حكومـة دينية تحالف الفلسفة وتهيء فوزها وتشاطرها نصرها ٠ وارتوى المأمون من مبادىءالتسامح الحكيم ، وأحاط نفسه بعلماء اليونان والفرس والقبط والكلدانيين ، فكـان راغبا عن أي تمييز في مادة الدين ، فكان من الامور التي اصطلح عليها أنه اذا ما اجتمع أرباب عشر أسر من النصارى أو اليهود أو المجوس ، أمكنهم أن يقيموا كنيسة ، وأنه يمكن كل رجل أن يمارس المناصب العامة من أية ديانة كان »(٦٥)٠

الحواشي

---

(١) عنوان الكتاب بالفرنسية
L. A. Sédillot, Histoire générale des Arabes, 2ièm Ed. Paris, 1877.
وقد اعتمدنا في كتابة هذا البحث على ترجمة المرحوم الاستاذ عادل زعيتر المطبوعة بالقاهرة – دار احياء الكتب العربية – عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م لعدم تمكننا من الحصول على الاصل الفرنسي ، وكان المرحوم زعيتر قد ترجم الكتاب عن طبعته الثانية (باريس ١٨٧٧) ، ولم نوفق لمعرفـة سنة طباعته الطبعة الاولى ، وان كنا نقدر أنها تمت بين سنتي (١٨٥١ و ١٨٦٠) لورود السنة الاولى في بحث من أبحاث الكتاب ٠ تنظر الصفحة ٥٣٧ من الترجمة العربية ، حيث يرد فيها اسم أحد حكام الجزائر المعين في (١٠ مايس ١٨٥١) ٠

(٢) مقدمة المؤلف ص ١٥ من الترجمة العربية ٠

(٣) من كلمة المستشرق غوستاف دوغـا (١٨٢٤ – ١٨٩٤) في تقديم الاصل الفرنسي ٠ ترجمة زعيتر ص ٥ وص ٨ ٠

(٤) الكلمة لمحمود سيف الدين ٠ من مقدمة ترجمة زعيتر لكتاب غوستاف لوبون (حضارة العرب) ص ٩ ٠

(٥) نجيب العقيقي ، المستشرقون ج ١ ص ١٧٧ ومقدمة دوغا ص ٩ ٠

(٦) سماها العقيقي في (المستشرقون) ج ١ ص ١٧٧ و ١٧٨ ٠

(٧) من ص ٣٨٣ ، الى ص ٤٣٨ ٠

(٨) من كلمة وردت في تقديم الكتاب ص ١٠ ٠

(٩) المقدمة ص ٩ ٠

(١٠) المصدر السابق ص ٦ من مقدمة عادل زعيتر ٠

(١١) الكتاب ص ٢٩ ٠

(١٢) ص ٥١ ٠

(١٣) ص ٥٢ ٠

(١٤) ص ٥٣

(١٥) ص ٥٤ ٠

(١٦) ص ٥٦ ٠

(١٧) ص ٥٧ ٠

(١٨) عنوان الفصل الاول من الباب الثاني ص ٦٣ ٠

(١٩) الفصل الثاني من الباب الثاني من ص ٦٦ ، الى ص ٨٤ ٠

(٢٠) الكتاب ص ٨٤ ٠

(٢١) ص ٨٥ وما بعد ٠

(٢٢) ص ١٥١ من الكتاب ٠

(٢٣) ص ١٧٠ من الكتاب ٠

(٢٤) من ص ١٩٩ ، الى ٢٧١ ٠

(٢٥) ص ٢٠٩ ٠

(٢٦) ص ٢١٠ ٠

(٢٧) ص ٢١١ ٠

(٢٨) ص ٢١٢ .

(٢٩) ص ٢٢٥ .

(٣٠) ص ٢٣٩ .

(٣١) ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

(٣٢) ص ٢٦٢ .

(٣٣) من ص ٢٧٣ ، الى ص ٣٨٠ .

(٣٤) ص ٢٨٤ .

(٣٥) ص ٢٩٢ .

(٣٦) ص ٣١٢ .

(٣٧) ص ٣١٣ .

(٣٨) ص ٣١٦ .

(٣٩) الفصل الرابع من الباب الخامس ص ٣٦٠ وما بعد .

(٤٠) ص ٣٧٧ .

(٤١) ص ٣٧٩ .

(٤٢) ص ٣٧٩ من الكتاب .

(٤٣) ص ٣٨٠ .

(٤٤) من ص ٣٨١ الى ص ٤٩٢ .

(٤٥) ص ٣٨٣ .

(٤٦) ص ٣٨٤ .

(٤٧) ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

(٤٨) من ص ٣٨٣ ، الى ص ٤٣٨ .

(٤٩) ص ٣٩٢ .

(٥٠) ص ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٤٣٨ .

(٥١) ص ٤٣٩ .

(٥٢) ص ٤٥٠ .

(٥٣) ص ٤٥٠ و ٤٥١ .

(٥٤) ص ٤٥٢ .

(٥٥) ص ٤٥٤ .

(٥٦) ص ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٥٩ .

(٥٧) ص ٤٦١ وما بعد .

(٥٨) ص ٤٦٩ وما بعد .

(٥٩) ص ٤٨٠ و ٤٨١ .

(٦٠) ص ٤٨٨ وما بعد .

(٦١) ص ٤٩٠ و ٤٩١ .

(٦٢) من ص ٤٩٥ ، الى نهاية الكتاب .

(٦٣) ص ٥٣ و ٥٤ .

(٦٤) ص ١٢٤ و ١٢٥ .

(٦٥) ص ٢١٣ .

الفصل الثالث

تاريخ الطب العربي

للمستعرب الفرنسي لوسيان لوكلير (١)

- ١ -

الطب من العلوم التي اهتم بها العرب اهتماما بالغا ، قبل الاسلام وبعده ، اهتموا به قبل الاسلام لحاجتهم الماسة اليه ، وبعد الاسلام عملا بحديث مرويّ عن الرسول (ص) يقول : « العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان » ·

وقد تجلى ذلك الاهتمام في الامور التالية :

- جمع الأحاديث النبويـة المتعلقة بالطب في كتاب يحمل عنوان (الطب النبوي) ·

- ترجمة الكتب الطبية عن اليونانية والفارسية والهندية والسريانية ·

- تأليف الكتب الطبية الممتازة التي بقيت عمدة العالم في هذا العلم حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي ·

- تأليف كتب كثيرة تضم تراجم للاطباء العرب وغير العرب ·

- تشجيع الطب والاطباء من قبل الخلفاء والأمراء والملوك ·

- اقامة المستشفيات (البيمارستانات) الممتازة في أكثر العواصم والمدن العربية الكبرى(٢) ·

لذلك « شغل العرب المكان الاول في الطب ، وبقوا سادة العالم في العلـم الطبي خلال أكثر من خمسة قرون · (٣)

- ٢ -

لذلك لم يكن غريبا أن يهتم المؤرخون - الغربيون منهم خاصة - بتأليف الكتب التي تؤرخ للطب العربي ، وذلك منذ أوائل القرن التاسع عشر فسمعنا أسماء (فريند ، وسبرنجل ، وأمورى ، ووستنفلد ، ومايرهوف ، وبراون ، وأولمان)(٤)، وغيرهم كثيرين ، يخصصون كتبا في الطب العربي ، فضلا عـن الفصول الكثيرة في كتب الحضارة العربية(٥)، والمقالات العديدة في دائرة معارف الاسلام ، وفي المجلات العامة والمتخصصة ، وكان من آخرهـا أكثر من عشرة أبحاث تقدم بها العلماء العرب والاجانب عن هذا العلم في (ندوة تاريخ العلوم عند العرب) ، تلك الندوة التي أقيمت في جامعة حلب في شهر نيسان من عـام ١٩٧٦ ، يضاف اليها الكتب التي ألفها العلماء العرب وعلى رأسهـا كتابـا الطبيبين أمين أسعد خير الله وشوكت الشطي ·

- ٣ -

يقف - في رأس هـذه الكتب أهميـة - كتاب (تاريـخ الطب العربي

Histoire de la médecine arabe) الذي ألفه المستعرب الفرنسي (لوسيان لوكلير) ، ونشره بباريس منذ مائة عام أي في سنة ١٨٧٦ ، هذا الكتاب الذي بقي على الرغم من مضي قرن على عام صدوره ، أجود ما ألف في هذا الموضوع الهام من فروع الحضارة العربية .

نقول ذلك استنادا لقرائتنا للكتاب من جهة ، وللأسباب التالية التي نقدمها تعزيزا لهذه المقولة من جهة ثانية .

فالكتاب أولا أضخم ما ألف في موضوعه . انه في مجلدين ضخمين يقع كل منهما في أكثر من خمسمائة صفحة من القطع المتوسط .

والكتاب ثانيا مقسم تقسيما منطقيا ، ومتبع فيه منهج علمي سليم دقيق ، فهو موزع على أبواب سبعة (سمى المؤلف كلا منهما كتابا) (٦)، . وهذه الأبواب تتناول تاريخ الطب العربي ، حسب العصور ، منذ العصر الجاهلي ، الى أوائل النهضة العربية المعاصرة . مع مقدمة وخاتمة بالطبع ، وعناية بالمؤسسات التي لها علاقة بالطب من مستشفيات ومكتبات ومدارس وشرطة صحية .

والكتاب ثالثا مصدر بمقدمة تتحدث عن الحضارة العربية وعن الفتح العربي ، وعن انفتاح العرب على علوم من سبقوهم ، واقتباسهم الطب عن الاغريق وغيرهم ،ثم حديث مفصل عن المصادر التي استقى منها المؤلف مادة كتابه ، مع تقييم لهذه المصادر ، وبيان مزاياها وعيوبها .

والكتاب رابعا أوسع مصدر تحدث عن الطب العربي وأرخ له في اللغات كلها من جهة ، وأكبر مرجع لتراجم الاطباء العرب ، والعلماء العرب ، الذين أسهموا في تأليف كتب طبية من جهة ثانية .

والكتاب خامسا يعنى بقضية الترجمة ، ترجمة تراث الاغريق الى اللغة

العربية في العصر العباسي ، وترجمة التراث العربي الى اللغة اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين بعد اتصال الغرب بالحضارة العربية في الاندلس وفي صقلية ، وخلال الغزوات التي سميت باطلا باسم (الحروب الصليبية) .

والكتاب سادسا وأخيرا مكتوب بروح الحب والاعجاب والاكبار : حب للعرب ، واعجاب بتراثهم الطبي ، واكبار لموقفهم من علوم الأمم التي غلبوها بعد الفتح العربي .

فالعرب عند المؤلف شعب ذكي ذكي ، ولم يمنعهم فتحهم ، لبلاد امتدت من الهند حتى الاطلسي ، من أن يتتلمذوا على من غلبوهم ، ويترجموا علومهم ويجعلوها قدوة لهم . وكانت تلك ــ في رأي المؤلف ــ معجزة ، لان العرب أنقذوا العلوم من الضياع ، بعد أن دمر البرابرة الدولة الرومانية ، وساروا بهذه العلم الى الامام ، وأبدعوا فيها ابداعا عظيما .. ابداعا تجلى ــ مثلا ــ في هذا التراث الطبي العظيم الذي كان موضوع كتابه ، والذي أخذه الاوربيون قبيل عصر النهضة ، فترجموه الى اللاتينية ، وتتلمذوا عليه فترة طويلة . ألم يبق كتاب (القانون) ، لابن سينا ، سيد المصادر الطبية في الجامعات الاوربية، الى أوائل القرن الماضي ؟.

— ٤ —

فالكتاب ، اذا ، ثمانية أبواب يسمي المؤلف كل باب منها كتابا ، يضاف الى ذلك مقدمة في خمس عشرة صفحة يبين فيها المؤلف أسباب تأليفه الكتاب وأهمية العمل الذى سيقدم عليه (٧)، وأصالة بداية العلم العربي ، وصفات العرب في صحرائهم ، ثم الدعوة الاسلامية التي يسميها « ثورة غيرت مصير

العربي ، وفتحت حقولا جديدة لنشاطه »(٨)، ودفعته لوثبة مدت العروبة خلال قرن كامل من الاطلسي حتى السند(٨) ·

وهنا تحدث معجزة ، ذلك أن العرب ، بخلاف سائر الفاتحين ، لم يرثوا امبراطوريتي فارس وبيزانطة فحسب ، بل ورثوا ماهو أهم من ذلك ، ورثوا العلم والحضارة التي كانت في طريقها الى الانحدار في ظل الدولتين العظيمتين السابقتين · « لقد حصلت المعجزة حين اتخذ هذا الشعب ، الذي جعلته الحماسة فاتح نصف العالم ، المسيحيين المغلوبين أساتذة له ، مستخدما ، لتمثل علمهم حماسة ونشاطا نادرين ، وهكذا استلم مشعل الحضارة والانوار خلال خمسة قرون أو ستة »(٩) ·

ثم يشرح في المقدمة أيضا دراسات المستشرقين للادب العربي ، وللتاريخ والجغرافيا والديانات · ثم حديث مطول عما قدم العلماء الغربيون من دراسات حول الطب العربي(١٠)، ثم يذكر مصادره العربية : الفهرست لابن النديم ، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ، وتاريخ ابن العبري ، وعيون الانباء لابن أبي أصيبعة ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وكشف الظنون لحاجي خليفة(١١)، وقوائم المخطوطات الموجودة بالمكتبات المختلفة والتي لها علاقة بالطب (١٢)، مع المعاجم والكتب العامة التي لا غنى عنها لمن يكتب في أي بحث (١٣) ·

ثم يقدم خلاصة عن الكتاب (١٤) ، والمخطط الذي اعتمده في تأليفه وعناوين الكتب كما يلي :

ـ الكتاب الأول : الطب العربي ، من العصر الجاهلي حتى سقوط الامويين ·

ـ الكتاب الثاني : الطب في القرن التاسع الميلادي وهو عصر المأمون أو قرن الترجمات(١٥) ·

ـ الكتاب الثالث القرن العاشر ·

ـ الكتاب الرابع : القرن الحادي عشر (١٦) ·

ـ الكتاب الخامس : القرن الثاني عشر ·

ـ الكتاب السادس : القرن الثالث عشر ·

ـ الكتاب السابع : عصور الانحدار ·

ـ الكتاب الثامن : العلم العربي في الغرب ، أو نقله بوساطة الترجمات من العربية الى اللاتينية ·

- ٥ -

وهو ينهي المجلد الاول بثلاثين صفحة يؤرخ فيها (للمؤسسات الطبية عند العرب)(١٧)، التي هي المستشفيات والمدارس والحدائق النباتية والشرطة الطبية والمكتبات · ونترجم فيما يلي الصفحة التي مهد بها لهذا القسم الهام من الكتاب(١٨) ·

« ان تاريخ الطب سيكون ناقصا اذا اقتصر على تراجم الرجال الذين مارسوه أو علموه : فهذا ليس الا قسما منه ، ويوجد قسم آخر : انه المؤسسات التي لا يقل تأريخها أهمية عن القسم الاول ، والحقيقة أن الرجال يذهبون ، أما المؤسسات فتبقى دليلا على التقدم الكامل ، وتأكيدا للتقدم القادم ، وتهيئة للدراسة ، وتشجيعا وزادا للدارسين · انها تحفظ الصحة العامة وتنظم ممارسة المهنة ·

وقد ظهرت هذه المؤسسات ، لدى العرب ، في وقت مبكر ، افتتحت في بغداد ثم استقرت في كل مكان امتد اليه ظل العرب ، مع بريق يرتفع أو يخبو ،ولكنها وجدت دائما في المدن الكبرى ، وفي عواصم الملوك » ٠

ثم يأخذ المؤلف في الحديث عن هذه المؤسسات بالتفصيل ، فيبدأ حديثه عن مستشفيات العراق والشام وفارس وفلسطين ومصر والحجاز ويخص المستشفى الكبير الذى بناه نور الدين محمود في دمشق بدراسة مطولة (١٩)، يؤرخ فيها بناءه ، ويعدد أشهر أطبائه ٠

ثم ينتقل بعد ذلك الى المكتبات فيشير (٢٠)، الى الكتاب الجيد الذي وضعه المستشرق كاترمير عن (تاريخ المكتبات) ، ويبدي اعجابه بولع العرب بالكتب واقتنائها وترجمتها ، والذي بدأ في وقت مبكر ، أي منذ عهد خالد بن يزيد وجعفر الصادق ٠٠

ويقول :

« لقد غدا الولع بالكتب عند العرب عشقا ، وأصبح منذ القرن التاسع الميلادي عاما ، وترك عند العرب خميرة علمية لنشاط لا نظير له ، ففي جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، نرى ظهور مكتبات عامة خاصة ، نذكر منها : مكتبة المستنصر ببغداد وتضم /٨٠,٠٠٠/ مجلد ومكتبة القاهرة في العهد الفاطمي كانت موزعة على /١٨/ غرفة مملوءة بالكتب وقيل أن تعدادها بلغ مليوني كتاب ٠ وروى أن مكتبة طرابلس الشام التي أحرقها الفرنجة كانت تحوي ثلاثة ملايين كتاب ٠ ولقد ذكر (كازيرى) /٧٠٠/ مدينة في الأندلس كانت تحوي كل منها مكتبة عامة ٠ أما مكتبة قرطبة فتعد /٦٠,٠٠٠/ مجلد ، وكان فهرسها في أربعين (٢١) ٠

ويفتتح المجلد الثاني بنظرة مجملة على القرن الثاني عشر ، ذلك القرن الذي بدأت فيه الحروب التي أسماها الغرب بالحروب الصليبية زورا وبهتانا ٠ أما نحن فنسميها (الغزو الفرنجي لبلاد العرب) ٠

ان موقف مؤلف هذا الكتاب من هذه الحروب واضح جدا ، انه يسميها « بالحروب المشؤومة » (٢٢)، وينقل عن كاتب آخر وصفه لها بأنها « جنون ورع (Un pieux délire) حمل الاضطراب والدمار الى الشرق » (٢٢) ويأسف لانه كان لها بالضرورة أثر مؤسف على الحركة العلمية ، ويؤكد بأنه يجب عليه – وهو مؤرخ العلوم العربية ، هذا النشاط الانساني الرفيع والنبيل – أن يحتفظ ، تجاه هذا الصراع بين البربرية والحضارة ، بكل الود والتعاطف لهذه الاخيرة التي كانت متمثلة في العرب (٢٢) ٠

ومع أن « الحروب الدينية هي أشد الحروب ضراوة وقسوة » (٢٢) فان لوكلير يسجل أن ثقافة العرب الفعلية قد جعلتهم معتدلين في هذا الصراع ، ورافضين الولوج في بحران التعصب هذا » (٢٢) ٠

ثم يقول :

« لقد تكلمنا مرات عديدة عن تسامح العرب في ميدان الدين ، وأعطينا المبرر : لقد أخذ العرب علوم الاجانب على يد المسيحيين الشرقيين ٠ لذلك احتفظ العرب لهم بعرفان جميل ثابت ودائم ، وهذه الثقة المتبادلة لم تنقص حتى في زمن الحروب الصليبية ٠ فمن بين خمسة عشر طبيبا من أطباء صلاح الدين الذين نعرف أسماءهم ،كان ثلثاهم من اليهود والمسيحيين ٠ وكان مسيحيّ في بغداد في العهد نفسه ، قد سمي (رئيس الاطباء) وكان بصفته هذه ، سيد

المهنة ، وكان يمتحن كل من يتقدم لممارستها (٢٢) • كان العرب آنذاك مشبعين بالثقافة العقلية • فهذا العرق الذكي ، الذي هدهد الشعر شبابه قد بلغ سن الرجولة • فكنوز العلوم التي أخذها عن اليونان ، لم تتوقف عن الازدهار على الرغم من أن السلطة كانت قد انتقلت الى أيدي الاجانب • ان الثقافة العلمية ، التي لم تكن تقل عن مثيلتها الادبية ، قد نمت عند العرب روح التسامح ، وسخاء الغرائز التي هي صفات الحضارة » (٢٣) •

« اننا نعرف كيف بدأت تلك الحروب بالتنافر والقسوة والعنف ، حشد فوضوي من بضعة مئات ألوف من المغامرين ، عاث فسادا في أوربا قبل أن ينصب على آسيا ليذوب فيها ، أما فيلق (غود فروا دوبويون) ، فقد ارتكب ، بعد العنف الذي مارسه في انطاكية ، ماهو أكبر منه عند احتلاله القدس ، لقد ذبح ستين ألفا من المسلمين واليهود ، ومشت الخيول في الدم حتى أعنتها ، كذلك يروي المؤرخين ببرودة •

وبعد ثمانين عاما ، استعاد صلاح الدين بيت المقدس وكان الغالب الفاتح متسامحا مع المغلوبين ، على الرغم من قسم أقسمه بعد رفض سابق من الفرنجة بالتسليم ، لقد أطلق سراح عدد كبير من الاسرى ، ودفع أخوه الملك العادل فدية ألفين منهم ، وكانت هذه ثمرات الحضارة من جهة،وكانت تلك ثمرات البربرية من جهة أخرى » (٢٤) •

ـ ٧ ـ

ويمضي المؤلف بعد هذا فيقص علينا حكاية (حملة صليبية) أخرى تمت في الغرب ، ولكن من نوع آخر •

« فبينما كان الفرنجة الجهلة البرابرة يحملون الدمار الى المشرق ، كان

العرب يسكبون بملء أيديهم على الغرب كنوز علومهم ، لقد توجهت حملة أخرى نحو اسبانيا ، واستمرت قرنا كاملا ، وكان أسقف طليطلة (ريمون) رسولها الاول ، لقد ذهب (أديلار الباثي ، وجيرار الكريموني ، وميشيل سكوت •• الخ) يطلبون ، لدى مسلمي اسبانيا ، العلم الذي كان ينقص المسيحيين •• لقد قضى جيرار مثلا ، نصف قرن في طليطلة مستثمرا فضلات علوم العرب ونحن نعرف أكثر من سبعين من أعماله المترجمة في الفلسفة والرياضيات والفلك والطب ••

ان أوربا لم تنتفع بالعلم العربي فحسب ، بل أخذت أيضا علما بعلوم القدماء ، وهكذا رد العرب للمسيحيين الغربيين الخدمات التي كانوا قد تلقوها من المسيحيين الشرقيين » (٢٥) •

ـ ٨ ـ

ويخصص المؤلف الكتاب الثامن والاخير (للعلم العربي في الغرب) (٢٦) أو نقله مترجما من العربية الى اللاتينية • وهو قبل أن يبدأ في معالجة موضوعه يمهد له بنظرة عجلى على الترجمة ، ويقارن بين ترجمة العلم الاغريقي الى اللغة العربية ، والتي تمت في العصر العباسي الذهبي ، وبين ترجمة العلم العربي الى اللاتينية التي تمت في القرن الثاني عشر والثالث عشر في اسبانيا وصقلية » (٢٧) يقول :

« اذا أردنا أن نقارن بين ترجمات طليطلة وبين ترجمات بغداد يكفينا أن نستعيد الظروف التي تمت كل منهما خلالها ، حتى نفهم أن الاولى أدنى من الثانية قيمة • ففي بغداد ، كان هناك رجال مهيأون للقيام بدورهم ، يشجعهم معنويا وماديا حكام وأغنياء • أما في طليطلة ، فقد قام بالترجمة جماعة من

العلماء بدون مال ، علماء كانوا مضطرين لتعلم العربية مقدما ، وبصعوبة ، وكانت تعوزهم الوثائق العلمية التي يمكن أن تنير أعمالهم وتخصبها ، كما كانوا يجدون صعوبة في الحصول على نصوص جيدة أصلية ٠

لذلك لم يكن غريبا أن يأخذوا على الترجمات العربية ـ اللاتينية (بربريتها) وأخطاءها ، وتحريفها لاسماء الاعلام والصيغ التكنيكية ، وكثرة الصيغ المنقولة حرفيا دون ترجمة ٠٠ ان هذه الاخطاء لم يكن ممكنا تجنبها(٢٨) ومع ذلك فكم لبت الترجمات من حاجات ٠ وكم ملأت من ثغرات ؟ وكم قدمت للعلماء من خدمات ؟ اننا نملك الدليل على أنها استعملت في الحال من قبل رجال (كروجر بيكون ، وألبرت الكبير ، وفنسان دوبوفيه) ، آخذين بعين الاعتبار أننا لا نعد الا المشهورين ٠

ويمكننا أخذ فكرة عن حجم هذه الاعمال والافكار الجديدة والهامة التي حملتها الترجمات ، حين نتذكر أن جيرار الكرموني قد ترجم وحده أكثر من سبعين أثرا ، وان ترجماته تؤلف موسوعة حقيقية للمعارف الانسانية التي تشمل كل فروعها(٢٩) ٠

- ٩ -

وفي الكتاب بعد هذا كله ، أو قبله ، تراجم الاطباء العرب أو الذين أسهموا في تأليف كتب تتصل بهذا العلم الهام ، منذ أول طبيب عربي ، وهو الحارث بن كلدة ، حتى أطباء القرون الاخيرة من العصر المملوكي ٠ وفي الكتاب تراجم تؤرخ لحياتهم وآثارهم وكتبهم ، مرتبة حسب العصور والقرون ، وكما سبق أن بينا حين قدّمنا موجزا لاقسام الكتاب ، فيما تقدم من هذا البحث ، ان ذلك كله

يجعل من الكتاب موسوعة علمية تعطينا تاريخ علم الطب العربي ، ورجاله ، وأطباءه ، وأخذه عمن سبقه وتأثيره فيمن أتى بعده ٠

والذي يؤسف له أن يبقى هذا الكتاب مجهولا من العلماء العرب ، وألا تعاد طباعته خلال مائة سنة الا مرة واحدة ، وألا يترجم الى اللغة العربية حتى الآن بينما تترجم كتب أقل منه قيمة ، وكتب أخرى تتحامل على تراثنا(٣٠) ٠

الحواشي

(١) عنوان الكتاب باللغة الفرنسية
Lucien Leclere, Histoire de la Médecine Arabe
طبع بباريس عام ١٨٧٦ ،وأعيد طبعه مصورا بنيويورك عام ١٩٧١ ٠

(٢) تبحث البيمارستانات في جميع الكتب التي تحدثت عن الطب العربي ٠ ولكن أحسن كتاب عنها هو كتاب (تاريخ البيمارستانات في الاسلام) تأليف الدكتور أحمد عيسى بك ، مطبوع بالمطبعة الهاشمية بدمشق عام ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٩ م ويقع في /٣٠٠/ ص ٠

(٣) J. Risler, La civilisation Arabe, P. 167

(٤) Friend, Spengel, Morei, Wusten Beld, Meyerhof, Drauin

(٥) نشير بصورة خاصة الى الفصل الذى كتبه غوستاف لوبون عن الطب العربي في كتابه (حضارة العرب) ص ٤٨٥ من ترجمة عادل زعيتر وما بعدها ومقالة ماكس مايرهوف في (تراث الاسلام) بعنوان (العلوم والطب) من ص ٤٤٣ ، الى ص ٥٠٨ من ترجمة جرجيس فتح الله ، طبعة دار الطليعة ببيروت سنة ١٩٧٢ والكتاب صادر باللغة الانكليزية عام ١٩٣٣ ، والفصل الهام الذي عقده جاك ريسلر في كتابه باللغة الفرنسية (حضارة العرب) والمشار اليه في حاشية رقم /٣/ ص ١٦٧ وما بعد ٠

(٦) حتى أن المؤلف لا ينسى أن يفصّل منهجه ومخطط الكتاب في المقدمة في عدة صفحات ٠ ص ١٣ وما بعد من الجزء الاول ٠

(٧) جـ ١ ص ١ ٠

(٨) جـ ١ ص ٢ ٠

(٩) جـ ١ ص ٢ و ٣ ٠
(١٠) جـ ١ ص ٤ و ٥ ٠
(١١) جـ ١ ص ٦ و ٧ و ٨ ٠
(١٢) جـ ١ ص ٩ و ١٠ ٠
(١٣) جـ ١ ص ١٠ و ١١ ٠
(١٤) جـ ١ ص ١٣ ٠
(١٥) وهو أطول أبواب الكتاب ٠
(١٦) وبه ينتهي المجلد الاول ٠
(١٧) جـ ١ ص ٥٥٧ حتى ص ٥٨٧ ٠
(١٨) جـ ١ ص ٥٥٧ ٠
(١٩) جـ ١ ص ٥٦٥ و ٥٦٦ ٠
(٢٠) جـ ١ ص ٥٨٣ و ٥٨٤ ٠
(٢١) جـ ١ ص ٥٨٤ ٠
(٢٢) المجلد الثاني ص ٣ ٠
(٢٣) المجلد الثاني ص ٤ ٠
(٢٤) المجلد الثاني ص ٤ و ٥ ٠
(٢٥) المجلد الثاني ص ٥ ٠
(٢٦) المجلد الثاني ص ٣٤١ ، الى ص ٥٢٧ ٠
(٢٧) المجلد الثاني من ص ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ ٠
(٢٨) المجلد الثاني ص ٣٤٦ ٠
(٢٩) المجلد الثاني ص ٣٤٧ ٠
(٣٠) ترجم كتاب ا ٠ ج٠ براون الطب العربي المطبوع بكامبريدج عام ١٩٢١ ، في القاهرة عام ١٩٦٦ ، مع أن فيه دسا كثيرا على العرب وتهجما عليهم٠

الفصل الرابع

الفــن العربي

للعالم الفرنسي الفنان بريس دافين

هذا كتاب ما أشك أن صاحبه قد أنفق في كتابته وجمع مواده سنين طوالا لا أستطيع تقديرها بأقل من ربع قرن ٠ فلقد أتقن من أجله اللغة العربية فهما وترجمة الى الفرنسية ، وقضى في القاهرة مدة طويلة من الزمن يطوف بآثارها ، وأبنيتها ، وبيوتها ، ومساجدها ، ويسجل بريشته باللونين الابيض والاسود حينا ، وبالألوان الطبيعية أحيانا أخرى ، مواطن الجمال والفتنة في هذه الآثار٠ ثم قرأ بوعي كثيرا من الكتب الفنية والتاريخية ، وطوّف على بعض المتاحف والعواصم ، واستعان ببعض ما نشر أو صور ، ومما له صلة بكتابه ٠ حتى اذا ما انتهى من ذلك كله ، وامتلأ قلبه حبا للعرب ، واعجابا بحضارتهم ، وافتتانا بفنهم ، أكب على تأليف كتابه هذا الذي أعطاه العنوان التالي :

الفــن العربي

مستمدا من أبنية القاهرة (١)

ولا يعني هذا أن الكتاب مقصور علــى الفن العربي كما يتجلــى في مدينة القاهرة وآثارها فقط ، فالمؤلف ـ على الرغم من اهتمامه بموضوع كتابــه الذي هو أبنية القاهرة ـ قد وسع ـ وبخاصة في المقدمة والخاتمة ـ من آفاق عمله (٢)، فشمل الفن العربي في أماكن مختلفة من الوطن العربي الكبير ، كما أنه تعرض لبعض التحف الموجودة في عواصم الغرب ، وفي المكتبات المتوزعة على بلاد أوربية مختلفة (٣) •

ـ ٢ ـ

مؤلف الكتاب وراسم لوحاته بريس دافين Prisse d'Avennes من علمــــاء الآثار العربية الاسلامية ، ولد عام ١٨٠٧ وتوفي عام ١٨٧٩ ، وهو رسام ،أقام بمصر ، ونقل الكثير من رسوم المعابد والمقابر والمتاحف فيها (٤)، لا نعرف عنه أكثر من هذه الكلمات ، ونأسف لانه في كتابه الهام الذي نعرف به ، لم يزودنا بمعلومات عن المدة التي أنفقها في تأليفه ورسم لوحاته ، ولم يزودنا كذلك بما يلقي لنا بعض الاضواء على حياته •

على أن الكتاب يقدمه انسانا تتمثل فيه روح العلم ، وهو فنان رسام ، ومطلع على تاريخ الفن ، وملم الماما جيدا بالامور الهندسية ، وبرسم مخططات الابنية ، ومساقطها العمودية •• الى غير ذلك من الامور الضرورية التي يستلزمها تأليف كتاب فني •

يضاف الى ذلك كله أن الكتاب يقدمــه لنا أيضا انسانـــا مرهف الحس ، متذوقا للجمال ، يعرف مواطنه ، ويعرف كيف ينقلها ويرسمها بمنتهى الدقة، وبريشة صناع •• ثم الى هذا كلــه معجب (بالفن العربــي) موضوع كتابــه ولوحاته ، يتبدى هذا الاعجاب في كل سطر خطه ، وفي كل لوحة رسمها ، وفي كل تحليل سجله لهذه اللوحات التي أعطانا اياها •

ـ ٣ ـ

يقع كتاب (الفن العربي) في قسمين رئيسيين : أولهما مجموعة من اللوحات تمثل أنواعا مختلفة من الفن العربي • عدد هذه اللوحات مئتا لوحة موزعــة على ثلاثة مجلدات ضخمة ، مساحة كــل لوحة (٥٠ × ٦٠ سم) ، وبعضهـــا ـ وهو القليل ـ مرسوم بلونين (أسود وأبيض ، أو أبيض ورمادي ، أو أبيض وأصفر) ، وبعضها الآخر وهو الكثير مرسوم بالالوان الطبيعية في دقة متناهية •

رسم بعضا من هذه اللوحات بعض الفنانين الآخرين ، أمـــا غالبيتها فقد رسمها (بريس دافين) مؤلف الكتاب نفسه • وهناك أربع لوحات منقولة عن (يحيى الواسطي) الفنان العربــي العظيم ، الــذي زين نسخا من مقامـــات الحريري (٥) •

والقسم الثاني مجلد واحد هو عبارة عن نص مكتوب يقع في /٣٠٠/ ص من الحجم المتوسط (٢١/٥ × ٣٢/٥ سم) موزعة على مقدمة وخاتمة واثني عشر فصلا ، وتحليل دقيق للوحات القسم الاول (أسماه المؤلف أطلسا) وتقع في ثلاثين صفحة (٦)• والنص مزود بأربع وثلاثين لوحة وواحد وسبعين شكلا تؤيد مضمون هذا المجلد القيم •

- ٤ -

تتبدى في الكتاب روح علمية تظهر في تنظيم لوحاته وترتيبها بشكل متجانس ثم في نسبة الجهود المبذولة في الكتاب الى أصحابها : فكل لوحة يسجل عليها اسم الفنانين اللذين رسماها وحفراها ، وفي الزاوية اليمنى منها اسم المطبعة التي تولت طباعتها ·

اللوحات المائتان مرتبة وموزعة على الشكل التالي :

آ - العمارة ولها ثلاث وأربعون لوحة ·

ب - تزيين العمارة وزخرفتها ولها أربع لوحات ·

جـ - ستر الابنية وكسوتها ولهما عشرون لوحة (٧) ·

د - السقوف ولها ٨ لوحات ·

هـ - الخشبيات ولها اثنتان وثلاثون لوحة ·

و - الخزف الصيني وتقليده ولهما ست وعشرون لوحة (٨) ·

ز - المشربيات والقواطع الخشبية ولها خمس لوحات ·

ح - داخل البيوت وله أربع لوحات ·

ط - النوافذ والزجاجيات ولها أربع لوحات ·

ى - الاقمشة والسجاد ولها ثماني لوحات ·

ك - الاسلحة ولها لوحتان ·

ل - التحف الصغيرة المتنقلة المدنية والدينية ويدخل فيها النحاس المحفور والنحاس المكفت ، والعاجيات ، ولها سبع عشرة لوحة ·

م - المخطوطات ولها سبع لوحات ·

ن - تزيين القرآن وله عشرون لوحة (٩) ·

- ٥ -

في المقدمة حديث عن الحضارة العربية والفن العربي ، والفصل الاول مخصص للحديث عن الطبيعة والارض والمناخ والعرق الذي يتكون منه سكان القاهرة ، ويتحدث الفصل الثاني عن تاريخ القاهرة منذ الفتح العربي الى نهاية عهد الخلفاء ، والفصل الثالث عن تاريخ المماليك ، والرابع عن تاريخ القاهرة في العهد العثماني ، وفي الفصل الخامس حديث عن حكومة المماليك وعاداتهم وأعرافهم ···

ويبدأ القسم الفني مع الفصل السادس وتتالى الفصول ·

السادس : وصف مدينة القاهرة - السابع : العمارة الدينية - الثامن : العمارة المدنية - التاسع - العمارة العسكرية - العاشر : فنون مرتبطة بالعمارة - الحادي عشر : فنون مستقلة عن العمارة - الثاني عشر : أصول العمارة العربية وتطورها وانحدارها ·

- ٦ -

يسجل المؤلف في المقدمة « أن الحضارة العربية بعد الاسلام هي - بدون نقاش - من أعجب الحضارات التي حفظ التاريخ ذكراها ، وأنها حضارة امتدت

بسرعة البرق في آسيا حتى الهنـد ثم سارت على شواطىء المتوسط ، عبر أفريقية ، حتى وصلت أوربا حيث زرعت لفترة في صقلية ، ولمدة طويلة في أكبر قسم من اسبانيا ٠ »(١٠) ، ثم يأسف المؤلف لان الاخبار الواردة الينا عن العرق العربي في عهوده الاولى قليلة ، وأن علينا أن نعتمد اعتمادا كبيرا على الشعر في عصره الذهبي ، ذلك الشـعر الذي كانوا يتناقلونـه عن ظهر قلب من طفولتهم(١٠) ، ثم يسجل أن الصفات الشعرية لم تضعف أبدا عند العرب(١٠) ، وينقل عن (ميجية ......) قوله : « اذا لم يكن الشعر مولودا في السماء ، فينبغي أن نفتش عن مهده في الارض ٠ ويقترح أن تكون الجزيرة العربية هي المكان الذي ينبغي أن يكون الشعر قد ولد فيه ٠ فأي منطقة تستطيع أن تنافس الجزيرة في ذلك ؟ فهنا سنرى فن الخلق وتجميل الحياة ترسمهما ريشة فنانين ، وسينتشر ذلك بحرارة وعاطفة ، مع عبقرية ، وروعة ، ومع غزارة لن تنضب حقا » لم يجد العقل في أي مكان آخر مثل هذه الحدة ، ولم تعش الروح على مثل حماسة العرب وحمياهم وارتقائهم بالشعر ، وليس هناك مكان آخر ستجد فيه هذه الفوضى الجميلة التي تصنع عبقرية الطبيعـة ، ولا هذه القفزات السعيدة التي تخشى التوسط البارد ، ان الموهبة وحدها هي التي تعرف كيف تصنع ذلك »(١١) ٠

موهبة العرب هي التي استطاعت أن تخلق فنا موحدا من « هذه التنوعات في الاسلوب التي نلاحظها في الاعمال المختلفة للاجناس التي خضعت للحكم العربي ٠٠٠ انها طرز مختلفة لفن واحد ، لان الاسس التي تستوحيها هذه الاجناس تستمد دائما من منبع واحد ، منبع صاف ، نؤكده ، ويجب أن نرتفع عندما نريد أن ندرس بجدية الفن العربي »(١١) ٠

«لقد وجد الفاتحون العرب في مصر وسوريا الفن البيزنطي (الذي هو

فرع من الفن الاغريقي) في جماع تطوره ٠٠٠ لقد عرفوا كيف يستعيرون منه العناصر الاولى لفن جديد استطاعوا أن يكيفوه مع أوامر عقيدتهم »(١١) ٠

والمؤلف يرى أن « المعرفة المعمقة بالثقافة الاسلامية قد أصبحت لا غنى عنها في الغرب لسبر فنونه في العصر الوسيط ، فالحروب الصليبية قد أسهمت في اخراج أوربا الغربية من حالة الاعياء التي كانت قد تردت اليها بعد غزوات البرابرة »(١١) ٠

واذا كانت نتيجة هذه الحروب السياسية صفرا ، فان المشارقة ـ بفضل هذه الغزوات المغامرة ـ قد نقلوا الى الغرب معرفة بعلوم كثيرة ، وبمبادىء ميكانيكية للصناعة ، « كما قدمت لاعجاب الغرب روائع فن وصل ـ آنذاك ـ الى أعلى درجات الاتقان »(١٢) ، لقد نقلونا ـ يقول بريس دافين ـ « الى رهافات حضارة متقدمة ، حضارة حرضت هذه النهضة العظيمة التي بدأت في القرن الخامس عشر ، والتي انبثق عنها العديد من الابنية الشامخة »(١٢) ٠

ثم يؤكد المؤلف أنه لا يوجد ـ منذ سقوط الامبراطورية الرومانية ـ شعب يستحق أن يعرف ويعرّف به ، مثل هذا الشعب العربي سواء كان ذلك من أجل الرجال العظام الذين أنتجهم أو من أجل التقدم العظيم للفنون والعلوم الذي تم ، على أيدي العرب ، خلال عدة قرون »(١٢) ٠

ويرى السيد دافين في كتابه هذا عملا عظيما « انه سينقذ من النسيان هذه الكنوز المجهولة حتى الآن من معظم العلماء والفنانين ، وسيضع أمام الجمهور ، في مظهر حقيقي ، فنا سيتأكد أنه واحد من أهم ما قدم تاريخ الفن ٠٠٠ وسيهيء بذلك للفنون التزيينية المعاصرة ، وللعمارة في الوقت نفسه ، مواد ستجعل المهندسين والفنانين يرفضون الابتذال ، والفقر في الاختراع ، ويرتفعون الى ذرى ينبغي أن ترنو اليها الارواح السامية التي تبشر بعقيدة الجمال »(١٣) ٠

-٧-

تعمدت أن أطيل في نقل فقرات من المقدمة لأهميتها من جهة ، وللاسلوب الشاعري المكتوبة به من جهة ثانية • وهأنذا أنقل للسببين هذين أسطرا مما سجل المؤلف في خاتمة الكتاب •

وسع المؤلف آفاق دراسته ولوحاته ، والا اعتبر عمله ناقصا(١٤) • وهو يدرس العناصر المكونة للفن العربي ، ذلك الفن الذي « سمح التوافق فيما بينها للعنصر العربي ، الشاعري بروعة ، والذكي بدقة ، أن يولد مفاهيم لم تستطع القدرة الفنية أن تتجاوزها ، اذا أمكن القول ، ولم يستطع أحد مجاراتها منذئذ »(١٤) •

« ان الاصالة القوية التي نلاحظها لدى العرب في العمارة والزخرفة ، كانت جديرة بالاعتبار ، في جميع البلاد التي خضعت لحكمهم ، ولقد حافظ أسلوبهم في كل مكان ، على الطابع نفسه، طوال وجود الامبراطورية العربية••• وهذه الاصالة موجودة منذ الابنية التي شادها الخلفاء الاوائل في مفتتح الفتح الاسلامي ، ثم قويت مع الزمن ، وتجاوزت كل تقليد لبقية الاساليب ، على الرغم من أنها لم تلفظ كليا التكيف الاكيد لكثير من طوابعها الخاصة »• (٥)

-٨-

واذا كان القارىء يشعر بشيء من المبالغة في تكريم الفن العربي ، ورفعه الى سماوات عالية ، فانه على حق في شعوره ذاك ، ولكن مؤلف الكتاب على حق كذلك في حبه الفن العربي ، وفي تفضيله اياه ، فلقد عاش معه طوال سنوات كثيرة ، ودرسه دراسة دقيقة ، ثم رسم دقائقه في لوحات فاتنة ، وكتب أخيرا عنه هذا الكتاب المدهش • وما على القارىء ، اذا أراد أن يتأكد من صواب

آراء بريس دافين ، الا أن يعيش ـ كما عشنا ـ ساعات مع لوحاته المائتين ••• هناك يلقى الجمال والفتنة والروعة ، ويجد عذرا لهذا الرسام الفرنسي العظيم ، في حبه هذا الفن المترف الاصيل الانيق ، الذي وجد في أبنية القاهرة ، « تلك الاصالة العربية القوية » ، التي تعمق دراستها ، فأحبها ، ثم تعرف على الصلة المعمارية لهذه المدينة مع أوربا الجنوبية ••• « هنا في هذه المدينة العربية نجد أنفسنا أمام أبنية تتصل بصلة قرابة مع الابنيــة القوطية في التفاصيل ، وفي العقود ، وفي النوافذ الثلاثية » •

ثم أسف أسفا شديدا لانه « لم يتح للحضارة العربية أن تستمر أكثر مما استمرت • فلقد دمرتها الغزوات المغولية والتترية والتركية »(١٧) •

في كتاب (الفن العربي) لعالم الآثار المستعرب (بريس دافين) نجد دراسة ممتعة للفن العربي ، ولوحات فنية تمثل جميع صنوف هذا الفن ، فضلا عن دراسات لفنون العمارة والزخرفة ، ولعناصر العمارة (من أعمدة ودعامات وزينة وكسوة وسقوف وخشبيات وأبواب وأبراج وقيشاني ، وزجاج ومآذن وقباب •••) ونجد قبل هذا كله هذا الحب للعرب ، والاعجاب بحضارتهم ، والاشادة بفنهم الجميل ••• يرفع من شأن هذا الكتاب أنه ألف في الربع الثالث من القرن الماضي ، وطبع منذ مائة عام في باريس فله الى جانب قيمته الفنية ، قيمة تاريخية ، على اعتباره من أوائل الكتب التي طبعت بالالوان ، وأفادت من تقدم فنون الطباعة المختلفة •••

ثم انه عرّف الغرب ، وعرّفنا ، على جوانب من فننا ، جوانب لا نشك في أن بعضها لم يعد يرى ، أو أنه تهدم ، أو تعودت رؤيته الاعين ، فلم تعد ترى من جماله ما كانت قد رأته عينا فنان عظيم ، وعالم كبير ، أنفق قسما كبيرا من حياته ، في رسم الفن العربي ودراسته ، ووضعه بين أيدينا ، مثلا أعلى في الجمال ، والجد والذوق •

الحواشي :

(١) عنوان الكتاب الاصلي باللغة الفرنسية :
L'Art Arabe D'Après Les Monuments du Kaire
ومعناه : الفن العربي مستمدا من أبنية القاهرة ·
واسم المؤلف : بالفرنسية : Prisse d'Avennes
وهو مطبوع بباريس عام ١٨٧٧ ·

(٢) مقدمة مجلد النص ص ١ والخاتمة ص ٢٣٢ ·

(٣) تنظر اللوحات التي تمثل القماش والسجاد ، واللوحات التي تمثل المخطوطات وتزيين القرآن في مجلد اللوحات الثالث ·

(٤) نجيب العقيقي ، المستشرقون جـ ١ ص ٣٣٦ ، والتعريف موجز جدا لا يتجاوز السطرين الذين نقلناهما في المتن مع اضافة هذه الكلمات « وخلف عنها مصنفا (هندسة أبنية القاهرة) » وواضح أن العقيقي يتحدث عن الكتاب جاهلا مضمونه وعنوانه ·

(٥) الفنـان الرسام الموصلي يحيى الواسـطي (المتوفي سنة ٦٣٤ هـ — ١٢٣٧ م) أعظم من صور مقامات الحريري،وتعد صوره (وعددها تسع وتسعون صورة) والموجودة بالمكتبةالوطنية بباريس من أبدع ما وصل الينا من تصاويره· وقد نقل دافين أربعة منها نقلا حرفيا ·

(٦) من ص ٢٥٥ ، الى ص ٢٨٥ من النص المكتوب ·

(٧) وهي لوحات المجلد الاول من الاطلس من رقم ١ ، الى رقم ٦٧ ·

(٨) لوحات المجلد الثاني من الاطلس من رقم ٦٨ ، الى رقم ١٣٣·

(٩) لوحات المجلد الثالثمن الاطلس من رقم ١٣٤ ، الى رقم ٢٠٠·

(١٠) مجلد النص ص ١ ·

(١١) مجلد النص ص ٢ ·

(١٢) مجلد النص ص ٣ ·

(١٣) مجلد النص ص ٣ و ٤ ·

(١٤) مجلد النص ص ٢٣٢ ·

(١٥) مجلد النص ص ٢٣٣ ·

(١٦) مجلد النص ص ٢٥٢ ·

(١٧) مجلد النص ص ٢٥٤ ·

الفصل الخامس

حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون

مقدمـة :

في مثل هذه الايام — منذ مائة عام — كان عالم فرنسي كبير يطوف في أرجاء الوطن العربي الكبير · لقد زار أقطار المغرب العربي ومصر وفلسطين وسورية والعراق ، زارهـا حاملا عقـلا واعيـا ، وريشـة رسـام فنان ، وآلة تصوير فوتوغرافية · كان يسجل بالآلة والريشـة صورا للناس ، وللآثار ، والفنون المختلفة ، حتى اذا ما انتهى من رحلته ، عاد الى باريس ، وانكب على ما لديه من معلومات استقاها من المصادر ، ثم ألف كتابا ، استلمه الناس مطبوعا في عام ١٨٨٤ ، بعنـوان (حضـارة العـرب La Civilisation des Arabes) .

مؤلف الكتـاب هـو (الدكتور غوسـتاف لوبـون Gustave Le Bon) . كان قد اطلع على ما خلف العرب في أيام مجدهم من تراث مادي ومعنوي، فأعجب به ، وعوّل على تأليف كتاب عنه · ولكنه لم يكتف بمـا قرأ عن حضارتنا في الكتب ، بل قام برحلة مطولة ، طاف فيها ، الاقطار العربية التي ذكرناها آنفاً ،

فجاء كتابه ، ثمرة ما قرأ في الكتب ، وما حصل عليه من رؤى وتصاوير ورسوم ، جمعها مستعينا بريشة رسام ماهر ، وآلة تصوير فوتوغرافي تسددها يد فنان .

طبع كتاب (حضارة العرب) هذا في مجلد ضخم يقع في حوالي سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهو مطبوع طباعة أنيقة ، ومجلد تجليدا فخما ، فاذا ما أضفنا الى ذلك أنه زود الكتاب بعشر لوحات ملونة ، وأربع خرائط ، و ٣٦٦ صورة باللونين الاسود والابيض ، وأن اللوحات الملونة رائعة ، والخرائط دقيقة ، والصور معبرة وممتازة ... ظهر لنا بوضوح أن الكتاب تحفة فنية في طباعته ولوحاته وتجليده .

على أن مضمون الكتاب أرفع من ذلك ، انه مقسم الى مقدمة وسبعة كتب . الكتاب الاول عن جزيرة العرب ، والثاني في أصول الحضارة العربية ، والثالث في دولة العرب ، والرابع في عاداتهم ومؤسساتهم الاجتماعية ، والخامس في حضارة العرب ، والسادس في انحطاط هذه الحضارة .

وألحق بالكتاب ثبتا مفصلا بالمصادر والمراجع ، ولائحة بالخرائط واللوحات والصور ، وفهرسا مصورا لموضوعات الكتاب وأفكاره .

مزايا الكتاب :

١ ـ يقدم المؤلف بواعث تأليف الكتاب وهي عنده خمسة : سيطرة الحضارة العربية منذ اثني عشر قرنا ، على أقطار مترامية الاطراف ، وعدم وجود كتاب جامع عن هذه الحضارة وظهور حقائق جديدة وآفاق واسعة بعد دراستها ، وتأثير حضارة العرب العظيمة في أمم الغرب(١) ، وكون العرب عنوان أمم الشرق التي تختلف عن أمم الغرب ، ولا تزال أوربا جاهلة لشأنهم(٢) .

٢ ـ والكتاب مقسم تقسيما منطقيا « سلك غوستاف لوبون في تأليفه

طريقا جديدا لم يسبقه اليه أحد »(٣) ، انه يقسم الكتاب ـ بعد مقدمة في أسباب تأليفه ـ الى ستة كتب (٤) : بحث أولها في بيئة العرب وعرقهم وحضارتهم قبل الاسلام . وبحث الثاني في مصادر قوة العرب وهي عنده : شخصية الرسول (ص) والقرآن الكريم، وفتوح العرب . وخصص الكتاب الثالث لدولة العرب وللحضارة التي أقاموها في سورية والعراق وفارس والهند ومصر وافريقية الشمالية واسبانيا وصقلية وايطالية وفرنسة ، ولاصطراع النصرانية والاسلام في الحروب الصليبية. أما الكتاب الرابع فكان لطبائع العرب ونظمهم الاجتماعية والسياسية والدينية والاخلاقية .

والكتاب الخامس عن حضارة العرب : وفيه عشرة فصول ، استغرقت من الكتاب في أصله الفرنسي سبعا وستين صفحة(٥) ، ومائة وسبعا وأربعين في ترجمته العربية (٦) .

والكتاب السادس مخصص لانحطاط حضارة العرب : وفيه فصلان هامان عن تأثير الاوربيين في الشرق ، وعن أسباب عظمة العرب وانحطاطهم .

٣ ـ الكتاب الخامس أهم أجزاء الكتاب ، فهو فضلا عن أنه أكبر أقسامه يتناول أهم موضوعاته ، لانه مخصص للبحث في حضارة العرب : مصادر معارف العرب ، وتعليمهم ومناهجهم، ثم مآثر العرب في اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ والرياضيات والفلك والعلوم الجغرافية ، والفيزياء وتطبيقاتها ، والعلوم الطبيعية والطبية ، والفنون العربية (الرسم والحفر والفنون الصناعية) ، وفن عمارة العرب ، وتجارتهم وصلاتهم بمختلف الامم ... وفصل خاص عن تمدين العرب لاوربة وتأثيرهم في الشرق والغرب .

٤ ـ والمؤلف ينصف حضارة العرب قبل الاسلام . ذلك أن من (الوهم القول بهمجية العرب قبل ظهور محمد(٧) لان ظهور الحضارة لا يكون الا نتيجة

نضج بطيء وتطور الاشخاص والامم والنظم والمعتقدات لا يتم الا بالتدريج(٧) ٠ وللعرب على كل حال ما قبل تاريخهم مثل ما للامم الاخرى(٨) ، ولهم حضاراتهم قبل ظهور الرسول في اليمن والبتراء وتدمر والحيرة وبصرى ٠٠٠ والآثار التي ظهرت عن هذه الحضارة ، وان كانت لا تزال ناقصة ، تدل على وجود ، حضارة عربية ، وعلى (ان العرب هؤلاء قد ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وأنشأوا المدن العظيمة وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الارض وثيقة »(٩) ٠

٥ ـ والمؤلف معجب الاعجاب كله بشخصية الرسول العربي (ص) ٠ انه يخصص لها الفصل الاول من الكتاب الثاني(١٠) ، ويعدها من مصادر قوة العرب ويفصل القوة في فتوة محمد ورسالته ، وحياته بعد هجرته ، وأخلاقه ، وينقل عن المؤرخ العربي أبي الفداء وصفه المطول للرسول : صفاته الجسمية والخلقية مستندا ، الى ما روى عن أصحابه(١١) ٠

« وصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس ، كث اللحيـة ، خشن الكفين والقدمين ضخم الكراديس مشربا وجهه حمرة ، وقيل كان أدعج العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين كأن عنقه ابريق فضة ، وقال أنس : لم يشنه الله بالشيب ، كان في مقدم لحيته عشرون شعرة بيضاء وفي مفرق رأسه شعرات بيض ٠٠٠

وكان صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا ، يكثر الذكر ويقل اللغو دائم البشر ، مطيل الصمت ، لين الجانب ، سهل الخلق ، وكان عنده القريب والبعيد والقوي والضعيف في الحق سواء ، وكان يحب المساكين ، ولا يحقر فقيرا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، وكان يؤلف قلوب أهل الشرف ، وكان يؤلف أصحابه ، ولا ينفرهم ، ويصابر من جالسه ولا يحيد عنه حتى يكون الرجل

هو المنصرف ، وما صافحه أحد فيترك يده حتى يكون الرجل هو المنصرف ، وكان يتفقد أصحابه ويسأل عما في الناس ، وكان يحلب العنز ويجلس على الارض ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويلبس المخصوف والمرقوع ، عن أبي هريرة قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيـا ولم يشبع من خبز الشعير ٠ وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار ، وكان قوتهم التمر والماء ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يعصب على بطنه الحجر من الجوع » ٠

٦ ـ والكتـاب مـن أوائـل الكتب التي اسـتعانت بالرسـوم والتصوير الفوتوغرافي بخاصة ، لايضاح الامور التي يتحدث عنها ، وبيان مزايا الفنون والآثار ٠ انه لا يرى « غير طريقة واحدة لوصف الآثار الماثلة ، وهي عرض صورها ، فصوّر البارتنون والحمراء وأفرودويت أولى من مجموعة الكتب التي وضعها جميع مؤلفي العالم لوصفها »(١٢) ٠ ولذلك أكثر من الصور فبلغت ١٠ لوحات ملونة رائعة ، و ٣٦٣ صورة و ٤ خرائط ٠ وتحدث بالتفصيل عن التصوير الفوتوغرافي الذي كان فنا محدثا ، « أوصت أمس فقط طرق العلم الحديثة بأن يستعان به في الرحلات »(١٣) ، وذكر لنا أن كتابه « هو أول الكتب انتفاعا بالفوتوغرافية ، وفيه نتائج مهمة توصل اليها بفضله ، ذلك أن كل صورة فوتوغرافية اشتمل عليها وثيقة صادقة قوية لا يتطرق اليها الوهن(١٣) ٠

ان غوستاف لوبون لم يكن مبالغا في قوله هذا ، فاللوحات الملونة الفاتنة ، والصور الفوتوغرافية الكثيرة ، والرائعة التي زود بها الكتاب ، لم تضف اليه زينة فحسب وانما أصبح أكثرها وثائق تاريخية نادرة لانها أخذت منذ حوالي مائة عام من جهة ، ولان بعضها لم يعد له وجود من جهة أخرى ٠

كصورة القافلة في البادية(١٤) وصورة مخيم حجاج بالقرب من مكة في موسم

الحج(١٥)، وصورتي مكة والمسجد الحرام(١٦)، والكعبة(١٧) وصورة العربيين الحضريين من سورية(١٨) ، وصورة عربيتين من جوار القاهرة التقط المؤلف الكثير من هذه الصور بنفسه • ونقل بعضها الآخر من الكتب ، أو من مجموعات الرحالة الاوربيين • وكان أمينا في ذلك ، فنسب كل صورة لمن أبدعها ، وكان حريصا على أن يعطي كل ذي حق حقه •••(١٩)

٧ ـ وتشيع في كل صفحة من صفحات الكتاب روح محبة للعرب ، واعجاب بحضارتهم واشادة بما خلّفوه من تراث مادي ومعنوي • وما علينا الا أن نقرأ الفصل العاشر من الكتاب الخامس(٢٠) لكي نتبين ذلك • ففيه نجد تفضيل العرب « على الاغارقة والفرس والرومان في تأثيرهم في الشعوب التي فتحوا بلادها ، وتعريبهم سكانها باللين والتسامح »(٢١) •

وفيها تفاصيل عن تأثيرهم في الشرق والغرب في النواحي العلمية والادبية(٢٢)، وفي فن العمارة(٢٣) ، وفي الطبائع(٢٤) ، وهو يختم هذا الفصل بهذه الاسطر :

« انه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم ، وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، وان العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي ، وان العرب هم الذين فتحوا لاوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والادبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي ، فكانوا ممدنين لنا ، وأئمة لنا ، ستة قرون »(٢٥) •

٨ ـ ولقد كان من حسن الحظ أن قيض لهذا الكتاب العظيم أديب كبير يستطيع أن يقوم بترجمته الى العربية ، انه المرحوم الاستاذ عادل زعيتر ، الذي كان في دقة الترجمة كما كان في أصالة التعبير وفحولة التركيب وضلاعة اللغة »(٢٦) •

ولقد كان نظير زيتون مصيبا حين قيّم الكتاب والترجمة بقوله : « ما عرف

العرب في كل العصور مؤلفا أنصفهم وروى حقيقتهم كماصنع غوستاف لوبون، عندما وضع سفره التاريخي العظيم في تأثيل الحضارة العربية وتمجيد الفتوحات العربية ، حتى يتهمه من لا يعرف المؤلف النزيه المتحرر أنه يتزلف للعرب ويتملقهم بعدما صور الحضارة العربية بريشة المبدع الفنان ، وصاغ للعرب لا تاجا من العيقان مرصعا بالجواهر الحسان ، بل تاجا عبقريا ، عبهري البيان •• ثم جاء عادل زعيتر فألقى على هذا التاج أسمى ما يزخر في الانسان من خلجات الجنان ، ومهره بأنقى ما يفيد الوجدان من حب وحنان ، وبعثه للعربية بأفصح لسان وأعذب بيان • وكان له بدل الفضل فضلان »(٢٧) •

نصوص الكتاب :

ولكي تكون معرفتنا بالكتاب أدق ، وصلتنا به أوثق، ننقل فيما يلي نصوصا منه ، من القسم الذي خصصه (لحضارة العرب) :

١ ـ مناهج العرب العلمية :(٢٨) لم يلبث العرب ، بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جدّ علماء القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها •

ويعزى الى بيكن ، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد ، اللذين هما ركن المناهج العلمية ، الحديثة ، مقام الاستاذ ، ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولا سيما هنبولد ، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم قال :

« ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا » •

وقال مسيو سيديو : « ان أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤديا الى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادىء قال بها أساتذة من العرب ، وكان العرب في القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى أروع الاكتشافات » .

٢ — الرياضيات : « (٢٩) ، اتسع البحث في الرياضيات ولا سيما علم الجبر ، عند العرب ، وعزى الى العرب اكتشاف علم الجبر ، ولكن أصوله كانت معروفة منذ زمن طويل ، ومع ذلك فقد حوّل العرب علم الجبر تحويلا تاما ، واليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة .

وبلغ علم الجبر من الانتشار بين العرب ما ألف معه محمد بن موسى كتابا موطئا له بأمر المأمون في أوائل القرن التاسع من الميلاد ، ومن ترجمة هذا الكتاب اقتبس الاوربيون معارفهم الاولى لعلم الجبر ، بعد زمن طويل .

واقتصر على ذكر أهم أعمال العرب الرياضية بايجاز ، لما في بيانها مفصلا من الدخول في الدقائق الفنية ، وأقول أن العرب هم الذين أدخلوا المماس الى علم المثلثات ، وأقاموا الجيوب مقام الاوتار ، وطبقوا علم الجبر على الهندسة وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا في مباحث المخروطات ، وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل مثلثات الاضلاع الى بضع نظريات أساسية تكون قاعدة له .

ولادخال المماس الى علم المثلثات أهمية عظيمة ، واسمع ما قاله مسيو شال في كتابه « خلاصة تاريخ أصول الهندسة » : « لم تؤثر تلك الثورة العلمية المباركة ، التي أدت الى طرح تلك الطرق المركبة الثقيلة في الجيب ، وتمام

الجيب . في علماء القرون الحديثة الا بعد مرور خمسمئة سنة ، وذلك بدعوة ريجيو مونتانوس ، وان جهل تلك الثورة كوبرنيك الذي ظهر بعد نحو قرن » .

٣ — التقدم الذي حققه العرب في الجغرافية (٣٠) .

كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهم ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ، ولا سيما بطليموس ، أدلاء لهم في علم الجغرافية لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم .

كانت مواضع المدن الكثيرة التي عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدار غلطه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ .

ويكفي أن نقابل بين الامكنة التي عينها الاغارقة والامكنة التي عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على يد العرب ، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يقرب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق ، وأن خطأ الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة .

وكان تعيين الطول صعبا على العرب وذلك لما يعوزهم في ذلك الحين من مقياس للزومان (كرنومتر) ومن تقاويم مضبوطة للقمر فكانت مغالطهم أظهر من ذلك ، وان لم يزد على درجتين الا نادرا ، أي وان كانت دون غلط الاغارقة بمراحل .

حقا أن أغاليط الاغارقة في تعيين الطول كانت فاحشة في بعض الاحيان ، ومنها أن غلط بطليموس ، الذي اتخذ الاسكندرية مبدأ للطول ، في طول طنجة نحو ١٨ درجة فجعله ٥٣ درجة و ٣٠ دقيقة بدلا من ٣٥ درجة و ٤١ دقيقة ،

ومنها أن جعل بطليموس في تقاويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة الى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة على الحقيقة ، أي ما يعدل أربعمائة فرسخ تقريبا ، مع أن غلط تقاويم العرب فيه أقل من درجةواحدة·

وكتب العرب التي انتهت الينا في علم الجغرافية مهمة الى الغاية ، وكان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم في أوربة قرونا كثيرة ·

٤ ـ العلوم الطبية : (٣١)

يعد الطب والفلك والرياضيات والكيمياء أهم العلوم التي عني بها العرب ، وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم ، وترجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوربة ، ولم يتلف قسم كبير منها كما أصاب كتبهم الاخرى ·

آثار العرب الطبية : ـ عدد المؤلفين من أطباء العرب كبير الى الغاية ، وخصّص ابن أبي أصيبعة مجلدا من كتابه لتراجم أطباء العرب فنكتفي بذكر بعض من اشتهر منهم ·

نهض الأغارقة بالطب أكثر مما نهضوا بمعظم العلوم الاخرى ، ووجد العرب في مؤلفاتهم مباحث مفيدة ، وكان هارون (٦٨٥ م) أول من قام بترجمة كتب اليونان الطبية ، وكانت مجموعته الطبية مقتطفات منكتب أطباءاليونان، ولا سيما جالينوس ، ثم ترجمت كتب بقراط وبولس الاجيني الخ · بعد ذلك بزمن قليل ·

والرازي ، الذي ذكرنا أنه من علماء الكيمياء ، هو من أشهر أطباء العرب وولد الرازي سنة ٨٥٠ م وتوفي سنة ٩٣٢ م بعد أن زاول الطب في بغداد خمسين سنة ، وألّف الرازي في شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء

والطب الخ · ووضع الرازي آثار من ظهر قبله من الاطباء على محك النقد الشديد فوق فراش المرضى ، وكان ما كتبه في بعض الحميات ذات البثور كالحصبة والجدري معوّل الاطباء زمنا طويلا ، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح ، وكان كتابه في أمراض الاطفال أول كتاب بحث في هذا الموضوع ، ويرى في كتبه وسائل جديدة للمداواة ، كاستخدام الماء البارد في الحميات المستمرة الذي أخذ به علم الطب الحديث ، وكاستخدام الكحول والنتائل ، وكاستخدام المحاجم لمعالجة داء السكتة ، الخ ·

وكان الرازي متواضعا كما كان طبيبا حاذقا دقيقا ، ومما روي أنه أعاد بطريقة جلد الجسم بشدة ولا سيما الكعب ، الحياة الى شخص سقط فاقد الحس في أحد شوارع قرطبة واعتقد الناس أنه مات ، فلما امتدح الخليفة طريقته في اعادة الحياة الى الانسان أجابه أنه رأى تطبيق هذه الطريقة على أعرابي في البادية ذات مرة ، وأن فضله ينحصر في تشخيصه لحالة ذلك المريض التي اعتقد ، مستندا الى بعض التفصيلات ، انها ضربة شمس ، وان لم يرو لنا التاريخ حقيقتها ·

وأشهر كتب الرازي كتاب « الحاوي » الذي جمع فيه صناعة الطب ، وكتاب « المنصوري » الذي بعث به الى الامير منصور والمؤلف من عشرة أقسام وهي :

١ ـ التشريح ، ٢ ـ الأمزجة ، ٣ ـ الاغذية والادوية ، ٤ ـ الصحة ، ٥ ـ دواء البشرة ، ٦ ـ نظام السفر ، ٧ ـ الجراحة ، ٨ ـ السموم ، ٩ ـ الأمراض على العموم ، ١٠ ـ الحمى ·

وترجمت أكثر كتب الرازيالى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات ، ولاسيما في البندقية سنة ١٥٠٩ م ، وفي باريس سنة ١٥٢٨ م ، وسنة ١٧٤٨ م ، وأعيد

طبع ترجمة كتابه في الجدري والحصبة سنة ١٧٤٥ م ، وظلت جامعات الطب في أوربة تعتمد على كتبه زمنا طويلا ، وكانت كتبه ، مع كتب ابن سينا ، أساسا للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر من الميلاد كما ثبت ذلك من برنامج وضع سنة ١٦١٧ م ، وقد ظهر من هذا البرنامج أن مؤلفات علماء اليونان الطبية لم تنل من الحظوة الا قليلا ، وأنها اقتصرت على بعض جوامع الكلم لبقراط وبعض الخلاصات لجالينوس ٠

خاتمة

كتاب حضارة العرب كتاب هام جدا في تاريخ الدراسات الحضارية ٠ لقد أنصف حضارتنا انصافا علميا ، وقدمها للقراء في الغرب تقديما موضوعيا من جهة ، وأنيقا مترفا من جهة أخرى ٠ يضاف الى ذلك أنه سماها باسمها الحقيقي فهي عنده « حضارة العرب » ، والعرب هم حملة لوائها ، والناشرون لها في أقطار الارض ، مشركين معهم في اقامة صروحها جميع الذين تعربوا فكرا ولغة وعاطفة ، وان كانت أصولهم غير عربية ٠

يرفع من قيمة الكتاب أنه أول الكتب التي فهمت حضارتنا بعمق ، واستطاعت دراستها وعرضها بأمانة ، فأسهمت بذلك في التعريف باحدى الحضارات الهامة في تاريخ الانسانية ٠

الحواشي :

---

(١) الكتاب ص ٢٦ و ٢٧ من الترجمة العربية وهي التي اعتمدناها هنا٠
(٢) الكتاب ص ٢٩ ٠
(٣) من مقدمة عادل زعيتر ص ٢٣ ٠

(٤) عربها عادل زعيتر (أبوابا) وكنا نؤثر لو أبقاها كما أوردها المؤلف٠
(٥) من ص ٤٦٥ ، الى ص ٦٣٢ ٠
(٦) من ص ٤٣٢ ـ ٥٧٩ ٠
(٧) عنوان بحث مطول ص ٨٧ وما بعد ٠
(٨) ص ٨٩ من الكتاب ٠
(٩) ص ٩٧ ٠
(١٠) من ص ١٠١ ، الى ص ١١٦ ٠
(١١) ص ١١٠ و ١١١ من الكتاب ٠
(١٢) ص ٣٤ ٠
(١٣) ص ٣٥ ٠
(١٤) ص ٤٣ ٠
(١٥) ص ٤٦ ٠
(١٦) ص ٥٣ ٠
(١٧) ص ٥٤ ٠
(١٨) ص ٦٧ ٠
(١٩) ص ٧٥ ٠
(٢٠) ص ٥٦٣ وما بعد ٠
(٢١) ص ٥٦٣ ٠
(٢٢) ص ٥٦٦ وما بعد ٠
(٢٣) ص ٥٧١ ٠
(٢٤) ص ٥٧٥ ٠
(٢٥) ص ٥٧٩ ٠
(٢٦) من كلمة لمحمد عبد الغني حسن في تصدير الترجمة العربية ٠
(٢٧) من كلمة في تصدير الترجمة ٠
(٢٨) ص ٤٣٥ و ٤٣٦ ٠
(٢٩) ص ٤٥٥ ٠
(٣٠) ص ٤٦٨ و ٤٦٩ ٠
(٣١) ص ٤٨٨ و ٤٨٩ ٠

الفصل السادس

تاريخ الأدب العربي

للعلامة الألماني بروكلمان (١)

– ١ –

الكتاب الذي نعرف بـه في هـذا البحث من أعظـم الكتب ، لا في تاريـخ الدراسات العربية والاستشراقية فحسب ، بل وفي تاريخ الحضارات الانسانية . ذلك أنه يعرف بتاريخ الادب العربي تعريفا ممتازا وكامـلا : يعرف بآثاره وبرجاله ، وبما أثير حوله من دراسات وأبحاث ، في اللغات الشرقية والغربية ، ويعرف كذلك بما ترجم منه الى اللغات المختلفة ، ثم يذكر مكانته بين الآداب العالمية ، وبما ترك من أثر في الآداب المختلفة ، فاذا ما ذكرنا أن أدبنا العربي يحتل مكانة بارزة بين الآداب العالمية ، وأن عمره المتصل مديد مديد ، يتناول حوالي سبعة عشر قرنا ، وأنه ترك آثاره في الآداب الفارسية والتركية من جهة، والأوربية من جهة أخرى .. اذا ما ذكرنا ذلك قدرنا قيمة الجهد الكبير الذي بذله (كارل بروكلمان) ليقدم لنا تاريخا كاملا للأدب العربي وما يتعلق به،

آخذاً بعين الاعتبار الأدب بمعنييه : الخاص والعام ، ومدخلا في كتابه ، من ثم، الأدب شعره ونثره ، ثم علوم القرآن والحديث المختلفة ، وعلوم اللغة ، والفلسفة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفقه ، والتصوف ·· والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية ·· أي جميع ما أنتجته الحضارة العربية من أدب وعلم وفلسفة ودراسات دينية ·

ـ ٢ ـ

وبروكلمان في مقدمة المستشرقين اخلاصا للعلم وتجرداً من نوازع العصبية القومية والدينية(٢) فضلا عن أنه واحد من المستشرقين الألمان المعروفين « بتحررهم من نزعة التعصب التي لازمت أغلب المستشرقين في سائر الدول الأخرى » (٣) · ولد في مدينة روستك في ١٨٦٨/٩/١٧ ، (٤) التي تقع في بروسيا الشرقية وتطل على البحر البلطي ، وتخرج باللغات السامية على أعلام المستشرقين ومنهم نولوكه « ونبغ فيها وطارت له شهرة في فقه العربية وقراءاتها قراءة فصيحة وكتابتها كتابة سليمة ، وفي التاريخ الاسلامي (٥)، وتاريخ الأدب العربي ، حتى عد اماما من أئمتها · عين أستاذاً للعربية في جامعات : برسلاو (١٨٩٣ ـ ١٩٠٣) ، وكونبرج (١٩٠٣ ـ ١٩٠٩) وهاله (١٩٠٩ ـ ١٩٢٠) وبرلين (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) وعاد الى برسلاو (١٩٢١ ـ ١٩٣٧)(٦) ثم استقر به المقام أخيرا في هاله (اعتبارا من عام ١٩٣٧) حتى وافته المنية في ٦ مايس عام ١٩٥٦ (٧)، وكان قد انتخب عضوا في مجامع برلين ، ودمشق ، وليبزيغ ، وبودابست ، وبون وجمعيات آسيوية كثيرة (٨) ·

ترك بروكلمان تراثا ضخما من الابحاث بين كتب ومقالات نشرت فيأمهات المجلات والدوريات العلمية في ألمانيا وغيرها ، (٩) وقد استغرقت عناوينها ست

صفحات من كتاب (المستشرقون) ، وبلغ عددها ثلاثة أبحاث ومائة بين مقالة وكتاب(١٠)، فضلا عن أنه أسهم في كتابة مائة وثمانية وعشرين بحثا في دائرة معارف الاسلام موزعة كما يلي : تسعة وخمسون بحثا في المجلد الاول الصادر عام (١٩١٣ في ليدن) ، وثلاثة وثلاثون بحثا في المجلد الثاني الصادر (عام ١٩٢٧) ، وواحد وعشرون بحثا في المجلد الثالث الصادر في (عام ١٩٣٦) ، وعشرة أبحاث في المجلد الرابع الصادر (في عام ١٩٣٤) ، وبحث واحد في ذيل دائرة معارف الاسلام (الصادر عام ١٩٣٧) (١١) ·

ـ ٣ ـ

وأهم كتبه على الاطلاق كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي يتوج جميع مؤلفات بروكلمان وبحوثه ، وهو الكتاب الذي أثبت دون شك أن صاحبه كان عالما متضلعا في اللغة العربية وآدابها ·

صدر الكتاب في مجلدين (بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٢) ، يقع الأول منهما في (٥٢٨ ص) ويقع الثاني في (٧١٤ ص) (١٢)، وهما يؤرخان للأدب العربي منذ العهد الجاهلي حتى نهاية العهد المملوكي · ثم أصدر في عامي (١٩٣٧ و ١٩٣٨) ملحقين ضخمين لهذين الجزئين يقع الأول منهما في (٩٧٣ ص) ويقع الثاني في (١٠٤٥ ص)، ثم أعاد النظر في الجزئين القديمين وأصدرهما منقحين في عامي (١٩٤٣ و ١٩٤٩)· أما الأدب العربي الحديث فقد خصص له مجلداً ضخما نشر في عام ١٩٤٢ وكان في ٤٩٩ ص ، يضاف اليها حوالي ٨٠٠ ص من الفهارس المختلفة ·

وهكذا اكتمل الكتاب في خمسة مجلدات ضخمة تتناول بالتأريخ أدبنا العربي (الأفضل أن يقال تراثنا العربي) منذ أول عهوده ، الى منتصف القرن العشرين ·

— ٤ —

سبق بروكلمان ـ في تأليف كتب عن تاريخ الأدب العربي ـ علماء في الغرب والشرق ، وقد ساهم في مقدمة كتابه (١٣)، وبين مزايا كتبهم والمآخذ عليها، والفرق بينها وبين كتابه • والواقع أن كتاب بروكلمان هو أشمل هذه الكتب جميعا ، وهو لم يكتف ، من أجل تأليفه ، بما نشر أو طبع من آثار الأدب العربي ، ولا بما وقع بين يديه من مخطوطات ، بل انطلق الى مكتبات الدنيا ، يدقق في فهارسها ، وينظر في مخطوطاتها ، حتى اجتمع لديه تعريف شبه كامل بكل ما يتعلق بتراث العرب • ونظرة تلقى على القائمة التي أدرج فيها أسماء المكتبات التي تضم مخطوطات ، والتي بلغ عدد فهارسها مائة وثمانية وستين فهرسا ، شغلت من المقدمة واحدة وعشرين صفحة (١٤)، ان نظرة تلقى على هذه القائمة تشعرنا أن المؤلف لم يترك مكتبة ـ وصل نبأها اليه ، وكان فيها بعض المخطوطات العربية ـ الا وزارها أو اطلع على فهرسها وأفاد منه •

— ٥ —

استمرت جهود بروكلمان في تأليف كتابه هذا (تاريخ الأدب العربي) ستين عاما وكان عمله فيه :

آ ـ احصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب •

ب ـ سبر جهود العلم العربي ومتابعة خطواته في تأسيس ثقافة العالم الجديد •

ج ـ التطلع الى معرفة ما ترجم الى لغات العالم من ذلك التراث الخالد •

د ـ استيعاب ما أثير حوله من بحوث ، وصنف من دراسات قدمت خطا العلم والأدب ، ودفعتهما الى الامام في الشرق والغرب (١٥) •

وانه لعمل كبير وضخم ، وفق بروكلمان في تحقيقه في كتابه العظيم تحقيقا يكاد يكون شبه كامل ، فكان كتابه من الكتب النادرة التي أنصفت تراثنا العربي ووضعته في مكانه اللائق به من حضارتنا ، وحضارات العالم ، تعريفا ودراسة وتقييما ، وبيانا لأثره في الآداب الشرقية والغربية •

يرفع من قيمة الكتاب ، ومن عمل بروكلمان فيه أمور ثلاثة :

أولهما : أن أغلب الكتب التي اعتمد عليها عندما شرع في كتابة (تاريخ الأدب العربي) كان لا يزال مخطوطا ، اذا استثنينا ما طبع بمطبعة بولاق بمصر أو مطبعة الجوائب بالآستانة ، وذلك العدد القليل الذي طبع في أوربا •

وثانيهما : ان عالم المطبوعات والمؤلفات ـ عندما شرع بروكلمان يؤرخ لتراثنا الفكري في حدود عام ١٨٩٠ ـ كان خاليا من أي كتاب شامل باللغة العربية،أو باللغات الاجنبية ،كتاب استطاع أن يجمع ما جمع بروكلمان(١٦)•

وثالثهما : انكتب تاريخ الأدب العربي (أدبا وتراثا) التي أخذت تصدر ـ منذ ظهور كتاب بروكلمان ـ قد اتسمت كلها على وجه التقريب بميسم التأثر ببروكلمان عن طريق مباشر أو غير مباشر ، واحتذت منهجه على الاقل في تناول تاريخ العرب وتراثهم من الوجهات العقلية والعلمية البحتة ، والأدبية الخاصة وغير ذلك (١٧) •

اعتمد بروكلمان في ترتيب كتابه التسلسل التاريخي فقسم التراث العربي القديم الى مرحلتين أساسيتين :

الأولى : أدب الامة العربية من أوليته الى نهايته •

الدولة الأموية ، وهذه المرحلة تشمل فترتين :

آ ـ الأدب العربي الى ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم ·

ب ـ الأدب العربي في عهد الدولة الاموية ·

والثانية : الأدب الاسلامي باللغة العربية ، وتنضوي تحت هـذه المرحلة أربعة عصور :

آ ـ عصر ازدهار الادب في عهد العباسيين بالعراق منذ نحو سنة ٧٥٠ م، الى نحو سنة ١٠٠٠ م ·

ب ـ عصر الازدهار الثاني من سنة ١٠٠٠ م الى سقوط بغداد بيد المغول سنة ١٢٥٨ م ·

ج ـ عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول الى فتح مصر على يد السلطان العثماني سليم سنة ١٥١٧ م ·

د ـ عصر الأدب العربي من سنة ١٥١٧ م حتىأواسط القرنالتاسععشر·

خصص بروكلمان الجزء الأول والجزء الملحق به من كتابه للمرحلة الاولى· وخصص الجزء الثاني والجزء الملحق به للمرحلة الثانية · ثم أضاف الى هاتين المرحلتين مرحلة أدب العصر الحديث منذ أواسط القرن التاسع عشر ، حتى أواسط القرن العشرين · وقد خص قسما من الجزء الثالث من كتابه لأدبهذه المرحلة ، وأتبع ذلك بفهارس شاملة للكتاب بلغت ثمانمائة صفحة ونيف ·

وكان ترتيب الكتاب كما يلي : يوزع كل جزء الى أبواب ، وكل باب يوزع الى فصول · فالجزء الاول مثلا يقع في ثمانية عشر بابا عناوينها كما يلي :

ـ مقدمة عامة للكتاب في موضوع (منحى تاريخ الأدب)(١٨) ·

ـ الباب الأول : أدب الامة العربية من أوليته الى ظهور الاسلام ·

ـ الباب الثاني : عصر النبي (ص) ·

ـ الباب الثالث : عصر الامويين (١٩) ·

ـ الباب الرابـع : علم العربية (٢٠) ·

ـ الباب الخامس : التاريخ ·

ـ الباب السادس : أدب السمر وكتب الثقافة العامة ·

ـ الباب السابع : علم الحديث ·

ـ الباب الثامن آ : علم الفقه (٢١) ·

ـ الباب الثامن ب : علوم القرآن ·

ـ الباب التاسع : العقائـد ·

ـ الباب العاشر : التصوف ·

ـ الباب الحادي عشر : المترجمون ·

ـ الباب الثاني عشر : الفلسفة ·

ـ الباب الثالث عشر : الرياضيات ·

ـ الباب الرابع عشر : علم الفلك والتنجيم ·

ـ الباب الخامس عشر : الجغرافيا ·

ـ الباب السادس عشر : الطب ·

ـ الباب السابع عشر : العلوم الطبيعية والخفية ·

ـ الباب الثامن عشر : الموسوعات (٢٢) ·

وكان بروكلمان يبدأ كل قسم بكلمة عامة عن العصر الذي يتحدث عنه ، مع ذكر خصائصه الرئيسية ، ثم يتناول الفروع فرعا فرعا مع التقديم لهـا بدراسة مختصرة · ثم يلي ذلك المؤلفون والشعراء ، مع ترجمة موجزة لحيـاة

كل منهم ، يتبعها بذكر جميع مؤلفاته سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة مع بيان سنة الطبع والنشر ، ومكان النشر ، ثم أماكن وجود كل مخطوط ورد ذكره(٢٣)٠

وهانحن أولاء ننقل ـ مثلا ـ ما كتبه عن قدامة بن جعفر (٢٤) : « أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، وكان نصرانيا وأسلم على يـد المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م) ، صنف عدة كتب أدبية الى جانب كتابه عن الخراج ٠ ومن المحتمل أنه توفي سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م (كما يرى دى خويه) وفي قول أنه توفي سنة (٣٢٧ هـ / ٩٤٨ م) ويقول ابن تغري بردي أنه توفى سنة (٣٣٧ هـ / ٩٥٨ م) ٠

(آ) ـ الفهرست ص ١٣٠ س ٢٠ ـ ٢٧ ٠ ياقوت الارشاد ٦/٢٠٣ ـ ٢٠٥ ٠ ابن تغرى بردى ط Junball ٢/٣٢٣ ط القاهرة ٣/٢٩٧ ـ ٢٩٨ ٠

— M. de Slone, Notices sur Codama et ses écrits, J. A, S.V, T 20.
—Renaud, Geographie d'Abaulfeda LX, LXXXIV.
— De Goye, B. G, VI, 22.
— Kroch Kovsky, Mo, XXII 35 - 35.

وأبوه مذكور في تاريخ بغداد للخطيب ٧/٢٠٥ ٠

(ب) ـ ١ ـ كتاب الخـراج : منه نبذ في المجلـد السادس مـن (المكتبة الجغرافية) : يعرض لنظام البريد ، ثم يصف الأرض وصفا عامـا يعنى فيه ببلاد الاسلام وما يجبى منها من مال ٠ وبعد وصف الامم الاجنبية المجـاورة وبلادها ، ينتقل الى ادارة الاموال العامة ونظام الجباية وقانون الادارة ٠ وفيه تاريخ مختصر للفتوح نقل كله من كتاب البلاذرى ، أنظر :

V. Kremer, Culturgesh, II, 427.
Berl Sim

ومنه نسخة مخطوطة في كوبريلي ١٠٧٦ (١) ٠

٢ ـ كتاب نقد الشعر : الاسكوريال ثان ٢٤٢ : ٢ ، كوبريلي ١٤٤٥ : ٢ MSOS ١٤/١٧) ، طبع في استانبول سنة ١٣٠٢ هـ ٠ وقد تأثر في هذا الكتاب بالفلسفة والمنطق اليونانيين ، ولهذا نجد كتابه أقوم منهجا من كتابي الجاحظ وابن المعتز ٠ وهو يحلل أمثلته تحليلا أدق من تحليلهما ، ويحاول استحداث مصطلحات جديدة ، وان لم يقدر لها الشيوع ، انظر كراتشكوفسكي ، المرجع المذكـور ٠

٣ ـ كتاب نقد النثر المعروف بكتاب البيان : الاسكوريال ثان ٢٤٢ : ٢١ نشره طـه حسين وعبد الحميد العبادي ، القاهرة ١٩٣٣ (الجامعة المصرية ، مطبوعات كلية الآداب ٠ المطبوع الخامس عشر) ٠

ولا يمكن البت على وجه قاطع فيما اذا كان الكتاب لقدامة فعلا أو جمعه من كتاب القاضي أبو عبد الله محمد بن أيوب الغافقي (المتوفي سنة ٦٦٠ / ١٢٦٢ ، انظر ابن الأبار : التكملة ١/٢٩٧ ـ ٢٩٩ ، وليفي دلافيدا : مجلد الدراسات الشرقية ١٣/٣٣١ ـ ٣٣٣) ، انظر كراتشكوفسكي IZU. AK. Nauk سنة ١٩٣ ، ص ٦٣ ـ ٧٨ ٠ ويتمسك طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » ص ١٢٥ وما بعدها ، بصحة نسب الكتاب الى قدامة ، ويجد أن قدامة قلد فيه كتاب الشعر لارسطو ٠

٤ ـ جواهر الألفاظ : الموصل ٢٠٦ : ٤ ، طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٩ هـ/ ١٩٣٢ م ومنه نسخة معدلة : أيا صوفيا ٤١٩٤ (ريتر) » ٠

وكان اتجـاه بروكلمان قصر الكتاب على دراسة التاريخ السطحي للأدب العربي ، أي أن يكون ما يكتبه وصفا خارجيا لا تحليلا داخليا ، فاذا ما تناول شاعرا أو كاتبا لم يحاول الوقوف على آرائه وأسلوبه ، بل كان يثبت مراحل حياته في سطور ، واذا ما تحدث عن أعمال ذلك الشاعر أو الكاتب ، ذكرهـا

جميعا وتناولها بالوصف دون نقدها ، أو التعرض الى طبيعة ما يقوله ذلك الشاعر في قصيدته أو هذا الكاتب في كتابه • (٢٥) على أنه في الجزء الذي تحدث فيه عن أدب النهضة والعصر الحديث قد غير منهجه ذاك ، فتناول الكثيرين ممن كتب عنهم بتحليل أعمالهم وبيان اتجاهاتهم وآرائهم ، مستمدا ذلك مما قرأ في الكتب والمراجع ، ومما استفاده من صلاته الشخصية عن طريق الرسائل التي تبادلها مع رجال الادب والفكر البارزين في مصر وسوريا ولبنان (كالاساتذة طه حسين والعقاد ومحمود تيمور وبشر فارس وحسن كامل الصيرفي وغيرهم) (٢٦) •

(٧)

كتب بروكلمان كتابه باللغة الالمانية ، وهي لغة لا يتقنها الا القلائل من العرب ، فاذا ما أضفنا الى ذلك أهمية الكتاب ، وشموله ، وضخامته ، ووجوده المتعذر بين أيدي من يريدون الافادة منه ، بدت لنا الضرورة القصوى لتعريبه ونقله الى اللغة العربية • لذلك كان الدكتور النجار على حق حين كتب : « كان تعريب كتاب تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان أملا يراود كل قارىء حينما يبحث في علوم العرب وآدابهم ، أو يحاول سبر جهود العلم العربي ومتابعة خطواته في تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته ، أو يريد حصر ما تشتت ، واحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربي في مكتبات العالم وخزائن الكتب ••• »(٢٧) •

ولذلك كانت ترجمة الكتاب وتعريبه من أوائل الامور التي اتخذت الادارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية فيها قرارا أتبعته باتصال تم ببروكلمان للحصول على موافقته على نقل كتابه الى اللغة العربية ، وهو ما تم بالفعل سنة ١٩٤٨ • (٢٨)

على أن الترجمة العربية لم تصل الى أيدي القراء الا في أواخر عام ١٩٥٩ حين صدر الجزء الاول ، ثم أعقبه جزء ثان في عام ١٩٦١ وثالث في عام ١٩٦٢• ثم توقفت الترجمة مدة طويلة نظرا لوفاة المترجم المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، ولم تستأنف الا منذ فترة يسيرة حين صدر الجزء الرابع في عام ١٩٧٥، وكلا هذين الجزئين معرب بقلم الدكتورين السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب •

وقد جمعت النسخة العربية مزايا النسخة الالمانية الأصيلة وأضافت اليها « المزج والتأليف بين الكتاب الاصلي وملاحقه ، مع ملاحظة الطبعتين الاولى والثانية للكتاب الاصلي ، بحيث يتحصل من كل ذلك كتاب موحد النسق ، متصل الموضوعات بعد أن ارتضاه بروكلمان نفسه ، ووضع خطته لترجمة الكتاب بعد أن استشارته في ذلك الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية »(٢٨) ، كما أن بروكلمان قد بعث الى الادارة المذكورة بجزء كتبه بخطه ، وباللغة العربية ، يحتوي على تصحيحات وزيادات لغرض الحاقها ، فالتزم المعرب مراعاتها واضافتها في مواضعها ، الى جانب التصحيحات والتعقيبات الاخرى التي ألحقها بروكلمان في أواخر الاجزاء من النسخ المطبوعة • (٢٨)

صدر من الترجمة العربية ــ كما بينا ــ خمسة أجزاء ، الاربعة الاولى منها تعريب للمجلد الاول من كتاب بروكلمان وقد بلغ مجموع صفحاتها أكثر من ثلاثمائة وألف من الصفحات • كما كان الجزء الخامس العربي ، تعريبا للقسم الاول من المجلد الثاني من الكتاب •••

ان نظرة بسيطة تلقى على النسخة الالمانية ، وعلى ما عرب منها حتى الآن ، تعطينا عدد الاجزاء التي ستصل اليها النسخة العربية ، انها ستكون في أكثر من عشرين جزءا ••• لذلك نأمل أن يتابع المترجمان الاخيران ،

المعهود اليهما أمر نقل الكتاب الى العربية ، عملهما بسرعة ، وأن نجد الترجمة العربية كاملة بين أيدينا في أقرب وقت • ان في ذلك خدمة للتراث العربي من جهة ، ولمن يعنون بدراسته والافادة منه من جهة ثانية •

وسيضاف الى المكتبة العربية – حين يتم تعريب تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان – كتاب ، ممتاز ، فيه تعريف بما قدمته الامة العربية للتراث الانساني في مجالات الآداب والعلوم والفلسفة وفقه الاديان ، وهي مجالات رحبة رحبة ، برهن بروكلمان عمليا ، وفي كتابه العظيم ، على أن عطاء العرب فيها كان اسهاما كبيرا وجيدا فيما قدمته الانسانية عبر مسيرتها الطويلة •

الحواشي :

(١) عنوان الكتاب باللغة الالمانية كما يلي :

Geschichte

Des

Aruluschen litterattur

Von

Prof. Ds. C. Brocklmanno

والطبعة الموجودة بين أيدينا هي الطبعة الثانية من الكتاب وتقع في خمسة مجلدات مطبوعة كلها لدى بريل (Brill) في ليدن • الاول مطبوع عام ١٩٤٣ ويقع في ٦٧٦ ص ، وله ملحق يقع في مجلد مطبوع عام ١٩٣٧ وهو في ٧٩٣ ص •

والثاني مجلد يقع في (٦٨٦ ص) مطبوع عام ١٩٤٩ ، وله مجلد ملحق

به مطبوع عام ١٩٣٨ ويقع في ١٠٤٥ ص • ومجلد ثالث طبع في عام ١٩٤٢ ويقع في ١٣٢٦ ص •

(٢) مصطفى الشهابي ، عدد مجلة الهلال القاهرية الصادر في شهر يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٧٦ ص ٧٩ •

(٣) مصطفى الشهابي المصدر السابق ص ٧٨ •

(٤) ترجمته في نجيب العقيقي ، المستشرقون جـ ٢ ص ٧٧٧ وما بعد وفي عدد مجلة الهلال السابق ذكره ص ٧٨ و ٧٩ •

(٥) له كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية مترجم الى العربية في ثلاثة أجزاء •

(٦) نجيب العقيقي ، المستشرقون جـ ٢ ص ٧٧٧ و ٧٧٨ •

(٧) مصطفى الشهابي ، عدد الهلال المنوه عنه سابقا ص ٧٩ و ٨٠ •

(٨) نجيب العقيقي المصدر السابق ص ٧٧٨ •

(٩) مصطفى الشهابي المصدر السابق ص ٨١ •

(١٠) نجيب العقيقي المصدر السابق ص ٧٧٨ و ٧٧٩ و ٧٨٠ و ٧٨١ و ٧٨٢ • وصلاح الدين المنجد ، المنتقى من دراسات المستشرقين ، القاهرة ١٩٥٥ •

(١١) نجيب العقيقي المصدر السابق ص ٧٨٢ و ٧٨٣•

(١٢) نجيب العقيقي المصدر السابق ص ٧٧٨ •

(١٣) الجزء الاول من الترجمة العربية ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ •

(١٤) المصدر السابق من ص ١٠ ، الى ص ٣١ •

(١٥) مقدمة الدكتور عبد الحليم النجار ، معرب الاجزاء الثلاثة الاولى من الترجمة العربية • الجزء الاول ص ٩ •

(١٦) مصطفى الشهابي ، عـدد مجلة الهلال المنوه عنه سابقا ص ٨٢ و ٨٣ •

(١٧) مقدمة الدكتور عبد الحليم النجار الجزء الاول من الترجمة العربية ص ١٣ و ١٤ ٠

(١٨) تقع في ٣٨ صفحة من الترجمة العربية ٠

(١٩) وهذه الابواب تشغل الجزء الاول من الترجمة العربية ٠ طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٩ ، ويقع هذا الجزء في ٣٢٠ ص ٠

(٢٠) يقع البابان الثالث النثر الفني والرابع علم العربية في الجزء الثاني من الترجمة العربية وهو في ٢٩٣ ، ومطبوع في القاهرة سنة ١٩٦١ ٠

(٢١) تقع الابواب الخامس والسادس والسابع والثامن في الجزء الثالث من الترجمة العربية وهو في ٣٧٦ وقد قام بترجمته الدكتور النجار وطبع بالقاهرة سنة ١٩٦٢ ٠

(٢٢) تقع الابواب (من الثامن الى الثامن عشر) في الجزء الرابع من الترجمة العربية ، وهو في ٣٣٨ ص ٠ وقد قام بترجمته كل من الدكتورين السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب بتكليف من (المنظمة العربية للتربية والثقافة) والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ٠ وقد طبع هذا الجزء بدار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٥ ٠

(٢٣) مصطفى الشهابي في مقاله بعدد مجلة الهلال المنوه عنه سابقا ص ٨٣ ٠

(٢٤) ج ٤ من الترجمة العربية ص ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٤٤ ٠

(٢٥) مصطفى الشهابي المصدر السابق ص ٨٣ و ٨٤ ٠

(٢٦) مصطفى الشهابي المصدر السابق ص ٨٤ ٠

(٢٧) الجزء الاول من الترجمة العربية ص ٩ ٠

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ ٠

الفصل السابع

مدونة الكتابات العربية

للعلامة ماكس فان برشم وزملائه

— ١ —

كان لا بد للحضارة العربية ، لتكون في مستوى زميلاتها من الحضارات التي سبقتها ، أن تخلف — الى جانب التراث الديني والعلمي والفلسفي — تراثا فنيا في مجالات العمارة والنحت والتصوير ٠

وقد بيّنت في محاضرة لي ألقيت في الشهر الخامس من عام ١٩٧٥، بمناسبة عام الآثار العربية الاسلامية في القطر العربي السوري ،(١) أن العرب قد أسهموا في التراث الفني الانساني اسهاما عظيما ، وفصّلت القول فيما أنتجوه في ميدان العمارة والتصوير ، مؤيدا ما ذهبت اليه بما قاله علماء الآثار ، والفنون ، وبخاصة الاوربيون منهم في هذا الميدان ٠(٢)

- ٢ -

امتاز التراث الفني العربي بميزات خمس :

١ ـ كونه حلقة في سلسلة التراث الفني الانساني ، أخذ مما سبقه ، وأعطى ما بعده وأثر فيه ٠(٣)

٢ ـ تأثره بالروح العربية ، وبالدين الاسلامي تأثرا كبيرا ، مع كونه في خدمة أغراض الانسان من جهة ، وتطلعا فنيا من جهة أخرى ٠

٣ ـ امتداده على رقعة كبيرة من الارض على جانبي خط العرض ٣٠ من الهند شرقا الى المحيط الاطلنسي غربا ٠ (٤)

٤ ـ اشتماله على نوعي الفنون التشكيلية : الفنون الكبرى (العمارة) والفنون الصغرى (التصوير والزخرفة والرقش) ، وعلى الفنون التطبيقية (الزجاجيات والنحاسيات والخزف ٠٠٠) ٠

- ٣ -

أما الميزة الخامسة فتتعلق بالكتابات التي تحفر أو تنقش على الآثار بغرض تدوين اسم الباني وسنة البناء ، أو بغرض التجميل والزخرفة ، أو للغرضين جميعا ٠

وقد لاحظ علماء الآثار أن الابنية التي شادها العرب بعد الاسلام سواء كانت دينية أو مدنية تحوي كتابات كثيرة قد نقشت عليها للأغراض الثلاثة الآنفة الذكر ، كما لاحظوا أنها كتبت بأنواع مختلفة من الخطوط (الكوفي البسيط ، والكوفي المورق ، الكوفي المزهر) و (النسخي السلجوقي ـ النسخي

الايوبي ـ النسخي المملوكي) وأن دراستها تعين على تأريخ الابنية العربية ، وعلى دراسة تطور فن البناء العربي ، وفن الخط العربي منقوشا على الابنية ٠

- ٤ -

وكان لا بد لتيسير ذلك من نشر هذه الكتابات ، وانما يكون ذلك : بتصويرها فوتوغرافيا وبرسمها رسوما توضيحية ، وبترجمتها الى احدى اللغات الاجنبية ، لتكون مواد تسهل عمل مؤرخي الفنون العربية من العلماء الاجانب ٠

وهذا ما ندب نفسه له العالم (ماكس فان برشم (M. Van Berchem) بدءاً من عام ١٨٩٥ ، بعد أن قام برحلات الى فلسطين وسوريا ، وما بين النهرين ، وآسيا الصغرى ، مصوّرا الآثار ، وناقلا الكتابات المسجلة عليها ، تمهيدا لاعداد كتابه المنشود ٠ فضلا عن أن اقامته بمصر قد يسرت له اعداد ما يتعلق بهذا القطر العربي ، وبعاصمته القاهرة ٠ (٥)

ولقد شعر فان برشم بأنه غير قادر وحده على القيام بهذا العمل الضخم ، فعهد لزميليه في (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) وهما (سوبرنهايم، وهرزفلد) بزيارة سورية واعداد القسم الخاص بها من كتابه ، فقاما بذلك خير قيام على نحو ما سنبيّنه فيما يلي من هذا المقال ٠

- ٥ -

أعطى فان برشم كتابه عنوانا باللاتينية هو : (Corpus Inscriptionum Arabicarum) وترجمته : (مدونة الكتابات العربية) ، وقد عمل بنفسه أربعة أقسام منه : القسم الخاص بمصر ويقع في جزأين صغيرين نشرهما بين سنتي ١٨٩٤ و ١٩٠٣ ـ القسم الثاني خاص بالقاهرة وقد طبع بباريس عام

١٨٩٤ في حوالي ٨٠٠ صفحة من الحجم الكبير ـ القسم الثالث الخاص بسورية الجنوبية وأغلبه عن القدس ويقع في ثلاثة مجلدات تضم أكثر من مئتي لوحة ومخطط ٠

ـ ٦ ـ

أما (سوبر نهايم) فقد نشر قسما خاصا بطرابلس وعكار وقلعة الحصن في مجلد صغير يضم ٦٤ كتابة ٠ كما نشر كتابات قلعتي دمشق(٦) وحلب(٧) ، والكتابات العربية بحمص ٠(٨)

وقام الثالث وهو (ارنست هرزفلد) بنشر كتابات مدينة حلب في قسم خاص وثلاثة مجلدات ضخمة استمر العمل فيها حوالي نصف قرن (من ١٩٠٦ ، الى ١٩٤٨) ، ولم يتح للكتاب الطبع الا بعد وفاة مؤلفه ٠(٩)

ـ ٧ ـ

أتيح لي بحكم الاختصاص ، والعمل في تأليف كتاب عن (آثار حلب) أن أفيد افادة كبيرة من كتاب هرزفلد (مدونة الكتابات العربية ـ القسم الخاص بآثار مدينة حلب وكتاباتها) وأن أتعرفه عن قرب ، وأن أعرف مزاياه والمآخذ عليه ، بينما لم يتح لي الا الاطلاع العابر على بقية أقسام المدونة الخاصة بالمدن والاقطار العربية الاخرى ٠ لذلك أقصر بحثي على القسم الخاص بحلب ، مسجلا ـ مع ذلك ـ اكباري للجهود التي بذلها فان برشم ، انه صاحب فكرة المدونة من جهة ، والذي عمل أكثر أقسامها كما رأينا من جهة ثانية ٠

ـ ٨ ـ

يعد كتاب هرزفلد (مدونة الكتابات العربية) الخاص بحلب أعظم كتاب ألف باللغات الاجنبية والعربية عن هذه المدينة الخالدة ٠ (١٠) وهو يقع في ثلاثة مجلدات الاول والثاني نص مكتوب باللغة الفرنسية مع ١٢٩ شكلا ورسما ٠ والثالث مجموعة اللوحات الفوتوغرافية والمصورات ويضم ١٧٣ لوحة فيها ٤٧٥ صورة ومخطط ٠

والمدونة في أربعة فصول : الاول : للكتابات على أسوار المدينة وأبوابها وعددها أربعون كتابة ٠ والثاني : لكتابات القلعة وعددها خمس وخمسون كتابة ٠ والثالث : لكتاب المسجد الكبير وعددها ١٨ كتابة ، والفصل الرابع يتناول الكتابات المسجلة على أبنية متفرقة في المدينة وضواحيها وهو مقسم بحسب العهود وفيه مئتا كتابة ونيف ٠ وبذلك بلغ مجموع الكتابات التي نقلها وسجلها هرزفلد ٣٢٦ كتابة أضاف اليها اتيين كومب ـ المشرف على طبع المدونة ـ حوالي عشرين ٠

ـ ٩ ـ

يتجلى عمل هرزفلد العظيم هنا في : نشر الكتابات المنشورة على أبنية حلب الاثرية ، وترجمتها الى اللغة الفرنسية ، وتصويرها ورسمها عندما تكون غير واضحة وتصوير آثار المدينة ورسم تفصيلاتها وزخارفها ، وعمل مخططات للآثار والزخارف والخطوط وتأريخ الكتابات عندمالا تكون مؤرخة ، وذلك بالاستعانة بمصادر أخرى ، وبالتمهيد للحديث عن الاثر بما ورد عنه في الكتب التاريخية والادبية ٠

- ١٠ -

أهم مزايا المدونة أربع :

أولها : جمعها غالبية الكتابات المنقوشة على أبنية حلب الاثرية ، وتقديمها لنا مقروءة ، واضحة ، مترجمة الى اللغة الفرنسية ٠

الثانية : توفيرها هذا العدد الضخم من الاشكال والرسوم والصور ، التي لم يعد بعضها موجودا ، أو طرأ عليه تغيير كبير ٠

الثالثة : وجود صور ناجحة كل النجاح ، موفقة كل التوفيق من حيث الوضوح والجمال ٠

الرابعة: جهد بذل في الكتاب ، جهد ينم عن عمل أنفقه عالم كبير خلال نصف قرن ، فجاء قريبا من الكمال ٠

- ١١ -

على أن ذلك لا يمنعنا من تسجيل ملاحظتين هامتين :

الاولى : اغفال هرزفلد لبعض الكتابات الموجودة على بعض الابنية الاثرية التي زارها ٠(١١)

والثانية: أخطاء ارتكبها هرزفلد في قراءة بعض الكتابات ، وهي الاخطاء التي صحح بعضها (كومب) في ملحقه ، ولم يوفق الى تصحيح بعضها الآخر ٠(١٢)

- ١٢ -

لعل فيما تقدم دليلا على أهمية الكتاب موضوع هذا الفصل ٠ ان فيه خدمة كبيرة للآثار العربية والاسلامية ، وشاهدا على أهمية هذه الآثار العظيمة٠ وفيه قبل هذا كله شواهد على هذا الجانب العظيم من جوانب حضارتنا ، جانب (الكتابات العربية المدونة على الآثار) ٠

ان الفضل في هذه (المدونة) بأجزائها الكثيرة عن مصر والقاهرة والقدس وفلسطين وعكار وطرابلس ودمشق وحمص وحلب وآسيا الصغرى ، يعود دون ريب للعالم السويسري العظيم فان برشم(١٣) ، فهو صاحب فكرتها وهو الذي دوّن أجزاء كثيرة منها ، وأوعز لزميليه سوبر نهايم وهرزفلد بتدوين كتابات سورية الشمالية ، ففعلا وقدما الاجزاء الخاصة بها ٠

ولفان برشم فضل آخر ، فعنايته (بالكتابات العربية المدونة على الآثار) دفعت أربعة من العلماء الفرنسيين الاعلام أعضاء المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة (وهم كومب وسوفاجيه وفييت وايليسيف) الى العمل في جمع وتدوين الكتابات العربية في جميع أنحاء الوطن العربي (ومنه المغرب واسبانيا وهو مالم ينتبه اليه فان برشم وزملاؤه) ، في كتاب ضخم بعنوان (مرجع الكتابات العربية) ٠

وقد جاء في ستة عشرة مجلدا ، واستغرق تأليفه وجمعه وطبعه ثلاثة وثلاثين عاما (١٩٣١ ــ ١٩٦٤) ، وهو يستحق مقالة خاصة نأمل أن نكتبها ٠

فالى هؤلاء الاعلام من العلماء الاجانب شكرنا ، وأملنا في أن نرى هذين

الاثرين العظيمين (مدونة الكتابات العربيـة ، ومرجع الكتابات العربية) مترجمين الى اللغة العربية وموضوعين بين أيدي علماء التاريخ والآثار العرب ، لان أصولهما أصبحت قليلة وعزيزة المنال .

الحواشي :

---

(١) نشرت المحاضرة في مجلة المعلم العربي التي تصدر عن وزارة التربية في دمشق في عدد شهر كانون الاول من عام ١٩٧٥ بعنوان : تراثنا العربي القديم في ميدان الفنون التشكيلية . وكانت قد ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق مساء ٢٥/٤/١٩٧٥ بدعوة من اتحاد الكتاب العرب .

(٢) بدأ العلماء الاوروبيون في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي دراسة تراث العرب في ميادين الفنون التشكيلية . ولم تصبح دراستهم عالمية الا بدءا من الربع الاخير من ذلك القرن . وقد بيّن الدكتور أحمد فكري في كتابه (مساجد القاهرة ومدارسها) « المدخل من ص ٥ ، الى ص ٢١ » مزايا دراسة العلماء المستشرقين للآثار العربية ، والمآخذ عليها ، كما سجل ثبتا بأسماء هؤلاء العلماء وجنسياتهم .

(٣) ينظر البحث الهام الذي كتبه الدكتور أحمد فكري في كتابه (أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية) ففيه بيـان واف بأثر الفن العربي في الفنون الاوربية في مختلف المجالات ـ الكتاب المذكور من ص ٤٠٥ ، الى ٤٥٠ .

(٤) جورج مارسيه الفن الاسلامي ص ٥ و ٦ ، والبحث القيّم المنشور بمجلة (الثقافة العربية) بعنوان (ثلاثة أساليب لفهم تاريخ المعمار الاسلامي) . من ص ٦٤ ، الى ص ٧٣ من عدد ربيع الاول ١٣٩٦ هـ مارس آذار ١٩٧٦ . وقد كتب المقال الدكتور غاسبري ميسانا ، وعرّبه علي الصادق حسين .

(٥) كان فان برشم عضوا في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة . وهو معهد عريق أدى خدمات كبرى للآثار التركية فضلا عن نشره أكثر من مائة كتاب ضخم هام في ميادين الدراسات العربية والاثرية .

(٦) مجلة الاسلام ١٩١٢ Der Islam .

(٧) مجلة الاسلام ١٩٢٦ .

(٨) عام ١٩٢١ .

(٩) توفي هرزفلد عام ١٩٤٨ ، وطبع كتابه عن كتابات حلب كما يلي الجزء الاول ١٩٥٥ ، الجزء الثاني ١٩٥٦ ـ الجزء الثالث ١٩٥٤ ـ وقد تم ذلك في القاهرة ضمن مطبوعات المعهـد الفرنسي للآثار الشرقية في اخراج ضخم وأنيق .

(١٠) يوجد بالعربية حوالي ثلاثين كتابا تؤرخ لمدينة حلب نذكر منها : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد ـ والدر المنتخب المنسوب لابن الشحنة ـ ونهر الذهب لكامل الغزي ـ وأعلام النبلاء لراغب الطباخ ، وبعض مـن كتب الاستاذ صبحي الصواف ـ وكتاب الدكتور محمد أسعد طلس الآثار التاريخية والاسلامية بحلب .

وهنـاك باللغات الاجنبيـة كتب كثيرة أهمها اثنان : احصاء آثار حلب الاسلامية وهو بالفرنسية ، وكتاب (حلب Alep) وكلاهما للعالم سوفاجيه (Sauvaget) صدر الاول عام ١٩٣١ والثاني عام ١٩٤١ .

(١١) وهي الكتابات التي أتمهـا (كومب) في ملحق الكتـاب بعنوان (اضافات وتصحيحات في نهاية المجلد الثاني من المدونة) .

وهناك كتابات أخرى لم يتمها كومب نفسه ، وبينها الكتابة المنقوشة على جدران مدرسة الفردوس ، التي تعتبر أطول نص أثري سجل على بناء في حلب ، ومن أجمل النصوص الادبية والتاريخية ·

(١٢) كقراءته الآية القرآنية المزخرفة والمسجلة علـى واجهـة القلعة ، الآية : «قل كل يعمل على شاكلته» · قرأها هرزفلد (قل كل نعمة على ساكنها)· مع أنه رسمها بوضوح (ص ٩٤ من المجلد الاول) ·

(١٣) ينظر من أجل تعرف حياته وآثاره : المستشرقون ، لنجيب العقيقي ، جـ ٣ ص ٨٨_٨٨٢ طبع دار المعارف بمصر · والاعلام ، للزركلي ، جـ ٦ ص ١٢٦ _ وقد ولد عام ١٨٦٣ وتوفي عام ١٩٢١ ·

الفصل الثامن

فتح العرب لمصر

للمؤرخ البريطاني الكبير بتلر (١)

- ١ -

أسباب ثلاثة دفعتني لكتابة هذا الفصل عن كتاب خصص لبحث قضية فتح قطر من أقطار العروبة في العقد الثاني والثالث الهجريين ·

أول هذه الاسباب أهمية هذا القطر · انه مصر ، التي تحتل مكانا هاما لا في الوطن العربي فحسب ، بل وفي منطقـة الشرق العربي ، ثم في حوض البحر الابيض المتوسط أيضا · انها نقطة الوسـط بين المشرق والمغرب ، والممر التاريخي من آسيا لافريقيا، ومن افريقيا لآسيا ، فضلا عن أنها موطن من مواطن الحضارات القديمة ، التي أسهمت في تقدم الانسانية ·

ولقد كانت مصر دائما على علاقة متينة بالمشرق العربي من جهة ، وبالمغرب

العربي من جهة أخرى · كان ذلك منذ عهود التاريخ الاولى ، ثم توثقت تلك العلاقات توثقا كبيرا بعد الفتح العربي لها زمن الخليفة العظيم عمر بن الخطاب، ذلك الفتح الذي تم بجيش عربي باسل ، يقوده القائد العربي الشجاع عمرو بن العاص ·

والسبب الثاني أن الفتح العربي لمصر كان أمرا عجبا · ذلك أنه تم بشكل صاعق ، وفي سرعة عجيبة ·

بدأ في العاشر من ذي الحجة عام ١٨ هـ (٦٣٩ م) ، وانتهى في أول المحرم من سنة احدى وعشرين من الهجرة (٦٤١ م) ·(٢) كان عدد جيش الفتح الاول أربعة آلاف فارس « بايعوا أنفسهم على نزع مصر من يد القياصرة · »(٣) ، ثم أنجدهم الخليفة بأربعة آلاف فارس ، ثم بأربعة آلاف آخرين ، وبذلك اكتمل عدد الجيش العربي الذي استطاع أن يفتح مصر في مدة وجيزة ·

ولقد كان فتح العرب لمصر من الحوادث الجسام لا في التاريخ العربي فحسب ، بل في تاريخ الانسانية أيضا ، ذلك أنه ــ بعد أن تم ــ أدخل هذا القطر في دولة العروبة ، ودفعه ليسهم في تاريخنا العربي حضاريا وعسكريا وأدبيا · ثم انه فتح الطريق بعد ذلك أمام جيوش العرب لتمضي لفتح افريقيا والمغرب والاندلس ، وتمد رقعة الدولة العربية العظيمة حتى بحر الظلمات ·

والسبب الثالث أن الكتاب الذي نتحدث عنه هنا كتاب ممتاز ووحيد · فعلى الرغم من كثرة الكتب التي عالجت موضوع (الفتح العربي لمصر) في اللغة العربية ، واللغات الاجنبية ، فانه لم يخصص كتاب واحد يبحثه بحثا علميا منهجيا مفصلا ، ويبين مقدماته وحوادثه ونتائجه ، حتى أوائل هذا القرن العشرين حين صدر في عام ١٩٠٢ ، كتاب الدكتور بتلر (فتح العرب لمصر) ،

فكان أول كتاب يؤرخ لهذا الحدث العظيم تأريخا دقيقا وعلميا ، وبشكل موضوعي ، أثنى عليه جميع الذين قرأوه من العلماء والمؤرخين العرب والغربيين ·

ـ ٢ ـ

ولقد قام بتعريب هذا الكتاب الاستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد ، وطبع بالقاهرة في عام (١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٣ م) في طبعة ممتازة وصل عدد صفحاتها الى ٥٦٠ صفحة ·

وتقع الترجمة في ثلاثة أقسام :

القسم الاول : في ٤٨ صفحة وفيه مقدمتا المعرب والمؤلف ، وقائمة بأهم الحوادث التاريخية ، وثبتان بأهم المصادر العربية والافرنجية ·(٤)

القسم الثاني : وهو نص الكتاب ويقع في ٤٩٦ ص ، موزع على ثلاثين فصلا · وقد مهد المؤلف للفتح بفصول بيّن فيها حالة الدولة البيزنطية ، (٥) ثم أرّخ لحياة الرسول العربي ودعوته وغزواته ، وفتح العرب للشام ·(٦) ثم مضى يفصل القول في الفتح منذ مسير العرب الى مصر في السنة الثامنة عشرة للهجرة (٦٣٩ م) حتى استتب الامر للعرب نهائيا في السنة ٤١ هـ / ٦٦٢ م ، ويتابع ذلك عدة سنوات وينهي الكتاب مع ــ وفاة القائد العربي العظيم عمرو بن العاص يوم الفطر من عام ٤٣ هـ (الموافق لليوم السادس من الشهر الاول من عام ٦٦٤ م) (٧) ·

القسم الثالث : ملاحق سبعة تتصل بالكتاب وتقع في حوالي مائة صفحة،(٨)

ثم تذييل بالالفاظ والعبارات اليونانية التي وردت في الكتاب ، تليها فهارس الاعلام والاماكن والموضوعات ·(٩)

- ٣ -

ويمتاز الكتاب بالميزات التالية :

١ ـ انه كما قلنا ـ أول كتاب علمي يؤرخ للفتح العربي لمصر تأريخا علميا دقيقا ، لم يقصد صاحبه من تأليفه « الا بيان الحقيقة ناصعة ، فلم يكن ممن يذهبون في التأليف الى غرض من دعاية دينية أو سياسية ، ولا ممن يتسترون بالعلم من أجل غرض يخفيه ، أو شهوة يسترها ، بل كان نزيها في بحثه ، قاصدا في قوله الى اللباب · »(١٠) ·

٢ ـ وأنه يستفيد من المصادر العربية واليونانية واللاتينية والارمنية القديمة ، وكذلك الفرنسية والانكليزية الحديثة ··· وهو يقارن هذه المصادر بعضها ببعض ، ليصل الى الحقيقة المجردة ، ولا ينس أن يعرّف بها في أول الكتاب تعريفا مفصلا يبين فيه مزاياها والمآخذ عليها · (١١)

٣ ـ وهو يعالج (الفتح) كحادث مرتبط بالاحداث التاريخية الكبرى فيربطه بما قبله وبما بعده · « فكتابة تاريخ الفتح العربي لمصر يجب ألا يعالج على أنه حادث منقطع العلاقة بسائر حوادث التاريخ ، بل انه حادث لا يظهر خطره ، ولا تتضح حقيقته الا اذا قرن بالاحداث التاريخية الكبرى التي ساقت دولتي الروم والفرس القديمتين الى الاصطدام بالدولة العربية الناشئة· »(١٢)

٤ ـ وقد امتاز المؤلف بروح عادلة ، فتعرض لبعض مفتريات التاريخ

ففندها وردها · وكان الى جانب ذلك ينصر الحق حينما يكون الى جانب القبط ، وينصره كذلك حين يكون الى جانب العرب · فلقد أبرز فضائل الامة العربية التي لم يعكر صفو سيرتها شيء في مدة فتح مصر ، وقد وصف الافراد والمجموع: « لقد أبدى اعجابه بالقائد عمرو بن العاص من جهة، وبروح البساطة والطهارة التي كان عليها العرب اذ ذاك · »(١٣)

٥ ـ والكتاب يؤرخ فتح العرب لمصر ، منذ فكر به ، حتى موت عمرو بن العاص في السنة الثالثة والاربعين بعد الهجرة · فهو كتاب يحصر همه في ميدان محدود يبحث فيه بحثا مستفيضا ، في أكثر من خمسمائة صفحة ، مؤيدة بالمصادر المختلفة ، القديمة والحديثة ، العربية والاجنبية « فكانت نظرة صاحبه من غير جانب واحد ، ولهذا نراه أقرب الى التمحيص ، وأحرى بأن يكون قد أصاب القصد · »(٤)

- ٤ -

ولعل أهم ما في الكتاب ذلك الفصل الذي عقده لمسألة (احراق مكتبة الاسكندرية) · فقد ورد في بعض الكتب العربية المتأخرة أن عمرو بن العاص استشار الخليفة عمر بن الخطاب بما يفعله بكتب مكتبة الاسكندرية ، فأمره باحراقها ، فوزع كتبها على « حمامات الاسكندرية لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر · »(١٥)

في الفصل الخامس والعشرين(١٦) يحسم (بتلر) هذه القضية ، ويناقش المصادر ، ويقارن بينها ، ويعمل العقل ، ويحكم المنطق ، ويصل في النهاية الى النتيجة التالية :(١٧)

« ١ ـ ان قضية احراق العرب لها لم تظهر الا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التي تذكرها ٠

٢ ـ اننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها ، فالفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل ٠

٣ ـ ان الرجل الذي تذكر القصة أنهكان أكبر عامل فيها مات قبل غزوه العرب بزمن طويل ٠

٤ ـ ان القصة قد تشير الى واحدة من مكتبتين : الاولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر ، وان لم تتلف عند ذلككان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب ٠

وأما الثانية وهي مكتبة (السرابيوم) ، فاما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ ، واما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت ، فتكون على أي حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن ٠

٥ ـ ان كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئا عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ٠

٦ ـ ان هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد الصلح مع العرب على تسليم الاسكندرية ، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب ، وقد أبيح ذلك في شرط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والاموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة ، وقدر ذلك أحد عشر شهرا ٠

٧ ـ لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة، لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم ، كان قريب العهد من الفتح مثل (حنا النقيوسي) ، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفا عنه ٠

ولا يمكن أن يبقى شك في الامر بعد ذلك ، فان الادلة قاطعة وهي تبرر الشك في قصة أبي الفرج ، وما ذهب اليه (جبون) من عدم تصديقها ٠

ولا بد لنا أن نقول أن رواية أبي الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ ٠ »

واذا كان (سيد يو) قد شك في خبر احراق العرب مكتبة الاسكندرية ، وكان غوستاف لوبون قد دحض هذه القصة في كتابه (تاريخ حضارة العرب) ، فان (بتلر) هو الذي قضى عليها نهائيا ، وجعلها حقا أقصوصة من أقاصيص الخرافة في هذا الفصل الهام الذي عقده من كتابه عن (مكتبة الاسكندرية) ٠ ان لهذا الفصل أهمية كبرى ، وفيه دليل على عظمة أجدادنا ، دليل يأتي من كاتب يقول : « انه لم يقصد في هذا الامر سوى اثبات الحقيقة ، ولم يقصد الدفاع عن العرب » ٠ (١٩)

الحواشي

---

(١) لم نعثر على عنوان الكتاب الاصلي ولعله : Alfred G. Butler
The Arab Conquest of Egypt, Oxferd, 1902.

وقد كتبت مقدمته في اكسفورد في ٢٢ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٢ ، تنظر الصفحة ٣٨ من المقدمات في الترجمة العربية التي قام بها محمد فريد أبو حديد ، والتي تمت بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة عام ١٢٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م باشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر ٠

(٢) ص ٤٠ من مقدمات الترجمة العربية ، و ص ٢٨٨ من الكتاب نفسه ٠

(٣) ص ١٨٢ من الكتاب ٠

(٤) من ص ١ ، الى ص ٤٨ ، وأرقام المقدمات في أسفل الصفحات ٠

(٥) الفصول من الاول الى العاشر ٠ ومن ص ١ ، الى ص ١٢٢ ٠

(٦) الفصلان الحادي عشر والثاني عشر من ص ١٢٣ ، الى ص ١٤٨ ٠

(٧) ص ٤٢٨ من الكتاب ٠

(٨) من ص ٤٣٠ ، الى ص ٥٢٠ ٠

(٩) من ص ٥٢١ ، الى ص ٥٥٧ ٠

(١٠) ص ١٢ من مقدمة المعرب ٠

(١١) من ص ٢٢ ،الى ص ٣٦ من مقدمة المؤلف ٠

(١٢) ص ٢٢ من مقدمة المؤلف ٠

(١٣) من مقدمة المعرب ص ١٥ ٠

(١٤) من مقدمة المعرب ص ١٥ و ١٦ ٠

(١٥) ص ٣٤٨ و ٣٤٩ ، والجملة منقولة عن أبي الفرج ابن العبري في تاريخه (مختصر الدول) ٠

(١٦) ص ٣٤٨ وما بعد ٠

(١٧) ص ٣٦٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠ ٠

(١٨) في كتابه (تاريخ العرب العام) الذي تحدثنا عنه في فصل سابق ٠ وينظر كتاب بتلر الذي نحن بصدده ص ٣٥٣ ٠

(١٩) الكتاب ـ هامش الصفحة ٣٧٠ ٠

الفصل التاسع

قصة الاسراء والمعراج

وأثرها في الكوميديا الالهية (١)

للمستعرب الاسباني آسين بلاثيوس

ـ ١ ـ

صدر في عام ١٩١٩ ـ في مدريد ، وباللغة الاسبانية ـ كتاب هز العالم الفكري ، وبخاصة في أوربا ٠ « لقد ثار عاصف من العجب والدهشة في الرأي العام الاوربي ، عاصف هز نقاد الادب ٠ »(٢)

كان الكتاب يحمل العنوان الذي أثبتناه في أول هذا البحث ، وقد كتبه المستعرب الاسباني (ميكيل آسين بلاثيوس) ، أستاذ اللغة العربية في جامعة مدريد ، وعضو الاكاديمية الاسبانية ٠

لقد جاء هذا العالم يقرر بعد دراسة واسعة ومتخصصة أمضى فيها خمسا

وعشرين سنة باحثا ومنقبا في التفكير العربي والاسلامي في العصور الوسطى ، جاء يقرر « أن أصولا عربية واسلامية ، قد كونت أسس الكوميديا الالهية ، تلك القصيدة التي طبعت كل الثقافة الاوربية المسيحية في العصور الوسطى » ٠(٢)

وما أن صدر الكتاب ، حتى ثار ذلك العاصف في الرأي العام الاوربي ، وانقسم مؤرخو الادب ، والمعنيون بتاريخ الفكر الانساني تجاه الكتاب ، قسمين: جماعة وقفوا معه يتابعونه وفيهم عدد من المستشرقين نذكر منهم (نلينو وتشيرولي (Nellino, Cerulli)، وجماعة أخرى وقفت ضد المؤلف تحمل عليه وعلى أفكاره ، وتتهمه بالتعصب للتراث العربي ، ولما ترك في الادب الاسباني من آثار ٠

وليس ذلك غريبا نظرا لمكانة دانتي ، الشاعر العظيم ، صاحب (الكوميديا الالهية) ،وللمكانة التي يتربع عليها هذا المؤلف الشعري العظيم ، فهو « المظهر العبقري الكامل لتطور القوى الحيوية التي دبت في الامة الايطالية ، وخلقتها خلقا جديدا »(٣) وهو الكتاب الذي يعد « أروع أثر في أدب أوربا في العصور الوسطى » ٠(٤) يضاف الى ذلك أن كتاب بلاثيوس الذي نحن بصدده قد فتح الباب أمام دراسات جديدة حول دانتي ، وأشعل معركة فكرية استمرت ثلاثين سنة (١٩١٩ـ١٩٤٩) ، فعل الكتاب ذلك بوصفه مؤلفا « لم يظهر مثيل له عن دانتي لسنوات طوال ٠ »(٤)

ـ ٢ ـ

كان ميكيل آسين بلاثيوس « واسطة العقد في مدرسة الدراسات العربية الاسبانية ذات التقاليد الجليلة ٠ »(٥) هذه المدرسة التي أدت رسالتها على

امتداد قرن كامل « في خشوع التقي ، ومناعة الزاهد ، وبهجة العاشق ، وتميزت بحوثها بالجدية والموضوعية ، وقبل ذلك وفوقه بالحنان الدافىء ٠ »(٦)

ولد بلاثيوس في سرقسطة عام (١٨٧١ م) ، وتخرج من معهدها الديني ، وتلقى العربية على (خوليان ريبيرا Julian Ribera)) ، ونال الدكتوراه من جامعة مدريد ١٨٩٦ ، ونشر رسالته عن العقيدة والتصوف لدى الغزالي (١٩٠١) ، وخلف ـ بعد فوزه في امتحان الاستاذية ـ أستاذه كوديرا على كرسي العربية في جامعة مدريد (١٩٠٣) ، وألقى خطاب انضمامه الى مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية في مدريد عن ابن مسرة ومذهبه (١٩١٢) ، والى المجمع اللغوي في مدريد عن المصادر الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي (١٩١٩) ، والى مجمع التاريخ في مدريد عن دراسة الفصل لابن حزم (١٩٢٣)، واحتفل بيوبيله في مدريد (١٩٤١) ، وعين رئيسا للمجمع اللغوي (١٩٤٣)، وحرر مجلة الاندلس(٧) (Al Andalus) التي تصدر عن مدرسة الدراسات العربية مرتين في العام ، وتحظى بتقدير كبير من دوائر الاستشراق والجامعات في العالم لبحوثها الجادة ، ودراساتها العميقة ٠ »(٨)

انتخب عضوا في مجامع علمية عديدة ، منها المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومثل بلاده في معظم مؤتمرات المستشرقين ، ورتب الجذاذات التي كان قد جمعها أستاذه ريبيرا في تراجم العلماء العرب بالاندلس ، والتي بلغت ثلاثين ألفا ٠(٧) وظل الى جانب ذلك يؤدي عمله التدريسي والتربوي في جامعة مدريد الى أن أحيل الى التقاعد عام ١٩٤١ ، فانقطع عن عمله التعليمي رسميا ، وظل يواصل بحوثه ودراساته الى أن توفي في الثاني عشر من آب عام ١٩٤٤ ٠

قضى بلاثيوس في التأليف بين عامي (١٨٩٨ عام أول دراسة كتبها و ١٩٤٤ عام وفاته) حوالي نصف قرن « حرر فيه ٤٢٥ مؤلفا ، بعضها بحوث صغيرة

الحجم ، وبعضها الآخر أجزاء متعددة ، نشر معظمها في حياته ، وقام تلاميذه بنشر القليل منها بعد وفاته » ٠(٩) وأبحاثه هذه تغطي مساحة واسعة في حقل الدراسات الانسانية ، والاندلسية ، وتشمل اللغة والادب والتاريخ ، والتصوف، والادب المقارن ، والفلسفة العربية الاسلامية بجوانبها المتعددة ٠

ـ ٣ ـ

على أن المحور الذي قامت عليه دراسات بلاثيوس هو بيان ما أخذته الحضارة العربية والاسلامية عن الفلسفات الاخرى ، ثم بيان ما أعطيا للفلسفات الاخرى، مما يدخل في نطاق تاريخ الفلسفة المقارن ٠٠٠ وكان بلاثيوس في ذلك ، « موضوعيا بقدر ما تسمح به ظروف رجل دين تخضع كتاباته لموافقة الكنيسة ورقابتها ، في مرحلة لم يكن الفاتيكان قد عرف روح التسامح الديني التي سادته بعد بابوية يوحنا الثالث والعشرين ٠ »(١٠)

بدأ اهتمام بلاثيوس بالفلسفة العربية الاسلامية في وقت مبكر ، وكانت رسالة الدكتوراه التي تقدم بها عام ١٩٠١ عن « الغزالي واتجاهاته الصوفية والفكرية » ، وقد ثابر على هذا الاهتمام طوال حياته وكان الكثير من أبحاثه وكتبه استمرارا لهذا الاهتمام ، وتأكيدا واغناء مستمرين ومتطورين له ٠

ـ ٤ ـ

تقدم آسين بلاثيوس الى المجمع الملكي الاسباني في جلسة ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩ ، ببحث بعنوان (الاصول الاسلامية للكوميديا الالهية) ، ثم نشره في العام نفسه في كتاب أعطاه العنوان الذي بدأنا به هذا البحث ٠ وقد انقسم الناس تجاه الكتاب كما بينا ، وقامت عليه وعلى مؤلفه حملة كبرى ، وبخاصة

من قبل الايطاليين الذين عز عليهم أن يفجعوا بدانتي ، « علمهم الاكبر ومناط فخارهم »(١١) فانبرى للرد عليهم ، وناقشهم مناقشة علمية حينا ، وحادة حينا آخر ، وتدليلا على أفحامه اياهم ، قام بجمع كل ما وجه للكاتب من نقد ، وكل ردوده عليه ، وأعاد طبع الكتاب عام ١٩٤٣ ، ملحقا به النقد ورده عليه كاملين ،(١٢) في طبعة ممتازة نفدت ، مما دفع الناشر الى اعادة طبع الكتاب عام ١٩٦١ طبعة ثالثة نفدت هي الاخرى كذلك ٠(١١)

وعلى الرغم من أهمية الكتاب بالنسبة الينا نحن العرب ، فان الذي يؤسف له أنه لم يترجم الى اللغة العربية ترجمة كاملة حتى الآن ٠ على اننا نملك ـ ولحسن الحظ ـ تلخيصا جيدا ودقيقا لافكاره في كتاب (آنخل كنثالث بالنثيا ـ تاريخ الادب العربي الاسباني) ،(١٣) والمترجم الى اللغة العربية بعنوان (تاريخ الفكر الاندلسي) ،(١٤) وهي الترجمة التي نقدم عنها ملخصا نتقيد فيه تقيدا شبه حرفي بنصها كما وردت في الترجمة العربية ٠(١٥)

ـ ٥ ـ

بعد سنوات طويلة من الجدل والمناقشات على صفحات المجلات والدوريات العلمية في العالم كله ، أتيح للنظرية التي بسطها ودلل على صحتها بالبراهين ميكيل آسين بلاثيوس ـ في كتابه عن (الاصول الاسلامية للكوميديا الالهية) ، الذي نشره لاول مرة عام ١٩١٩ ـ أن تسير في طريقها وتأخذ مكانها من اقرار العلماء ٠ وقد ذهب آسين في هذا الكتاب الى اننا نجد في الادب الاسلامي « مفتاح جانب كبير مما استطاع الناس ـ وما لم يستطيعوا ـ تفسيره من المسائل المتعلقة بالكوميديا الالهية » ، أي أننا نجد في هذه الآداب الاسلامية أصول بعض ما ذهب

الدانتيون الى أنه أخذه عن مفكرين نصارى سابقين عليه في الزمن ، وبعض ما لم يجدوا له أصلا فنسبوه الى عبقرية دانتي وخياله المبدع » ٠

ذهب آسين الى أن الاصل الاسلامي الذي يمكن أن يكون قد أوحى بفكرة « الكوميديا الالهية » هو « اسراء » الله برسوله (ص) الى المسجد الاقصى و « عروجه » الى السماء ٠ وقد صاغت أخيلة المسلمين أساطير(١٦) كثيرة حولهما ذاعت بين جماهيرهم ذيوعا واسعا ابتداء من القرن التاسع الميلادي على الاقل ، ثم زاد عليها أهل الدين والتصوف والادب من المسلمين ، وأضفوا عليها ثوبا شاعريا فيما تلا ذلك من العصور ٠ ونحن نجد في هذه الاساطير أن بطل القصة محمدا (ص) ـ أو شخصا آخر عاديا ـ يحكي بنفسه قصة صعوده كما فعل دانتي في قصته الشعرية ، فيقص بلفظه ما وقع له وما شهد أثناءها ٠ وكلتا الرحلتين ـ الكوميديا الالهية والاسراء ـ تبدآن ليلا في أعقاب حلم عميق ٠٠٠ ونحن نجد في أساطير المعراج الاسلامية ذئبا وأسدا يقطعان طريق الخروج من النار على المسرى به الى السماء ، ويقابل ذلك ما يحكيه دانتي من أنه وجد فهدة وذئبا على مخرج جهنم تحول بينه وبين الدخول ٠٠٠ ويذكر دانتي أن « السماء » أمرت فرجيل بأن يعرض على دانتي أن يكون دليله ، وفي « المعراج » الاسلامي يقود جبريل محمدا في رحلته ٠(١٧)

وصور العذاب متشابهة في جحيم دانتي ، وفي جهنم التي يصفها القصاص في أساطير المعراج الاسلامية ٠٠٠ فأكلة الربا ـ في جحيم دانتي ـ يحاولون عبثا أن يصلوا سباحة الى شاطىء بحيرة من الدم ، اذ يذودهم عنها حراس جهنميون يدفعونهم الى الغوص من جديد٠(١٨) وكذلك نجد في الجحيم الاسلامي الطواغيت وأكلة أموال اليتامى والمرابين ٠٠٠ أما العطش المجهد الذي يعانيه المزيفون في

الطبقة العاشرة من الحلقة الثامنة من جحيم دانتي في الكوميديا الالهية ، فهو عذاب شاربي الخمر في الاسطورة الاسلامية ٠(١٩)

أما صورة الصفاء الروحي التي يمتاز بها فردوس دانتي ، فنلقاها في بعض صور الاسطورة الاسلامية : فان الاحاديث المنسوبة الى الرسول (ص) ، وأناشيد كتاب الفردوس من قصة دانتي لا تستعمل في أوصاف دار النعيم الا عناصر ثلاثة ، هي : الالوان والاضواء والموسيقى ، وهي تستعملها في تصوير المقام المثالي ،(٢٠) غير العادي الذي تمتاز به الحياة المباركة ٠ وكلما انتقل محمد (ص) في الاسطورة الاسلامية ـ ودانتي في قصيدته ـ من طبقة الى طبقة ، يزداد الضياء شيئا فشيئا ، حتى يعشى بصريهما ويحسبان أنهما فقدا البصر ، ويرفعان أيديهما الى أعينهما بحركة غريزية ليقيا أعينهما من النور الساطع ، فيعمد جبريل في الاسطورة الاسلامية ـ وبياتريس في القصة الدانتية ـ الى التخفيف عنهما وبعث الطمأنينة في قلبيهما ، ويسألان الله لهما مزيدا من البصر حتى يستطيعا تأمل الضياء الساطع ، فيهبهما الله مزيدا من النور ٠ فيتمكنان من الابصار ، ولكنهما لا يستطيعان وصف ما يريان ٠ (٢١)

وكلاهما يصعد الى السماء طائرا يحمله دليله في سرعة مارقة كأنهما سريان الريح أو مروق السهم ، والدليل في كلتا الحالتين يرشد الزائر ويطمئنه ويجيبه عما يتطلع الى معرفته ، ويعلمه ويرجو له الله ويطلب اليه أن يحمد الله ٠(٢٢)

وعندما تبلغ بياتريس بدانتي الدرجات العليا من صعودها ، نرى القديس برناردو يحل محلها ، وكذلك يترك جبريل محمدا عندما يقارب العرش فيهبط اليه رفرف من نور يصعد به ٠

ولا يتوافق الصعودان ـ الدانتي والاسلامي ـ في الخطوط العامة فحسب ،

بل هناك حلقات ذات صور ملموسة يتفق الاثنان فيها : فالنسر الضخم الذي رآه دانتي في سماء جوبيتر ، وقال انه يتكون من حشد ضخم من الملائكة لهم أجنحة ووجوه فحسب ، يشع منها نور باهر ، وهي تخفق بأجنحتها مرتلة أنغام الترتيلات الانجيلية ، ثم يسكن النسر رويدا رويدا ، ويحط ، كل هذا(٢٣) ما هو الا تضمين لصورة الملاك المارد الذي رآه محمد (ص) يتحول الى ديك يخفق بجناحيه ، ويغني ترتيلات دينية ، ثم يحط بعد قليل مع ملائكة تبدو له وكأن كلا منها مجموع لا حصر له من الوجوه والاجنحة ، ينبعث منها النور ، وتتغنى في لغاتها التي لا حصر لها ٠(٢٤)

وكلا الدليلين اذا وصل بزائره الى سماوات النجوم دعاه الى تأمل الكون المخلوق وصغره ، وصفة المشهد الالهي في كلا الحالتين واحدة ، فالله مركز أو نقطة من النور الباهر تحيط به تسع دوائر ذات مركز واحد ، وتتألق هذه الدوائر من الملائك محشودين بعضهم الى جانب بعض في صفوف تنبعث منها أشعة من النور ، وأقرب هذه الصفوف الدائرية من الملائكة الكروبيين ، وكل صف يحف بالذي يليه ، والصفوف كلها تدور حول مطلع الضياء الالهي ، والزائر يتأمل هذا المشهد الاروع ، مرة عندما ينتهي من صعوده ،(٢٥) ، ومرة عندما يمثل بين يدي العرش ٠ والصور التي تتمثل في نفس كليهما أثناء الرؤية المباركة واحدة : يظل كلاهما واجما مشدوه البصر غارقا في بحر النور الالهي ، حتى ليظن أنه فقد البصر ، ولكن بصره لا يلبث أن يتبين ما يرى ويحدده ، وينتهي بأن يستقر في مطلع النور ويثبت عينيه فيه متأملا ، ويشعر أنه عاجز عن أن يصف ما يرى ، وكل ما يذكره هو أنه أحس اشراقاً روحيا ، أو ظن أنه كان مستوسنا ، ويسبق ذلك كله شعور بلذة كبرى ٠ (٢٦)

بل ان الروح العام لقصة دانتي ليس جديدا ، ولم تبتدع « الكوميديا الالهية » المعنى الرمزي الاخلاقي الذي تمتاز به ابتداعا ، فقد سبقها اليه

الصوفيون العرب المسلمون وخاصة ابن عربي المرسي ، اذ أنهم اتخذوا من رحلة محمد (ص) الى العالم الآخر ، وعروجه الى السماء رمزا على نشوء الارواح عن طريق الايمان والفضائل اللاهوتية ٠ وكل من دانتي وابن عربي يجعل هذه الرحلة رمزا لحياة البشر ، ويريان أن الهدف الاخير للحياة والسعادة الكبرى في الوجود انما هي في رؤية الله ، ولا تتأتى هذه الرؤية بغير هدى من اللاهوت ، اذ أن العقل العادي يصل بالانسان الى « المراحل الاولى من هذا الطريق الطويل ٠ وهذه المراحل ما هي الا رمز على الفضائل العقلية والاخلاقية، فأما الوصول الى مدارج الجنة العليا ، التي هي رمز الفضائل اللاهوتية ، فلا يدرك بغير اشراق الهي » ٠

وهكذا تجمع القصتان بين خاصتين تبدوان وكأنهما متناقضتين في الظاهر : هما الرمز المثالي من ناحية ، والواقعية الانسانية في صميمها من ناحية أخرى ٠

ثم يقول آسين : « ان قدرا عظيما من المعالم المكانية وتفاصيلها والمشاهد وأوصاف بعض حلقات (الكوميديا الالهية) لا نجد له شبها ظاهرا في شتى الروايات التي وصلتنا عن قصة (المعراج المحمدي) ، ولكننا نجد سوابقها ونماذج مماثلة لها في بعض الاحيان في أصول أخرى من الادب ٠ ونحن نجد هذه النماذج مشابهة لبعض تفاصيل القصة الدانتية حينا ، ومطابقة لها حينا آخر ، نجدها إما في تفسير الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تصف الحياة الاخرى ، أو في الاساطير التي نسجها خيال المسلمين عن يوم الحساب ، وقد نجدها في مذاهب اللاهوتيين والفلاسفة والصوفية بصورة خاصة ، فقد اجتهد أولئك جميعا في ترتيب(٢٧) هذه النصوص القرآنية والنبوية وتفسيرها وتعليلها ٠ »

ويطيل الاستاذ آسين الوقوف عند الصوفي المرسي محي الدين بن عربي (٥٥٩ ـ ٦٣٧ هـ ـ ١١٦٤ ـ ١٢٤٠ م) دون غيره من أهل الفكر الاسلامي ، ويذهب الى أنه من الممكن أن نجد عنده الاصول التي قبس دانتي منها هيئة

(جحيمه) ورتبه على مثالها • واننا لنجد كلا الرجلين ـ دانتي وابن عربي ـ بميلان الى استخدام الهيئة ، أو صورة قبة الفلك : فأطباق الجحيم ، ومساري النجوم ، ودوائر الوردة الصوفية ، وجماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الالهي ، والدوائر الثلاث التي ترمز الى الثالث (عند دانتي) ، كل هذه وصفها الشاعر الفلورنسي كما وصفها الصوفي المرسي • بل ان ابن عربي رسم هـذه الدوائر بيده • وانه لمما يدعو الى العجب ان الرسوم التي خطها الدانتيون بعد قرون كثيرة ليمثلوا بها أوصاف (الكوميديا الالهية) تتفق تمام الاتفاق مع ما أودعه ابن عربي في (فتوحاته) من رسوم •

وتوافق هذه الرسوم يقوم دليلا على وجود علاقة بين الاصل وما نقل عنه ، وانه لمن المستحيل ـ عقلا ـ أن يكون هذا التوافق قد وقع عن طريق المصادفة العارضة • ويقول آسين متعجبا : « ••• ثم ان المصادفة العارضة ليست تعليلا علميا للوقائع التاريخية • والواقعة التاريخية التي تتجلى لكل ذي نظر هي : أن محي الدين بن عربي سـجل في القرن الثالث عشر ، وقبل ميلاد الشاعر الفلورنسي بخمس وعشرين سنة ، في صفحات أربع متوالية من (فتوحاته) تخطيطات مواضع العالم الآخر كلها على شكل دائري أو فلكي ، وهذه الهيئات الدائرية تعتبر في مذهب ابن مسرة ـ الذي يتبعه ابن عربي ـ تصويرا للكون وأصله ، ثم أتى دانتي بعد ذلك بثمانين سنة ، فأودع في منظومة ضخمة رائعة تقع في ثلاثة أقسام وصفا شاعريا لنفس هذه المواقع من العالم الآخر • وقد بلغ من دقة وصف هذه المعالم في شعر دانتي ، أن شارحيه في القرن العشرين تمكنوا من تمثيلها برسوم على هيئة أشكال(٢٨) ، هندسية ، مطابقة في صميمها لتلك التي خطتها يد الصوفي المرسي قبل ذلك بسبعة قرون ، فاذا لم يكن دانتي قد قلد هذه الاخيرة ، فان هذا التطابق الذي قام الدليل عليه ، لا يكون الا لغزا لا تفسير له أو معجزة من معجزات الاصالة • »

ويشير آسين الى مواضع شبه أخرى بين المواقع التي تحدث عنها دانتي، وتلك التي وصفها ابن عربي ، ومثال ذلك (الاعراف) فقد أخـذ عنها دانتي فكرة (الليمبو) و (جهنم) بوصفها الاسلامي المعروف هي (الانفرنو Inferno = الجحيم) عند دانتي • و (الصراط) الاسلامي هو الاصل الذي أخذ عنه دانتي (البرغاتوريو Purgatorio = المطهر) الذي نجـده في الكوميديا الالهية • والجنات الثمان ذات الهيئة الدائرية التي تضم (شجرة طوبى) أو (الشجرة المؤنسة) والتي يحدثنا عنها ابن عربي ، هي النموذج الذي احتذاه دانتي في تصوير(٢٩) ما يسميـه شراحه (الوردة الصوفية) أو (الوردة الدانتية) ، وهي الجنة السماوية عند هذا الشاعر الايطالي الكبير •

وكلا القصصين الاسلامي والدانتي يصف بيت المقدس بأنه المحور الذي يدور حوله العالم العلوي كله ••• وكلا القصصين يجعل جهنم تحت موقع بيت المقدس ••• وفوق موقع بيت المقدس في العلا تماما توجد (سماء الالوهية) ، (مقام رب العرش) • وفي الجنة من (المنازل) بقـدر ما في النار من أساطير المعراج الاسلامية وعند دانتي •(٣٠)

ويعين آسين وجوه تشابه أخرى ، سواء في حلقات القصـة أو مشاهدها ، ويصل هذا التشابه في بعض الاحيان الى التطابق الحرفي • وأبين ما يبدو لنا من أوجه هذا التشابه هي « أن صفوف أهل (الليمبو) ـ في القصيدة الدانتية ـ والعذاب الذي يصيب كل فريق منهم، يشبه عذاب من يقابلهم من أهل (الاعراف) في الاساطير الاسلامية • »(٣١)

ثم اننا نجد دانتي يتطهر مرتين في أنهار الجنة الارضية ثم يلقى بياتريس بعد ذلك ، وهذه ظاهرة ليست مسيحية أصلا ، ولكنها تطابق ـ جملة وتفصيلا ـ ما تحكيه القصص الاسلامية من تطهر الارواح ووضوء الناس ، بعد خلاصهم من

عذاب النار ، وقبل دخولهم الجنة في عين ماء بارد(٣٢) ٠ وأخيرا ، نجد ذلك ينطبق على الصورة الروحية التي يصور بها دانتي المشاهدة الالهية،فهو يمثلها على هيئة شعاع الهي يفيض منه نور باهر وصفاء ذهني ومتعة اشراقية ٠ وذلك يشبه قول ابن عربي في (الفتوحات : « ان الله يتجلى لعباده في النور العام » ٠(٣٣)

— ٦ —

هذا الحشد الحافل من الافكار والتخيلات والرموز والاوصاف في القصصين يدل بوضوح على أن دانتي نظر الى الاصول الاسلامية وحاكاها ٠ ولكن ، هل أتيح لدانتي سبيل الاطلاع على ما كتبه العرب المسلمون عن قيام الساعة وما يتلوه ؟

وجوابا على هذا السؤال نقول : ان مسلمي الاندلس تداولوا فيما بينهم — منذ أول أيامهم في هذا البلد — أساطير دينية عما بعد الموت ، بل كان المستعربون الاندلسيون ، ومن بينهم (القديس يولوج القرطبي) (٣٤) يعرفون سيرة لمحمد (ص) تختلط فيها الحقائق بالاخبار الموضوعة ، ونحن نجد أطرافا من هذه السيرة في كتاب يولوج المسمى (مديح الشهداء) ٠ وقد استعمل الاسقف الذريق الطليطلي (١١٧٠ — ١٢٤٧) في كتابه المسمى (تاريخ العرب) أصولا عربية ، وأورد في هذا التاريخ ذكر (المعراج) وعنه أخذه ألفونسو العالم وأدخله في (تاريخه العام La Cronica General de Espana) الذي كتب بين سنتي ١٢٦٠ و ١٢٦٨ ، وبعد سنوات قلائل نجده مذكورا في كتاب ألفه أسقف جيَّان القديس بدرو بسكوال ٠

وليس من العسير أن تكون هذه الاسطورة في اسبانيا قد انتقلت الى ايطاليا

وعرفها دانتي الذي فرغ من كتابه (الجحيم) عام ١٣٠٦ ٠ ومن الواضح أننا لا نستطيع اليوم تعرف الطريق الذي وصلت هذه الاسطورة به الى دانتي : لقد ذهب آسين الى أنه من الممكن أن يكون ذلك قد تم على يد (برونيتو لاتيني Brunetto Latini) أستاذ دانتي ، اذ أن برونيتو هذا زار اسبانيا، ومن الطبيعي أن يكون ذهنه المثقف وعقله الطلعة الظامىء الى المعرفة قد اجتذبه بلاط طليطلة الذي عليه الطابع العربي وما حاطه من بهاء٠لقد اتصل برنيتو بالفعل بمترجمي مدرسة طليطلة ، وقامت بينه وبينهم العلاقات ، وخالط كذلك أساتذة مدرسة اشبيلية ما بين مسلمين ونصارى ، الذين كانوا عاكفين على أعمالهم العلمية ، ومن بينها ترجمة (تاريخ العرب Historia Arabum) للذريق الطليطلي ٠

ومن ناحية أخرى كان ذهن دانتي — كما يبدو من مؤلفاته — منفتحا متقبلا لشتى التأثيرات العلمية والادبية ، وهذا أمر يقرره الدانتيون ٠ ولا يخطر على البال أن يكون دانتي قد استبعد الثقافة الاسلامية من محيط تطلعه الواسع ، مع ما كانت(٣٥) عليه هذه الثقافة من الانتشار والذيوع في أوربا في القرن الثالث عشر ٠ واننا لنجد نفرا من علماء العرب المسلمين — ما بين فلكيين وفلاسفة ، كالبطروجي والفارابي والغزالي وابن رشد — مذكورين في مؤلفين من آثار دانتي هما (Conmita ، والحياة الجديدة Vita Nouva) ٠ ولا يمكننا أن نعلل ما أبداه دانتي من رأي جميل في صلاح الدين وابن رشد ، — وهو رأي ينكره اللاهوت — الكاثوليكي — ووضعه اياهما على جبل الليمبو (الاعراف) على الرغم من أنهما ماتا على غير الكاثوليكية ٠٠٠ لا يمكننا تعليل ذلك الا بعطف ظاهر وميل الى ما هو اسلامي ، وهذا الميل الدانتي نحو علوم المسلمين — وخاصة نحو ابن رشد — وهو الذي يفسر وضعه لسيجر البرابانتي في الفردوس ، وكان سيجر كما نعلم استاذا بجامعة باريس ، وقد صبت عليه الكنيسة اللعنة وطردته من رحابها في سنة ١٢٦٦ ، اذ اعتبر زنديقا

رشديا ٠ وقد مات سيجر سنة ١٢٨٤ ، ولم يرض دانتي له موضعا الا مقام أهل الدين ، فوضعه الى جانب القديس توما الاكويني في (الفردوس) (٣٦) ٠

— ٧ —

قدمت في الفقرة السابقة من هذا البحث ملخصا لافكار آسين بلاثيوس ، كما عرضها المستشرق بالانثيا في كتابه (تاريخ الادب العربي الاندلسي) ، وهو ملخص شبه واف ، لان الكثير من الاستشهادات والمقارنات قد أغفلت نظرا لضيق المجال ، ولصعوبة فهم الامثلة التي ضربت باللغة الايطالية ٠ ثم قدمت في الفقرة السادسة التعليق الذي كتبه بالانثيا على أفكار بلاثيوس سنة ١٩٢٨ ، والذي أعاده كما هو في سنة ١٩٤٥ ، وهو تعليق لم يستطع أن يؤكد وجود الصلة بين دانتي ، ومصادر الثقافة العربية ٠

وظل الامر على هذا الشكل حتى عام ١٩٤٩ ، حين ظهر كشف جديد قيلت فيه الكلمة النهائية القاطعة ٠ لقد عثر الباحث (خوسيه مونيوث سندينو) « على المخطوطات الثلاث القشتالية واللاتينية والفرنسية لترجمة قصة المعراج العربية الاسلامية ، وهي القصة التي كان الملك ألفونسو قد أمر بترجمتها الى هذه اللغات عن الاصل العربي »(٣٧) ٠

نشر سندينو الترجمتين الفرنسية واللاتينية كاملتين ، أما القشتالية فقد ضاعت ، ولكن ملخصا لها وجد في مكتبة الاسكوريال ، فاستعاض به عن الاصل المفقود ٠ نشرت هذه الترجمات الثلاث في مدريد في كتاب بعنوان (معراج محمد الترجمة العربية الى القشتالية واللاتينية والفرنسية التي أمر بها ألفونسو العاشر الحكيم) ٠ (٣٨)

كما اكتشف الباحث الايطالي انريكو تشيروللي Enrico cerulle ، أن ثمة كتابا عربيا يحوي قصة المعراج ، كان الملك ألفونسو العاشر قد أمر شخصا يدعى ابراهيم الحكيم بترجمته من العربية الى اللغة القشتالية ، وأن (بون أفنتو رادي سيينا) وكان كاتبا في بلاطه — قد نقله عن هذه الترجمة القشتالية الى اللغتين اللاتينية والفرنسية ٠ وقد وجد انريكو ثلاث مخطوطات لهذه الترجمة واحدة في مكتبة بودلي باكسفورد ، والثانية في المكتبة الاهلية بباريس ، والثالثة وهي مبتورة الآخر ، في الفاتيكان ٠(٣٩)

نشر تشيروللي — الباحث الدانتي الايطالي — الترجمات الثلاث هذه ، مع ترجمة لها للايطالية في كتاب بعنوان (كتاب المعراج ومسألة الاصول العربية للكوميديا الالهية) (٤٠) وأضاف الى ذلك شواهد دالة على أن هذه الترجمة كانت رائجة في الآداب الاوربية حتى القرن الخامس عشر ٠(٣٩)

كان كل من سندينو وتشيروللي يقوم بأبحاثه مستقلا عن الآخر ، وقد نشر كل منهما كتابه في عام ١٩٤٩ ، بعد أن كان قد مضى خمسة أعوام على وفاة ميكيل آسين بلاثيوس ، وأصبح بذلك امام الباحثين دليل مادي لا يدحض على « أن دانتي قد تمكن بالفعل من الاطلاع على احدى الترجمتين اللاتينية أو الفرنسية لقصة المعراج ، وهو دليل لم يكن بوسع آسين بلاثيوس أن يقدمه حينما نشر نظريته الثورية التي كانت تقوم على ما يشبه الالهام والتنبؤ ، وان كان قد ساق في الدفاع عنها براهين نظرية مقنعة »(٣٧)

وقد أوجز المستشرق الايطالي (ليفي ديلافيدا) الاتجاه الجديد في البحث حول هذه الناحية بقوله معلقا على كتابي مونيوث سندينو وتشيروللي : « اليوم لم يعد هناك مجال لاي شك في هذه الحقيقة : وهي أن كتاب المعراج الذي كان بوسع العالم اللاتيني الاطلاع عليه بلغتين أوربيتين — ان لم يكن بثلاث — ماكان

ليبقى بعيدا عن متناول دانتي ، والا كان أمرا خارجا عـن المنطق والمعقول ٠ وهكذا يتأكد لنا اليوم أن نظرية آسين بلاثيوس قد أصبحت فوق مستوى النقاش٠ ان القضية لم تعد قضية امكان اطلاع دانتي على المصادر العربية ، وانما هي قضية حقيقية ينبغي التسليم بها ٠ »(٤١)

ـ ٨ ـ

اجتمعت في كتاب ميكيل آسين بلاثيوس عن (المصادر العربيـة الاسلامية للكوميديا الالهية لدانتي) أربع مزايا :

الاولى : الدراسة العميقة للفكرين العربي الاسلامي والاوروبي المسيحي ٠

الثانية : المنهج العلمي البديع ، الذي سلكه آسين بلاثيوس لكي يصل الى اثبات نظريته التي تعتبر من أهم الكشوف العلمية في تاريخ الاستشراق ٠(٤٢)

الثالثة : التجرد والموضوعية اللذان استطاع المؤلف الاسباني الكبير بوساطتهما أن يصل الى ما وصل اليه من نتائج ٠

الرابعة : اضافة مجد الى حضارتنا العربية ، التي تركت آثارها في (الكوميديا الالهية) أهم أثر أنتجته أوربا في مطلع عصر نهضتها الحديثة ٠

الحواشي :

---

(١) عنوان الكتاب الاصلي بالاسبانية : Miguel Asin Palacios
La Escatologia Musulmana en La Comédia Divivana, Madrid, 1919

وطبع طبعة ثانية عام ١٩٤٣ ، وكان قد ترجم الى الانكليزية مع بعض الاختصار عام ١٩٢٦ ، والى الفرنسية ترجمة كاملة عام ١٩٢٨ ثم ترجم الى الانكليزية ترجمة كاملة وطبع عام ١٩٦٢ ٠ وأعيد طبعه عام ١٩٨٦ ٠

(٢) الجملة لدوق آلبا ، من مقدمته للترجمة الانكليزية لكتاب آسين بلاثيوس ، موضوع هذا البحث ٠

(٣) من مقدمة الاستاذ طه فوزي في مقدمة الترجمة العربية للكوميديا الالهية ٠

(٤) بنت الشاطىء ، الغفران ، ص ٣٢٧ ٠

(٥) عدد يناير (كانون الثاني) عام ١٩٧٦ من مجلة الهلال ص ٤١ من مقال عن بلاثيوس كتبه الدكتور الطاهر أحمد مكي ٠

(٦) الدكتور الطاهر أحمد مكي ، المقال المنوه عنه في الحاشية السابقة ٠

(٧) نجيب العقيقي ، المستشرقون ج ٢ ص ٥٩٥ ٠

(٨) الدكتور الطاهر أحمد مكي ، مقال مجلة الهلال المنوه عنه سابقا ص ٤٣ ٠

(٩) الدكتور مكي ، المقال السابق ص ٤٣ ٠

وخير تعريف بترجمة بلاثيوس وآثاره ٠ يوجد في (الاندلس ج ٩ ص ٢٦٧ ـ ٣١٩ عام ١٩٤٤) ٠

وهناك ثبت بأهمية آثاره في (المستشرقون) ج ٢ ص ٥٩٥ و ٥٩٦ و ٥٩٧ ٠

(١٠) المصدر السابق ص ٤٤ ٠

(١١) المصدر السابق ص ٤٧ ٠

(١٢) أضاف آسين بلاثيوس الى العنوان السابق ما يلي :

الطبعة الثانية وفيها تاريخ النقد الذي وجه للكتاب

2 = ed. Madrid, 1943, en ella, Historia eritiea de polomiea.

(١٣) عنوان الكتاب الهام هذا ـ وسنعرف به في فصل قادم :

Angel Gonyàley Palancia Historia de la literatura Arabico - Espanola

آنخل كنثالث بالنثيا تاريخ الادب العربي الاسباني

وقد طبع عام ١٩٢٨ أولا ، ثم أعيد طبعه عام ١٩٤٥ ·

(١٤) ترجمه الدكتور حسين مؤنس ترجمة ممتازة ، بتكليف من الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية · طبع مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة عام ١٩٥٥ ·

(١٥) ملخص كتاب آسين بلاثيوس ، بعنوان (دانتي والاسلام) ، وهو ملخص واف في (٢٣ ص) من ص ٥٥١ ، الى ص ٥٧٣ من الترجمة العربية ·

(١٦) ص ٥٥١ من الترجمة العربية ·

(١٧) ص ٥٥٢ من الترجمة العربية ·

(١٨) ص ٥٥٣ من الترجمة العربية ·

(١٩) ص ٥٥٤ من الترجمة العربية ·

(٢٠) ص ٥٥٥ من الترجمة العربية ·

(٢١) ص ٥٥٦ من الترجمة العربية ·

(٢٢) ص ٥٥٧ من الترجمة العربية ·

(٢٣) ص ٥٥٨ من الترجمة العربية ·

(٢٤) ص ٥٥٩ من الترجمة العربية ·

(٢٥) ص ٥٦٠ من الترجمة العربية ·

(٢٦) ص ٥٦١ من الترجمة العربية ·

(٢٧) ص ٥٦٤ من الترجمة العربية ·

(٢٨) ص ٥٦٥ من الترجمة العربية ·

(٢٩) ص ٥٦٦ من الترجمة العربية ·

(٣٠) ص ٥٦٧ من الترجمة العربية ·

(٣١) ص ٥٦٨ من الترجمة العربية ·

(٣٢) ص ٥٦٩ من الترجمة العربية ·

(٣٣) ص ٥٧٠ من الترجمة العربية ·

(٣٤) ص ٥٧١ من الترجمة العربية ·

(٣٥) ص ٥٧٢ من الترجمة العربية ·

(٣٦) ص ٥٧٣ من الترجمة العربية ·

(٣٧) الدكتور محمود علي مكي ، في بحثه عن الادب ، في كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ص ١١٧ ·

(٣٨) العنوان بالاسبانية كما يلي : La Escalo de Mahama

Tradu ccion del àrabe al castellena, latin francés, ordenada par Alfonso x Elsabia . Edicion, par José Munos Sendina, Madrid, 1949.

(٣٩) دكتور الطاهر أحمد مكي ، من مقاله المنوه عنه سابقا في مجلة الهلال عدد ك ٢ ، ١٩٧٦ ص ٤٨ ·

(٤٠) عنوان الكتاب بالايطالية : Enrico Cerulli

Il libra della Seala ef la Qnestiove della

Fonti Araba Espagnale Dvina Comédia eita del Vaticano, 1949.

(٤١) نقلا عن بحث الدكتور محمود علي مكي المشار اليه في الفقرة ٣٧ ، ص ١١٨ ·

(٤٢) الدكتور حسين مؤنس ، من تعليق له في ترجمته لكتاب الفكر الاندلسي ، الحاشية في أسفل الصفحة ٥٥١ ·

* * *

الفصل العاشر

كتابا المستعرب فارمر عن تاريخ الموسيقى العربية ومصادرها

ـ ١ ـ

كنت أعرف أن تراثنا في ميدان الموسيقى جيد وعريق ، ولكنني لم أكن أعلم أن أجدادنا العرب قد خلَّفوا مثل هذا التراث الواسع ، والقيِّم القيم ، حتى أتيح لي أن أقرأ منذ شهرين كتابي المستعرب البريطاني (هنري جورج فارمر H. G. Farmer)(تاريخ الموسيقى العربيـة ـ ومصادر الموسـيقى العربية) • لقد أدهشاني بقائمة الكتب والرسائل التي درست الموسيقى أو بحثتها ، وبكثرة الموسيقيين والمغنين والمغنيات العرب ، وبوفرة الابحاث النظرية التي عالجت هذا الفن الانساني السامي •

ـ ٢ ـ

أما (مصادر الموسيقى العربية)(١) « فثمرة دراسات طويلة وجدية قضاها

المؤلف باحثا عن كل ما يتصل بهذا الفن الذي يعني به »(٢) انه ثبت كامل للكتب والرسائل التي ألفها العرب عن الموسيقى ، وقد بحث عن مواده في فهارس المكتبات المختلفة ، ومتون الكتب الموسيقية والادبية ، وذكر ما وجده منسوبا الى كاتبه ان كان قد وصل الى علمه ، وأشار الى ضياع ما ضاع منها ، والمصدر الذي ذكره ٠ أما ما لا يزال موجودا ، فقد ذكر المواضع التي يوجد فيها ، وهل طبع أو لم يطبع ، وسني طبعه أو نسخه ، وترجماته الى اللغات غير العربية ان كان قد ترجم ، وقيمة كل ذلك » ٠(٢)

انه باختصار يضم « المكتبة الموسيقية العربية » مفهرسة ومرتبة تاريخيا ومجموعة في كتاب يقع في مائة وخمسين صفحة ونيف ، مع فهارس أبجدية للمؤلفين والمترجمين والموضوعات في خمسين صفحة أخرى ، وست لوحات تصور آلات موسيقية قديمة ٠

ـ ٣ ـ

مهد المؤلف لكتابه بمقدمة تقع في خمس عشرة صفحة بين فيها الحاجة لمثل هذا الكتاب ، وجهود من سبقوه في ميدانه ، والجهود التي بذلها هو نفسه ، وبين عمله فيه : لقد رتب الكتاب وقسمه فصولا حسب سني وفاة المؤلفين ، بالتقويم الميلادي ،(٣) ذاكرا أن « علم الموسقى العربية قد ضم اضافات جديدة الى معارفنا عن الموسيقى الاغريقية القديمة »(٤) ، ثم تحدث عن أهمية الموسيقى العربية أنها « تحتل موضعا بين الفن البيزنطي ، وفن عصر النهضة الحديثة في أوربا الغربية ، ونلمح في هذا الفن العربي التطور المنطقي للتشابه الصوتي (Homophony) عند الشعوب السامية القديمة ، والاغريق والبيزنطيين ٠ »(٥)

ـ ٤ ـ

ثم قسّم تاريخ الموسيقى العربية الى أربعة مذاهب هي : ١ ـ المدرسة

العربية القديمة ٠ ٢ ـ شراح الفلسفة الاغريقية ٠ ٣ ـ المدرسة المنهجية ٠ ٤ ـ المدرسة الحديثة وقد بين أن كتابه لن يتناول غير المدارس الثلاث الاولى وهو ينتهي به الى عام ١٧٠٠ م ٠

ثم تحدث بالتفصيل عن هذه المدارس الثلاثة : فابن مسجح وابن محرز (المتوفيان في عام ٧١٥ م) هما اللذان أوجدا علم الموسيقى العربية التي تمثلت في المدرسة القديمة التي بقيت مقبولة بين المشتغلين بالموسيقى حتى القرن العاشر ٠

ثم عرف العرب كتابات الاغريق عن الموسيقى عن طريق ترجمة النصوص الاغريقية التي بدأت في الظهور في منتصف القرن التاسع ، والتي كان الكندي أول المتأثرين بها ٠(٦)

أما المدرسة المنهجية فقد أنشأها ونشر مذهبها صفي الدين عبد المؤمن « المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م »(٧) ٠

ـ ٥ ـ

وبعد الانتهاء من المقدمة أخذ يورد أسماء المؤلفات الموسيقية التي كان أولها كتاب في الاغاني ليونس بن سليمان الكاتب المتوفى سنة ١٤٨ هـ ٧٦٥ م(٨) مرتبة بحسب القرون :

في القرن الثاني الهجري ـ الثامن الميلادي ٨ كتب ٠

في القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي ١٢٠ كتابا ٠

في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ١٩ كتابا ٠

في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ١٠ كتب ·

في القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي ١١ كتابا ·

في القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي ١٦ كتابا ·

في القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي ٣٣ كتابا ·

في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي ٢٣ كتابا ·

في القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ١٢ كتابا ·

في القرن الحادي عشر الهجري ـ السابع عشر الميلادي ١٦ كتابا ·

وهناك ثمانية كتب لم يستطع المؤلف أن يتيقن من تاريخ تأليفها ·

وبذلك بلغ عدد الكتب والرسائل التي عالجت الموسيقى العربية (٢٩٨) رسالة وكتابا ·

لم يكن كتاب (مصادر الموسيقى العربية) هو الكتاب الاول لفارمر في هذا الفن فلقد سبق أن ألف حوالي عشرين بحثا وكتابا في الموسيقى العربية كما كتب مقالة (الموسيقى) في دائرة معارف الاسلام · (٩)

على أن أهم كتبه في رأيي كتابه « تاريخ الموسيقى العربية »(١٠) الذي أصدره عام ١٩٢٥ ، والذي ترجمه الدكتور حسين نصار الى اللغة العربية·(١١)

وهو يقع في ترجمته العربية في ثلاثمائة صفحة ونيف ، ويتألف من تصدير ومقدمة وسبعة فصول ، مع ثبت واسع بالمراجع وفهارس مفصلة ·

يعرف فارمر في المقدمة بالحضارة العربية قبل الاسلام مؤكدا « أن الثقافة العربية لا ترجع الى ذلك العصر الغامض المسمى أيام الجاهلية ··· وانما ترجع الى زمن أبعد من كل ذلك كثيرا · »(١٢) وينقل عن المؤرخ سيسه قوله : « يجب أن نقلع عن اعتبار بلاد العرب صحراوية وبربرية، فقد كانت على خلاف ذلك مركزا تجاريا في العالم القديم ، ولم يكن المسلمون الذين خرجوا منها لغزو المسيحية واقامة الامبراطورية غير خلف لهؤلاء الذين كان لهم تأثير عميق في مصر الشرق في العصور القديمة · »(١٢)

وبعد أن يتحدث عن مراكز الحضارة العربية قبل الاسلام في تدمر والبتراء والحيرة وبصرى واليمن ··· يتحدث عن الموسيقى العربية ، وقدمها ، مؤكدا في مقدمته ، وفي جميع صفحات الكتاب « أن الموسيقى العربية عربية خالصة ، لم تتأثر بآثار أجنبية الا في زمن متأخر ، وهو يرد على مخالفيه في الفصول المختلفة ويلح في هذا الرد · »(١٣)

ثم يوزع فصول الكتاب كما يلي :

الفصل الاول للموسيقى في العصر الجاهلي ·

الفصل الثاني لموضوع (الاسلام والموسيقى) ·

الفصل الثالث للموسيقى في عهد الخلفاء الراشدين ·

الفصل الرابع للموسيقى في عهد الامويين ·

الفصل الخامس للموسيقى في العهد العباسي الذهبي ·

الفصل السادس للموسيقى في العصر العباسي ـ عصر الانحطاط ٠

الفصل السابع للموسيقى في العصر العباسي ـ عصر السقوط ٠

وقد جعل لكتابه خطة واضحة ، فكل فصل ينقسم الى ثلاثة أقسام تتصدرها مقدمة قصيرة تتضمن كلمة عامة عن العصر المخصص للفصل ٠ ويختص القسم الاول بالناحية السياسية فيتناول تعاقب الخلفاء ونظرة كل منهم الى الموسيقى والفنون عامة ٠ ويعالج الثاني تطور الموسيقى الآلية والغنائية والآلات التي استعملت والتجديدات التي أدخلت والآراء التي شاعت ٠ وفي القسم الثالث ترجمات الموسيقيين والموسيقيات في ذلك العصر ٠

ومن هنا يتضح لنا أن الكتاب يؤرخ لموسيقانا العربية « منذ أقدم عصورها حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، أو حتى سقوط بغداد في القرن السابع الهجري ٠ ولا يقصر المؤلف كلامه على ناحية من النواحي الموسيقية ، ولا على اقليم من الاقاليم الاسلامية ، بل يصور التطور الموسيقي من جميع نواحيه في جميع أقاليم العالم الاسلامي: الحجاز فالشام فالعراق والاندلس وغيرها ٠٠»(١٤)

ـ ٨ ـ

في الفصل الاول من الكتاب أو في بحث عن الموسيقى في العصر الجاهلي ، وفي الفصل الثاني معالجة دقيقة علمية لقضية شائكة طالما أثارت النقاش والجدل ، وهي قضية موقف الاسلام من الموسيقى ومن السماع ٠ والفصل الثالث مخصص لبحث الموسيقى في العصر الراشدي ، وفيه تعريف بستة عشر موسيقيا أشهرهم طويس وعزة الميلاء وسائب خاثر ٠

أما الفصل الثالث فخصص لموسيقى العهد الاموي ، الذي ارتقت فيه

الموسيقى وشاعت « حتى صار حب الناس لها جنونا وشغفا ، فصرفوا الاموال الطائلة على المغنين والموسيقيين المشهورين ٠ »(١٥) وبدىء فيه بتأليف الكتب الموسيقية فوضع ابن الكلبي كتابيه (النغم ، والقيان) ، كما أخذ الكاتب العربي الموسيقي الاول ، يونس الكاتب بجمع المواد التاريخية والاخبار المتعلقة بالموسيقى الوطنية » ٠(١٦) وفي هذا الفصل تراجم لواحد وثلاثين من الموسيقيين والموسيقيات ، ويدخل فيهم المغنون والمغنيات بالطبع ، وبينهم أعلام الموسيقى العربية ابن مسجح وابن محرز وابن سريج ومعبد وابن عائشة وجميلة وسلامة وحبابة ٠

ـ ٩ ـ

ومنذ الفصل الخامس حتى نهاية الكتاب تأريخ للموسيقى العربية في العصر العباسي ، الذي يخصص له كما رأينا ثلاثة فصول تتمشى مع الحقب التاريخية ٠ والمؤلف يعتبر العصر العباسي ، عهد اكتمال فن الموسيقى ، وينقل عن ابن خلدون قوله في المقدمة : ما زالت صناعة الغناء تتدرج الى أن كملت أيام بني العباس » ٠(١٧) ثم يؤكد أن الموسيقى قد تقدمت في العصر الذهبي من العهد العباسي ، أكثر مما تقدمت في أية حقبة أخرى ٠ ويرجع هذا الى سببين تأثير الافكار الاعتزالية في الفكر الاسلامي ، وسيادة الثقافة الاغريقية على الحياة الدنيوية ، يضاف اليهما سببان ماديان هما الثورة الصناعية والهدوء السياسي ٠(١٨) وفي الفصل الخامس تعريف بستة عشر موسيقيا أشهرهم اسحاق الموصلي الذي هو عند المؤلف أعظم الموسيقيين في الاسلام سعة معلومات(١٩) ، ثم ترجمة لسبعة عشر عالما من علماء الموسيقى النظريين أشهرهم : الخليل بن أحمد وحنين بن اسحاق والكندي،كما أن في هذا الفصل تراجم لستة من موسيقيي الاندلس ولعشرين من القيان المغنيات ٠

وفي الفصل السادس بحث مطول وقيم عن المدارس الموسيقية الجديدة وعن الصراع بينها ، وعن الآلات الموسيقية الجديدة التي كثرت الى حد مدهش ، وتراجم لخمسة وعشرين من المغنين وعشر مغنيات ، وتحليل لكتب هامة ظهرت والتي من أشهرها كتاب ، الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، وكتاب الموسيقى الكبير للفارابي ٠

ـ ١٠ ـ

والحق أن كتاب (تاريخ الموسيقى العربية) للمستعرب فارمر كتاب عظيم الشأن في موضوعه لثلاثة أسباب : أهمية الافكار والمعلومات التي يعرضها ، ولان مكتبتنا العربية لا تحوي الا القليل من الكتب التي تعالج موضوعه ، وللمصادر الكثيرة التي استند اليها في تأليفه الكتاب ٠ ان قائمتها تقع في تسعة عشر صفحة من الكتاب وفيها حوالي خمسين مخطوطا ، وصفحات من المراجع باللغة العربية واللغات الاجنبية(٢٠) ، وما على عشاق الموسيقى العربية ، المعجبين بتراثنا الموسيقي ، وبالمغنين الاعلام الذين شغفوا بأصواتهم أجواء مكة والمدينة ودمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ٠٠٠ ما على هؤلاء جميعا اذا أرادوا تعرف ما خلف أجدادنا في ميدان الموسيقى من تراث ، والحياة مع الموسيقيين والموسيقيات العظام في تاريخنا ، الا أن يرجعوا الى كتابي المستعرب فارمر (تاريخ الموسيقى العربية ، ومصادر الموسيقى العربية) ٠ انهم سيتزودون منها بما يريدون من علم ومعرفة وغذاء روحي وعقلي ، وسيعجبون كثيرا بهذا العالم البريطاني الذي وقف حياته العلمية كلها على دراسة موسيقانا والتأليف فيها ، وكان في كل ما كتب ، محبا للعرب ، ومعجبا بتراثهم اعجابا لا حد له ٠

الحواشي :

(١) عنوان الكتاب بالانكليزية : H. G. Farmer
The Sources of Arabian Music

وقد صدر بلندن عام ١٩٤٠ ، ثم ترجمه الدكتور حسين نصار بعد أن اختارته وانفقت على ترجمته الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية وطبع بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ٠

(٢) مقدمة الترجمة بقلم الدكتور حسين نصار ص أ ٠

(٣) ذكر المترجم الى جانب كل سنة ميلادية ما يوافقها من التقويم الهجري، وقسم الفصول وفقا لهذا التقويم أيضا ٠

(٤) كتاب مصادر الموسيقى العربية ص ١ ٠

(٥) كتاب مصادر الموسيقى العربية ص ١ و ٢ ٠

(٦) كتاب مصادر الموسيقى العربية ص ١٠ ٠

(٧) كتاب مصادر الموسيقى العربية ص ١١ و ٩٠

(٨) كتاب مصادر الموسيقى العربية ص ٢١ ٠

(٩) نجد ثبتا كاملا بمؤلفات فارمر وأبحاثه الموسيقية في كتاب(المستشرقون) لنجيب العقيقي جـ ٢ ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، طبعة دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٦٥ ٠

(١٠) عنوان الكتاب بالانكليزية : The History of Arabian Music

(١١) طبعت الترجمة عام ١٩٧٥ هـ ، ١٩٥٦ م في سلسلة (الالف كتاب) المصرية تحت رقم (٧) ونشرتها مكتبة مصر بالقاهرة ٠

(١٢) من مقدمة كتاب تاريخ الموسيقى ص ١ ٠

(١٣) من مقدمة المترجم ٠

(١٤) من مقدمة المترجم ٠

(١٥) نقلا عن سيد أمير علي ، موجز تاريخ العرب ، كتاب تاريخ الموسيقى ص ٨٠ ٠

(١٦) تاريخ الموسيقى العربية ص ٩٢ ٠

(١٧) تاريخ الموسيقى العربية ص ١٠٨ ٠

(١٨) تاريخ الموسيقى العربية ص ١٢٤ ٠

(١٩) تاريخ الموسيقى العربية ص ١٤٦ ٠

(٢٠) المراجع من ص ٢٧٣ ـ ٢٩٠ ٠

* * *

الفصل الحادي عشر

تاريخ الادب العربي الاندلسي

للمستعرب الاسباني بالنثيـــا (١)

ـ ١ ـ

كان الفتح العربي لشبه الجزيرة الاسبانية حدثا بارزا ، لا في التاريخ العربي فحسب ، بل في تاريخ الانسانية ٠ ذلك أنه عبد الطريق أمام الحكم العربي لها مدة ثمانية قرون (٩٢ ـ ٨٩٧ هـ/ ٧١٠ ـ ١٤٩٢ م) ، ذلك الحكم الذي كان تاريخا مضيئا في القرون الوسطى ، مما دفع غوستاف لوبون الى أن يقرر في كتابه (حضارة العرب) : أن اسبانيا لم تعرف قبل العرب ولا بعدهم حضارة زاهية ، كتلك التي عاشت في ظلالها خلال القرون الثمانية التي بسط العرب حكمهم عليها ٠ (٢) ولم يكن غوستاف لوبون مغاليا فيما ذهب اليه ، فما تبقى من فنون العمارة وغيرها ومن الكتب التي تناولت مختلف مناحي الثقافة، يشهد على صدقه ، وعلى سمو الحضارة العربية في تلك البلاد ٠

والحضارة في اسبانيا (وقد سماها العرب بالاندلس ، تعريبا لكلمة واندالوس ، التي تطلق على أحد الشعوب الذين فتحوا شبه الجزيرة قبل القوط) ، جزء من الحضارة العربية ، التي تشمل ما خلفه العرب من تراث في المشرق والمغرب : للتشابه الكبير بين مناحيها هنا وهناك ، ولتقليد الاندلسيين لكل ماهو مشرقي ٠ تؤكد هنا على وحدة الحضارةالعربية مشرقا ومغربا ، لان بعض المؤرخين ، والمستشرقين منهم بخاصة ، حاولوا أن يجعلوا للاندلس حضارة خاصة ،(٣) اننا في ذلك نتبنى رأي الفريق الآخر من المؤرخين أمثال ليفي بروفنسال ، الذي بين الاثر الذي لا ينكر ، الذي تركه المشرق وبخاصة الحضارة العباسية على مجتمع المدن الاندلسية ٠(٤)

— ٢ —

درست حضارة العرب في الاندلس كثيرا : درست في كتب الحضارة العربية العامة(٥) ، كما درست في كتب خاصة ، يأتي كتاب (تاريخ الادب العربي الاندلسي — لآنخل كونثالث بالنثيا) في طليعتها ٠ انه يقدم صورة عامة شاملة للفكر الاندلسي وفتوحه في كل مكان ٠(٦) ومؤلفه قد استطاع أن يجمع بين الايجاز والشمول على نحو قلما يجد الانسان له مثيلا ٠(٧) يقدم ذلك كله في صفحات قليلة بلغت ثلاثمائة من قطع صغير ،(٨) صفحات عرفت بالتراث الفكري الاندلسي في ميادين الشعر والنثر والفلسفة والتصوف والطب والفلك والرياضة والنبات والتاريخ والجغرافية ، تعريفا موجزا وشاملا في آن واحد ٠

— ٣ —

ومؤلف الكتاب آنخل كونثالث بالنثيا ، أحد أعلام مدرسة الاستشراق

الاسبانية الجليلة التي « ظلت تؤدي رسالتها على امتداد قرن كامل ، في خشوع التقي ، وقناعة الزاهد ، وبهجة العاشق ، وتميزت بحوثها بالجدية والموضوعية، وبكونها تكتشف صفحة مجيدة من تاريخ اسبانيا » ٠(٩)

ولد عام ١٨٨٩ ، وتخرج من جامعة مدريد عام ١٩١٠ ، وتقدم لاستاذية كرسي التاريخ فيها عقب تنازل أستاذه (خليان ريبيرا Julian Ribera) عنه ليتفرغ لابحاثه ، فنال ذلك الكرسي ، وخلف أستاذه عام ١٩٢٨ ، انتخب عضوا في مجامع عدة ، وتوفي متأثرا بجراح أصابته في حادثة سيارة عام ١٩٤٩ ،(١٠) بعد أن خلّف أكثر من عشرين كتابا وبحثا ، تهتم بتاريخ اسبانيا في العهد العربي الاسلامي وبحضارتها في ذلك العهد ، وأشهرها : فهرس المخطوطات العربية والاعجمية في مكتبة جمعية الابحاث العلمية بمدريد (١٩١٢) — تاريخ اسبانيا الاسلامية (١٩٢٥ و ١٩٢٩ و ١٩٣٢ و ١٩٤٥) — كتاب ألف ليلة وليلة (١٩٣١) ترجمة حي بن يقظان لابن طفيل (١٩٢٤) ٠٠(١١)

— ٤ —

يقع الاصل الاسباني لكتاب (الادب العربي الاندلسي) الذي نعرف به في هذا البحث في حوالي ثلاثمائة صفحة ، أما ترجمته العربية فقد تجاوز عدد صفحاتها الستمائة ٠

ويقسم الكتاب الى أربعة أقسام كبرى :

القسم الاول : مقدمة تاريخية (١٢) لخص فيها التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري للاندلس من الفتح عام (٩٢ هـ — ٧١٠ م) الى سقوط غرناطة بيد الاسبان عام (٨٩٧ هـ — ١٤٩٢ م) ٠

القسم الثاني : وفيه تعريف بما أعطت الحضارة العربية الاندلسية في جميع ميادين الادب والفكر والثقافة وهو يقع في أحد عشر فصلا استغرقت من الكتاب (٤٥٤ ص)(١٣) ٠

القسم الثالث : وهو تعريف بأهم ما ألّفــه ــ بالعربية أو بغيرها ــ غير المسلمين من الاندلس ما بين نصارى ويهود ، وكذلك ما تركه المستعجمون بلغة اسبانية مكتوبا بحروف عربية ٠ وهذا القسم فصلان :(١٤) الثالث عشر وهو مخصص لنتــاج غير المسلمين من الاندلســيين ، والرابع عشر مخصص لادب المستعجمين ٠

القسم الرابع : وهو في فصل واحد ،(١٥) يقع في مائة صفحة ونيف، لخصت أهم ما تركته الحضارة العربية الاندلسية من آثار ، في الحضارة الاوربية ٠

ــ ٥ ــ

القسمان الثاني والرابع أهم أقسام الكتاب ٠

ففي ذاك تعريف مفصل بعطاء الحضارة العربية الاندلسية في ميــادين الشعر والادب والنحو ومعاجم اللغة والتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والالهيات وعلم الحديث والقراءات وعلم أصول الفقه والرياضيات والفلك والطب والنبات ، مع تراجم لاهم أعلام هذه الفنون والعلوم ، وعرض لاهم ما تركوا من نتاج أدبي وشعري وعلمي ، وتعريف بأهم ما خلـّفوا من مؤلفات ٠ مما يجعل من الكتاب معجما وافيا لتراجم الاعلام من أدباء الاندلس وعلمائه من ناحية ، ولمؤلفاتهم الكثيرة من ناحية أخرى ٠

في هذا القسم الثاني نجد دراسات للموضوعات التالية :

الشعر العربي قبل الاسلام وبعده ــ الخصائص العامة للشعر الاندلسي ــ أهم موضوعات الشعر الاندلسي ــ الشعر الفصيح في عصور الامارة والخلافة والطوائف والمرابطين والموحدين ومملكة غرناطة ــ الاتجاه الشعبي الدارج ــ الادب كفن من فنون الفكر العربي في الاندلس ــ النحو ومعاجم اللغة ــ كتب التاريخ العام في عصور الخلافــة والطوائف والمرابطــين والموحــدين ــ كتب التراجم وفهارس الكتب ــ كتب تاريخ الادب ــ وتواريخ النواحي الجغرافية والرحلات ــ الفلسفة والالهيات ــ المدرسة الافلاطونية الحديثة ــ المدرسة المشائية ــ التصوف ــ علوم الحديث والقراءات وتفسير القرآن وأصول الفقه ــ علو مالرياضيات والفلك والطب والنبات ٠

وفيه تعريف واف بزرياب وابن عبد ربه وابن هانىء وابن حزم وابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن حمديس وابن باجه وابن خفاجه وأبو البقاء وابن الابار وابن الخطيب وابن قزمان والقالي وابن سيده وابن خلدون وابن بشكوال وابن خير وابن بسام وابنخاقان والمقري والادريسي وابن جبير وابن طفيلوابن رشد وابن عربي وابن عبد البر والزرقالي وأبي القاسم الزهراوي ، وبنيزهر وابن البيطار ٠

كما أن فيه دراسات عن دواوين ابن زيدون وابن عبد ربه وابن هانىء والرمادي وابن حزم والمعتمد وابن عبدون وابنخفاجه ولسانالدين بنالخطيب وابن زمرك وابن قزمان ٠ ودراسات للعقد الفريــد والامالي وسراج الملوك للطرطوشي ومعجم المخصص لابن سيدة وتاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية ، والمقتبس لابن حيان ، والفصل في الاهواء والنحل وطوق الحمامة لابن حزم ، والبيان المغرب للمراكشي ، والاحاطة بتاريخ غرناطة للسان الدين بن الخطيب، وتاريخ العبر لابن خلدون ، والصلة لابن بشكوال ، والحلة السيراء لابن الابار ، وفهرست ابن خير ، والذخيرة لابن بسام ، وقلائد العيقان لابن خاقان ، ونفح

الطيب للمقري ، والمسالك والممالك للبكري ، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي ، ورحلة ابن جبير • وحي بن يقظان لابن طفيل وتهافت التهافت لابن رشد والفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي والتعريف لمن عجز عن التأليف للطبيب أبي القاسم الزهاوي ، والكليات في الطب لابن رشد ، والجامع لمفردات الاغذية والادوية لابن البيطار •

ـ ٦ ـ

القسم الرابع أهم أقسام الكتاب ففيه يتتبع المؤلف آثار الفكر الاندلسي (من أدب وعلم وطب وفلسفة) في الحضارة الاوربية •

يعرض أولا آراء الاب خوان اندريس الذي ألم في القرن الثامن عشر الى أثر الثقافة الاندلسية في الثقافة الاوربية ، وذلك في كتابه (أصول الادب عامة وتطوراته الراهنة)(١٦) ، والذي أكد فيه أن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع الى ما كتبه العرب ،(١٧) وأن قيام التأليف العلمي في أوربا (في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية) مرجعه الى العرب ،(١٨) وأن الشعر البروفنسي انما ينتسب الى العرب أكثر مما ينتسب الى اليونان واللاتين(١٩) ، وأن موسيقى الترو بادور وآراء الفونسو العالم فيهذا الفن عربية كلها ، وكذلك اللون القصصي المعروف بالفابليو (الخرافات) والحكايات والقصص ترجع في مناشئها الى أصول عربية •(٢٠)

ثم خصص فقرة لطليطلة (المركز الذي انتشرت منه الثقافة العربية الى باقي نواحي اسبانيا وأوربا) ولمدرسة الترجمة فيها التي تولى رعاية مترجميها الاسقف رايموندو ، والذين اشتهر منهم دومينيكوس كونديسالفي والذي يسمى في بعض النصوص كونديسالينوس ويوحنا بن داود الاسباني

وجيراردوا الكريموني وهرمان الدلماشي ، واديلارد الباثي ، وهرلمان الالماني ، أولئك الذين نقلوا المؤلفات العربية ، وترجموا عيونها في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة •(٢١)

وفقرة أخرى للراهب (رامى لل Ramon Lull) الذي لا يرقى شك الى تحققه بالعربية وما كتبها أهلها ، والذي اعتمد على كتاب العرب المسلمين وخاصة ابن عربي ،(٢٢) الذي يلتقي معه في التعاليم الاساسية لمذهبيهما(٢٣) بحيث نجد تشابها حرفيا بين كتابات الرجلين ،(٢٤) وتعبيرا بالحروف عن آراء فيما بعد الطبيعة أو مقولات الوجود مأخوذا عن أسرار المتصوفة العرب ورموزهم ،(٢٥) واتفاقا في المبدأ الاساسي لكتابه (الصديق والمحبوب مع ما ذكره ابن عربي في كتابه (ترجمان الاشواق) • (٢٦)

وفي هذا القسم فقرة مطولة تفصل القول في علاقة دانتي بالاسلام(٢٧) • وتعرض عرضا وافيا نظرية (آسين بلاثيوس) عن تأثر دانتي في الكوميديا الالهية بقصة المعراج وبمحي الدين بن عربي ، وهي النظرية التي شرحناها شرحا مفصلا في بحث سابق •

ثم انتقل المؤلف بعد هذا الى ميدان العلوم ، فبين اهتمام الملك الاسباني (الفونسو العالم) بالثقافة العربية ، وبنقل علوم العرب وآدابهم بحيث بلغ ذلك النقل ذروته في عصره •(٢٨)

وخصص فقرة للقصص الذي نقل من العربية الى اللاتينية وغيرها من لغات أوربا ، من كليلة ودمنة ، والسندباد ، وألف ليلة وليلة ، تلك القصص التي كان تأثيرها كبيرا في أدباء اسبانيا من أمثال (بدرو الفونسو الذي ألف كتابه (سلك الكتاب Disciplina Clericerlis) باللغة العربية أولا ثم ترجمه بنفسه

الى اللاتينية ، وهو يورد فيه ثلاثا وثلاثين أقصوصة شرقية(٢٩) ، والدون خوان مانويل (Don Juan Manuel) أول أديب صاحب أسلوب نثري من كتاب اسبانيا في العصور الوسطى والذي نهل وروى من موارد عربية ،(٣٠) وتورميدا صاحب كتاب (مجادلة الحمار للاب اتسيلمود تورميدا) المشهور وهو ليس الا ترجمة حرفية في أحيان كثيرة ـ لفقرات من مجادلة الحيوانات لبني آدم الواردة في رسائل اخوان الصفا) ٠ (٣١)

ثم بين (بالنثيا) خطأ ما تعارف عليه الناس من أن أهل الغرب لم يعرفوا قصص (ألف ليلة) الا بعد أن ترجمها (غالان Galland) الى الفرنسية في أوائل القرن الثامن عشر ٠(٣٢) فلقد كانت معروفة قبل هذا ، فنحن نجد في الادب الاسباني ـ قبل نهاية القرن السابع عشر ـ قصصا كثيرة لا شك في أن هناك علاقة أكيدة بينها وبين صورة من الصور التي عفى عليها الزمن من صور ألف ليلة ٠)(٣٣)

ثم عرض بعد هذا نظرية المستشرق العظيم ريبيرا Ribera التي دلل فيها على وجود « آثار من شعر قصصي لابد أنه كان مزدهراً في الاندلس خلال القرنين التاسع والعاشر » ٠(٣٤) وأن هذا الشعر القصصي قد ترك أثره في الشعر القصصي الفرنسي والاسباني(٣٥) بدلائل كثيرة تظهر توافقا بين هذين الشعرين والشعر الاندلسي ، توافقا « لا نستطيع نسبته الى مجرد المصادفة ، وخاصة اذا ذكرنا أنه لا يقع في ظواهر ثانوية ، بل في ظواهر أصيلة ٠ »(٣٦)

وتكون الصفحات العشرون الاخيرة (٣٧) أمتع وأعمق ما ورد في الكتاب ٠ ففيها يتحدث المؤلف عن (الزجل في الادب الاوربي)، ذلك الفن الشعري الذي « يعتبر المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التي صبت فيها

الطرز الشعرية التي ظهرت في العالم المتحضر أثناء العصر الوسيط ٠ »(٣٨) لقد ثبت انتقال بحور الشعر الاندلسي الى جانب الموسيقى العربية الى أوربا ،(٣٩) وأضاءت دراسة ديوان ابن قزمان ـ التي قام بها ريبيرا ـ جوانب مشكلة كبرى ، هي مشكلة أصول الشعر الاوربي ،(٣٩) فلقد استخدم أوائل (التروبادور البروفنسيين) أقدم القوالب الزجلية الاندلسية، وتغنوا بغرامياتهم الجارحة للحشمة بنفس الحرية وعدم التحرج اللذين نراهما عند ابن قزمان (٤٠) ، وظل نظام هذا الطراز الشعري الاندلسي ذي الاغصان باقيا في صناعة الالحان الموسيقية خلال العصور الوسطى ، ولا سيما في هذا النوع من الالحان المعروف (بالروندو Rondo) ٠

وهكذا أثر الزجل الاندلسي في بواكير الشعر الفرنسي ،(٣٩) وكان شائعا في انجلترا(٤١)، ويضم نوعا من الاغاني الالمانية قطعا نظام قوافيها شبيه بنظامها في الزجل الاندلسي ،(٤٢) ونجد في الشعر الايطالي موضوعات قريبة مما اختص به الشعر الشعبي الاندلسي ،(٤٣) وضروبا من الشعر صبت في قالب الزجل الاندلسي صافيا أحيانا ، ومحوّرا بعض التحوير أحيانا أخرى ،(٤٤) وتوجد في الاغاني الجليقية البرتغالية منظومات من طراز الزجل(٤٥) ٠

أما في اسبانيا ، فيكشف لنا بتركيب الازجال عن أوزان كثير من المنظومات التي كان مؤرخو الادب الاسباني في حيرة من أمرها ٠ مثال ذلك (أغاني الفونسو العاشر) التي أظهر ريبيرا أن معظمها من طراز الازجال ،(٤٦) وأغنية العربيات الثلاث لبلاثيو ،(٤٧) ومنظومات كثيرات في دواوين الشعراء الاسبان الذين استعملوا فن الزجل في نظمهم(٤٨) ، في موضوعات الغزل ، والتراتيل الدينية ، وهدهدة الامهات لاطفالهن ٠(٤٩)

في كتاب (تاريخ الادب العربي الاندلسي) عرض واف لتراث العرب الادبي والفكري في الاندلس ، وتعريف جامع بأهم أعلامه ، وبيان دقيق بأثره الكبير في الحضارة الاوربية ، كتبه (آنخل كونثالث بالنثيا) ، فكان « من أحسن وأنفع ما صنف المستشرقون ، فهو يمتاز – علاوة على الشمول – باعتدال في الرأي ، وانصاف في الحكم ، وبعد عن الهوى والعصبية يجعلك تتصور في بعض الفقرات أنك تقرأ لكاتب عربي منصف ، لا يقوم انصافه على الالفاظ بل على عرض الحقائق ولا على الحماسة بل على الجهد والعمل والصدق والتحقق ، وهي صفات امتاز بها هذا العلامة الاسباني الذي عاش عمره كله قارئا كاتبا باحثا محققا ، وانتهت حياته بعد الستين ، وهو على قمة مجد علمي لا تحققه جماعة كاملة من الباحثين • »(٥٠)

الحواشي :

(١) العنوان الاسباني لهذا الكتاب هو :

Angel Gonzalez palencio
Historia de la Literaturo Arabiqo - Espanula
2o edition, Madrid 1945.

والترجمة الحرفية للعنوان (تاريخ الادب العربي – الاسباني) وقد آثرنا كلمة (الاندلسي) على (الاسباني) لانها أدق في اللغة العربية • لم يتح لنا الاطلاع على الاصل الاسباني ، ولذلك استندنا على ترجمة الدكتور حسين مؤنس للكتاب ، المطبوعة بالقاهرة – مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٥ ، وقد أعطى الدكتور مؤنس ترجمته العنوان التالي (تاريخ الفكر الاندلسي) ، لان لفظ (الادب) بمعناه المحدد الآن لا يفي بمضمون الكتاب الذي يتناول التاريخ

والرحلات والفلسفة والتصوف والطب والنبات والفلك والرياضيات ، لذلك (آثر) كلمة (الفكر) على الادب • أما نحن فنفضل المحافظة على كلمة (أدب) لانها ارادة المؤلف ولكن علينا أن نفهمها بمعناها العربي القديم ، وهو المعنى الواسع الذي كان يريده العرب (الاخذ من كل فن بطرف) •

(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة زعيتر ص ٢٦٣ وما بعد و ٥٨١ وما بعد •

الفصحى في القرن الحادي عشر : مظاهره العامية وقيمته الوثائقية) ، باريس ١٩٣٧ •

(٣) يمثل هذا الاتجاه هنري بيريس في كتابه (الشعر الاندلسي بالعربية

(٤) ليفي بروفنسال من محاضرات له في كلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٤٧ ، وقد نشر ملخص لها بمجلة الكتاب المصرية عدد مايو ١٩٤٧ ، وينظر كتابه (الحضارة العربية في اسبانيا) ص ٥١ وما بعد •

(٥) خصصت لها صفحات في حضارة العرب لغوستاف لوبون وفي الحضارة العربية لجاك ريسلر ، وفي تاريخ العلم العربي لالدومييلي ، وقد عرفنا بهذه الكتب في أبحاث سابقة من هذا الكتاب •

(٦) مقدمة ترجمة الدكتور حسين مؤنس المنوه عنها في الحاشية الاولى من هذا البحث •

(٧) الدكتور حسين مؤنس ، المصدر السابق •

(٨) تلك عدد صفحات الكتاب في الاصل الاسباني ، أما الترجمة العربية فتقع في (٦٣٠) ص من القطع المتوسط ، يضاف اليها (٨٥) ص من الفهارس والمراجع •

(٩) الدكتور أحمد الطاهر مكي ، مـن بحث لـه منشور بمجلـة الهـلال القاهرية عدد يناير ١٩٧٦ ص ٤٠ .

(١٠) نجيب العقيقي ، المستشرقون ج ٢ ص ٥٩٧ و ٥٩٨ .

(١١) نجيب العقيقي ، المصدر السابق ص ٥٩٨ .

(١٢) من ص ١ ، الى ص ٣٠ من الترجمة العربية .

(١٣) من ص ٣١ ، الى ص ٤٨٤ من الترجمة العربية .

(١٤) من ص ٤٨٥ ، الى ص ٥٢٢ من الترجمة العربية .

(١٥) هو الفصل الخامس عشر من الكتاب من ص ٥٢٣ ، الى ص ٦٢٧ .

(١٦) ألّف بالايطالية ـ ونشر بين عامي ١٧٨٢ و ١٧٩٨ ، وترجم الى الاسبانية بين سنتي ١٧٤ و ١٨٠٦ .

(١٧) الكتاب ص ٥٣٣ .

(١٨) الكتاب ص ٥٣٤ .

(١٩) الكتاب ص ٣٣٥ .

(٢٠) الكتاب ص ٥٣٦ .

(٢١) الكتاب ص ٥٣٧ .

(٢٢) الكتاب ص ٥٤٣ .

(٢٣) الكتاب ص ٥٤٤ .

(٢٤) الكتاب ص ٥٤٤ .

(٢٥) الكتاب ص ٥٤٨ .

(٢٦) الكتاب ص ٥٤٩ .

(٢٧) الكتاب ص ٥٥١ وما بعد .

(٢٨) الكتاب ص ٥٧٣ .

(٢٩) الكتاب ص ٥٧٩ .

(٣٠) الكتاب ص ٥٨٥ .

(٣١) الكتاب ص ٥٨٨ .

(٣٢) الكتاب ص ٥٩٣ .

(٣٣) الكتاب ص ٥٩٤ .

(٣٤) الكتاب ص ٦٠٣ وما بعد .

(٣٥) الكتاب ص ٦٠٧ .

(٣٦) الكتاب ص ٦١٠ .

(٣٧) الكتاب ص ٦١٣ .

(٣٨) الكتاب ص ٦١٣ .

(٣٩) الكتاب ص ٦١٤ .

(٤٠) الكتاب ص ٦١٥ .

(٤١) الكتاب ص ٦١٨ .

(٤٢) الكتاب ص ٦١٨ .

(٤٣) الكتاب ص ٦١٩ .

(٤٤) الكتاب ص ٤٢٠ .

(٤٥) الكتاب ص ٦٢١ .

(٤٦) الكتاب ص ٦٢٣ .

(٤٧) الكتاب ص ٦٢٧ .

(٤٨) الكتاب ص ٦٢٨ .

(٤٩) الكتاب ص ٦٢٩ .

(٥٠) من مقدمة حسين مؤنس لترجمة الكتاب

★ ★ ★

الفصل الثاني عشر

العلم عند العرب

للمستعرب الايطالي ألدو ميبيلي (1)

ـ ١ ـ

العلم أحد الانجازات الكبرى التي قدمتها الانسانية خلال مسيرتها الطويلة ، منذ كانت تعيش في العصر الحجري ، حتى وصلت الى هذا العصر الذي يلقب (بعصر العلم ، أو عصر الذرة ، أو عصر الفضاء) وذلك بعد أن مرت بعصر البرونز ، فعصر الحديد ، فعصر البخار ، فعصر الكهرباء ٠

وتاريخ العلم الذي يؤرخ تطور هذا الانجاز الكبير ، جزء هام من تاريخ الحضارة العام ، بدأ العلماء يعنون به منذ قرون،ولكنه لم يدرس دراسة علمية دقيقة الا منذ أخريات القرن الماضي ، حين رسم منهجه ، وحددت معالمه ، وحققت مسائله ٠ وقد ألفت من أجل تأريخ العلوم المختلفة جمعيات ومؤسسات ، من

أشهرها جمعية تاريخ العلم في كمبردج ومجلتها (ايزيس Isis) ولا تزال تصدر منذ عام ١٩١٣ ، (٢) والمجمع العالمي لتاريخ العلوم ومجلته الرسمية (اركيون Archion) (٣) ٠ وقد انشيء في جامعة حلب عام ١٩٧٦ معهد التراث العلمي العربي ، والجمعية السورية لتأريخ العلوم ، والآمال معقودة عليهما في اسهام عربي في هذا الموضوع الهام جدا من موضوعات تاريخ الحضارة ٠

ـ ٢ ـ

أما العلماء الذين اشتغلوا بتاريخ العلم بصورة عامة فكثيرون جدا ، يكفي أن نشير منهم الى العالم (جورج سارتون) البلجيكي الاصل والذي هاجر الى أمريكا بعد ذلك ، والذي وقف حياته طوال نصف قرن على دراسة هذا الفرع من فروع تاريخ الحضارة ، حتى غدت كتبه المؤلفة فيه مصادر أساسية في هذا المضمار تعتمدها الجامعات ومراكز البحث العلمي ٠(٤)

ونذكر الى جانب هذا العالم عالم كبير آخر ، اهتم أولا بتاريخ العلوم عامة، ثم قصر دراساته وأبحاثه على (العلم العربي) ٠ هذا العالم هو (ألدو ميبيلي الذي لم يتح لنا أن نتعرف من تفاصيل حياته ، وأعماله ، سوى أنه كان وكيل (المجمع الدولي لتاريخ العلوم) ، ومؤسس مجلة (أركيون) التي تسجل نشاط هـذا المجمع ٠ وله أبحاث كثيرة تتصل كلها بالعلوم عند العرب ، وقد نشرت بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٤٣ ٠ (٥)

ـ ٣ ـ

وتاريخ العلم ضروري ، على الرغم من التطور الهائل الذي يسير فيه وبخاصة في السنوات الخمسين الاخيرة ٠٠ ان التاريخ وحده هو الذي يساعدنا

في فهم العلم حق الفهم ، وفي معرفة كونه وحدة متماسكة في ماضيه وحاضره ومستقبله ، ثم في ادراك قيمه السامية ، واجتلاء نواته الاساسية الخالدة التي هي العقل الانساني ٠

ان العلم الذي هو في المرتبة الاولى من صنع العقل الانساني ، لا يجد سببه العميق ، ولا يبدو جليا الا بتلك السبيل التي سلكها فعلا ٠ والماضي وحده هو الذي يشرح الصورة التي يأخذها العلم الآن ، والتي يأخذها غدا ٠(٦)

ـ ٤ ـ

ولقد كان للعرب حضارة رائدة في القرون الوسطى ، وكان العلم العربي أبرز منجزات هذه الحضارة ٠ وقد عكف العلماء في المشرق والمغرب على دراسة هذه الحضارة وعلى دراسة الجانب العلمي فيها ، وقلما خلا كتاب ـ من كتب تاريخ الحضارة العامة ، أو الحضارة العربية ، أو الاسلامية ـ من حديث مختصر أو مطول عن العلم العربي وعن العلماء العرب ٠٠٠ كما أن هناك كتبا فصلت القول في هذا المضمار ٠(٧)

ـ ٥ ـ

أما الكتاب الذي اختص بالعلم العربي ، فهو الذي ألفه العالم والمستعرب الايطالي (ألدو مييلي) ، ثم نشره في عام ١٩٣٨ ، وأعيد طبعه في العام التالي ١٩٣٩ بعنوان (العالم العربي ودوره في التطور العلمي العالمي) ٠ وقد تبنت الجامعة العربية ترجمة هذا الكتاب ، فنقله الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ، وطبعت ترجمته بالقاهرة سنة (١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م) مع تغيير طفيف في العنوان ، لسنا ندري سببه ، اذ جاء

عنوان الترجمة العربية كما يلي (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي) ٠(٨)

لم يتح لنا الاطلاع على النص الاصلي للكتاب الذي هو باللغة الفرنسية لانه غدا من الكتب النادرة ٠(٩) أما الترجمة العربية فتقع في ٦١٤ ص مع تقديم وفهرس مفصل في ثلاث عشرة صفحة من جهة ، وفهرس مفصل للاعلام في أربع وعشرين صفحة ٠

ـ ٦ ـ

و لكتاب ثلاثة أقسام كبرى :

القسم الاول : مدخل يتناول خطوات العلم السابقة للعلم العربي بعد بيان أهمية هذا العلم بخاصة وتاريخ العلوم بعامة ٠ وفيه حديث واف عن العلوم : الصيني والهندي وعلوم شعوب البحر الابيض المتوسط : مصر ، وما بين النهرين ، والعلم البابلي ، والعلم الاغريقي بأنواعه المختلفة ٠(١٠)

القسم الثاني : وهو أهم أقسام الكتاب لانه يتناول بالبحث (العلم العربي من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر للميلاد) ، ويشغل منه أكثر من أربعمائة وخمسين صفحة(١١) ٠ ويمكن توزيعه الى خمسة أقسام فرعية :

أ ـ مقدمة تبحث في انهيار العلم القديم السابق للعلم العربي ، وفي نشأة الاسلام ونموه ، وفي أصول العلم العربي وطابعه ٠

ب ـ أوج العلم العربي في المشرق ثم انحطاطه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ٠

جـ ــ العرب في الاندلس ، وازدهار علومهم الاول ، ثم عصر العلم الذهبي في الاندلس ، ثم تناقص هذا العلم في هذا القطر ·

د ــ في انتقال العلم العربي الى الغرب المسيحي وأشهر مواطن هذا الانتقال في سالرنو ، وخلال الحروب الصليبية ، وفي صقلية ، ثم في شبه جزيرة الاندلس ··· وما ترتب على ذلك نشأة علم جديد في البلدان المسيحية ·

هـ ــ في معارفنا الحالية عن العلم العربي ، وفي السبيل الى معرفة مثلى به ·

أما القسم الثالث من الكتاب فخمسة ملاحق هامة :(١٢)

أولها : استعراض سريع لبعض العلماء العرب وبعض كتبهم منذ القرن الرابع عشر الميلادي ·

وثانيها : نصوص اقترحت لنشرها ضمن (مجموعة المخطوطات العربية في العلم الطبيعي والفن الطبي)، مع بيان بالكتب الرياضية والفلكية والكيميائية التي تستحق البدء بالنشر ·

وثالثها : قائمة بأسماء أعضاء اللجنة التي ألفت لنشر (مجموعة المخطوطات العربية في العلم الطبيعي والفن الطبي) ·

ورابعها : موافقات بين السنين الميلادية والهجرية ·

وخامسها : ثبت المراجع لدراسة العلم العربي ·

ـ ٧ ـ

والكتاب هام ، وكل صفحة من صفحاته تستحق قراءة جدية وتلخيص

أفكاره كلها يتطلب كتابا آخر ، لذلك سنقتصر على بضعة موضوعات تبدو لنا أهم ما قدم لنا الكتاب ·

آ ــ يطلق المؤلف لفظ « عربي » على مدلول بعيد الاتساع · ويدخل في مدلوله « العلم العربي » ذلك العلم الذي نما وازدهر في العصور الوسطى ، وفي تلك البلدان التي كانت تنتظم في رقعة الامبراطورية العربية للخلفاء ، مهما كانت اللغة التي استعملها العلماء (وهي العربية طبعا على وجه العموم) ومهما كانت ديانة هؤلاء العلماء · (١٣)

وننقل هنا ــ نظرا لاهمية الموضوع ــ التفسير الكامل للعنوان الذي أعطاه للكتاب : « التسمية بالعلم العربي ، أحسن العناوين التي يمكن اطلاقها على العلم الذي ازدهر من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر في البلاد التي سادها الاسلام ، والذي ظهر في الآثار العملية ، وأنواع الانتاج العلمي والادبي · وتسمية ذلك بالعلم الاسلامي أقل دقة ، اذ قام بقسط في انضاج ذلك العلم وتنميته كثير من المسيحيين واليهود والزرداشتيين والوثنيين · ومن جانب آخر لن يكون من العدالة بحال أن نفصل الكتب المؤلفة بالعربية عن الكتب التي ألفت في نفس المحيط بالسريانية أو الفارسية أو العبرية · فهي جميعا تؤلف وحدة من حيث روحها ومن حيث التأثير المتبادل بينها ، (١٤) ويوجد ــ بوجه عام ــ هذا التقسيم الصناعي المحض في كتب تاريخ الآداب العربية والفارسية والعبرية الخ ·· ويريد البعض أن يفهم هذا التقسيم بمعنى أن مؤلفي تلك التواريخ يعنون بقوالب الكتب التي يدرسونها في اللغات المختلفة أكثر من عنايتهم بالروح والجو الحقيقيين لهذه الكتب · بيد أنه ــ حتى في هذه الحال ــ يجد القارىء الحصيف مثل هذا التقسيم متفتتا وغير طبيعي ·

ومع ذلك نستطيع أن نقرر أن القسم الأعظم من الآثار المتعلقة بالعلم

العربي مكتوب باللغة العربية · والايرانيون ـ بعد سقوط الدولة الساسانية ـ اتخذوا العربية لغة لهم ـ دون استثناء تقريبا ـ في جميع كتاباتهم العلمية والادبية · وكان المسيحيون السريان من جانب آخر ـ مع كثرة استعمالهم اللغة العربية ـ يستخدمون اللغة السريانية في كتبهم أيضا في جميع الأزمنة · ولكن من الواضح الجلي أننا لا نستطيع أن ننظر في شخص واحد كابن العبري ، الى شخصين اثنين ، بأن نبحث كتبه العربية في مكان ، وكتبه السريانية في مكان آخر ·

ومثل ذلك يمكن أن يقال بالنظر الى اليهود في استعمالهم العبرية · فان العلماء العظام منهم ، كتبوا جميع كتبهم تقريبا بالعربية ، ولكن كتبهم هذه سرعان ما ترجمت الى العبرية · وهناك آخرون كتبوا باللغتين على التناوب · وفي نهاية العصر الذي نحن بصدده نشاهد عندهم الميل الى تعريف شعوب غربي أوربا بالكتب العلمية العظيمة المؤلفة باللغة العربية ، وذلك بوساطة ترجماتهم العبرية · (١٥) فمن الجلي أن جميع هذه الكتب ـ التي كتبت بالعبرية ـ لا يمكن عدها منفصلة عن جملة العلم العربي ، في دراسة تاريخية · (١٦)

ب ـ ومقام العلم العربي ـ في رأى المؤلف ـ لهو بالمكانة الاولى من الاهمية في تاريخ العلوم لان هذا العلم العربي يكون حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد · واذا نحن لم نواجهه ولم نتفهمه فسنجد فراغا يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة ·· واذا ينبغي أن نجتهد في دراسته بعناية · (١٧)

ومما يزيد في مقام العلم العربي ، ويرفع من أهميته أن العلم القديم كان قد سقط الى هوة سحيقة اعتبارا من القرن السادس · وعلى الرغم من أنه لمع في أوائل هذا القرن لمعانا قويا ، « فان سقوطه بعد ذلك بقليل كان كاملا غير منقوص » (١٨) ·

ويكون العلم العربي بعثا للعلم القديم ، ودفعا له نحو الامام ، واسهاما في تطويره واغنائه ، تم ذلك نتيجة رغبة عميقة في العلم ، وتطلع قوي الى المعرفة غذتهما دراسة الآداب القديمة : اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ، فكانت تلك الظاهرة ، ظاهرة عشق العلم وتشجيعه لا عند الخلفاء العظام المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم فحسب ، بل عند القسم الاعظم من رعايا الدولة كذلك · (١٩) وبدأت في العصر العباسي حركة ترجمة واسعة · واذا كانت الترجمات السريانية تشتمل على أخطاء فاحشة ، واذا كان الذين ترجموا من العربية الى اللاتينية في العصور الوسطى يسيرون على هذا الخط تماما ، فان الترجمات العربية ـ على النقيض من ذلك ـ لا تشتمل على هذه العيوب ، وينبغي عدها آثارا تدل على عناية واخلاص · (٢٠) هذه الترجمات التي تمت على أيدي شخصيات لمع نجمها في القرن التاسع الميلادي ، وبحماية صدرت عن الخلفاء ووزرائهم ، وعن الأمراء والملوك في الدول العديدة التي أنشئت في الاندلس والمغرب وتونس ومصر وحلب ودمشق ·

على أن الذي كان مدهشا حقا هو أن مرحلة الترجمة العربية قد تم اجتيازها بسرعة ، وانتقل العرب بخطى سراع الى مرحلة العلماء الاصلاء وبدأ ظهور هؤلاء العلماء عند العرب منذ القرن التاسع الميلادي · (٢١) فتسلق هؤلاء القمة خلال القرن التاسع ليصلوا الى الأوج ، والى العصر الذهبي للعلم العربي في المشرق خلال القرنين العاشر والحادي عشر ،(٢٢) معطين العالم ذلك النتاج الهائل من الكتب في الجغرافية والفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة والطب والكيمياء والتاريخ · ذلك العصر الذهبي الذي لم يستمر طويلا ، والذي بدأ فيه العلم بعد ذلك بالانحطاط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالمشرق نتيجة غزوات الترك والمغول ، وان كان حكم المماليك المضطرب ، قد ضمن أمانا لمصر ، وساعد نسبيا على ازدهار نسبي للعلوم والفنون · (٢٣)

- ٨ -

ثم يفرد المؤلف للعلم العربي في الأندلس قسما خاصا من الكتاب . فانتشار الاسلام في اسبانيا اتسم بطابع لا يسمح بالمساواة بينه وبين انتشار الاسلام في المشرق ، كما أن الانفصال السياسي التام قد أخذ صفة الاستقرار منذ أسس عبد الرحمن الداخل أمارته المستقلة .. مع تأكيد المؤلف على عدم المغالاة في تقرير الانفصال والانعزال بين العلاقات الثقافية ، ذلك أن الصلات العقلية بين الاقاليم الشرقية والغربية في المحيط الاسلامي بقيت وثيقة جدا على الدوام ، كما أن ما يقام من حدود الزمان والمكان لتسهيل العرض وتيسير فهم الاحداث، لا يطابق واقع الأمور الا مطابقة جزئية . (٢٤)

ثم يقدم ألدوميلي في كتابه صورة زاهية عن ازدهار العلوم في الاندلس وعن العصر الذهبي للعلم العربي فيه ، مع ترجمات للعلماء وعرض لآثارهم في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب والجغرافيا والصيدلة وعلم النبات والتاريخ . (٢٥) حتى اذا ما انتهى من ذلك انتقل فحدثنا عن تناقص العلم العربي في الأندلس بدءا من القرن الثالث عشر الميلادي .(٢٦)

- ٩ -

وينتقل المؤلف بعد هذا الى القسم الرابع والهام من كتابه ، وهو ذلك القسم الذي خصصه لانتقال العلم العربي الى الغرب المسيحي . وهو بعد أن بين الأهمية العالمية للعلم العربي التي ترجع الى نقله كنوز العلوم القديمة من المغرب والمشرق الى الشعوب المسيحية في غربي أوربا ، بعد اخضاع هذه العلوم لتنمية وانضاج هامين كثيرا أو قليلا - ينتقل الى وصف الحالة من الجهل والهمجية التي تردت اليها أوربا بعد الغزوات التيوتونية ، ثم يبدأ في بيان

حركات النقل الاولى للعلم العربي الى الغرب ، (٢٧) في مدرسة سالرنو ، وفي صقلية ، وفي الحروب الصليبية ، (٢٨) ثم يفصل البحث في النقل العلمي الذي تم في شبه جزيرة الاندلس ، عن طريق الترجمة من العربية الى العبرية واللاتينية ، ذلك النقل الذي مهد لاوربا السبيل للاطلاع على علوم العرب أولا ثم على علوم الاغريق ثانيا ، ثم دفعها الى انشاء علم جديد . (٢٩)

- ١٠ -

ويكون القسم الأخير من الكتاب قسما هاما مخصصا للبحث في (معارفنا عن العلم العربي) وعن العمل الذي قام به المجمع العالمي لتاريخ العلوم ، (٣٠) مبينا عدم كفاية ترجمات القرون الوسطى لدراسة موضوعية ، وأن العمل يجب أن يبدأ من نشر مجموعات المصنفات العربية المختلفة . وأن المجمع قد ألف لجنة لنشر الكتب الطبية والطبيعية من كبار المستشرقين ومؤرخي العلوم ، كما عقدت عدة مؤتمرات من أجل ذلك بين عامي ١٩٢٩ - و ١٩٣٨ ، واتخذت مقررات ، ونشرت أبحاث ، ويسرت نقل أسماء الأعلام في اللغات التي لاتستعمل حروف الهجاء اللاتيني . والذي يؤسف له أن قيام الحرب العالمية الثانية لم يسمح لأعمال (المجمع العالمي لتاريخ العلوم) أن تستمر ، وأن تؤتي أكلها ، ولسنا نعرف ما تم بها بعد انتهاء هذه الحروب ، وهل عادت الى العمل وانجاز ما كانت قد بدأت به من قبل .

- ١١ -

ولسنا نجد - من أجل تقييم هذا الكتاب الهام - أحسن من أن نلخص التقديم الهام الذي افتتح به الدكتور حسين فوزي الترجمة العربية حين وصفها بأنها « كتاب جامع لتاريخ العلوم العربية ، وسرد مستفيض لما ألف فيها

بالعربية والفارسية والسريانية والعبرية مما يدخل فعلا في تلك العلوم • »
ذلك الكتاب الذي لا يتردد مؤلفه في وصفه بأنه « مصدر عميق التبحر والاحاطة، ومرجع ضرورته ملحة مالم يظهر بعد مرجع أكمل وأشمل • » (٣١)

والكتاب قبل هذا سجل كامل لكل مـا يمس العلوم العربية مـن قريب أو بعيد : نشأتها ، واعلامها ، والاصول التي ترتد اليها ، ورجال الدول الذين شجعوا عليها ، وحركة الترجمة في عصر النهضة العربية الكبرى ، بل وحركة نقل العلوم العربية الى اللغات الاوربية من أول فجر (الرينسانس) حتى العصر الحاضر •• (٣١) انه سفر نادر في مادتـه واحاطته ، يؤرخ للعلـوم العربية تأريخا علميا دقيقا لا يهمل شاردة ولا واردة ، مما يجعلنا حيال موسوعة جذرية لعلوم العرب العاربة والمستعربة • (٣٢)

فاذا ما ذكرنا أن الكتاب لا يزال الوحيد في موضوعه الشامل ، وأن له هذه المكانة في تاريخ العلوم ، سعدنا كل السعادة لانه نقل الى اللغة العربية في ترجمة ممتازة جاءت « مثالا يحتذى في التزام الأصل شكلا وموضوعا • » (٣٢)

الحواشي :

---

١ ـ العنوان الأصلي للكتاب :
Aldo Mieli
La Science Arabe, et son rôle dans l'éuolution seientifique mondiale, Leiden, 1939
العلم العربي ، ودوره في التطور العلمي العالمي ، ليدن ١٩٣٩ •

٢ ـ أسس المجلة جورج سارتون سنة ١٩١٣ ، وتوقفت في أثناء الحرب العالمية الاولى ، ثم عادت الى الظهور سنة ١٩٢٠ • وهي منذ سنة ١٩٢٤ ، المجلة الرسمية لجمعية تاريخ العلم في كمبردج ، ومنذ سنة ١٩٣٥ ظهرت مجلة مكملة لها بعنوان اوزوريس Osoris • ينظر كتاب الدومييلي موضوع هـذا البحث ص ٦٠٧ •

٣ ـ أسسها الدومييلي في روما سنة ١٩١٩ ، ثم قـام بادارة تحريرهـا وهي منذ عام ١٩٢٨ ، المجلة الرسمية للمجمع العالمي لتاريخ العلوم • وقـد ظهر منها حتى عام ١٩٣٨ واحد وعشرون جـزءا • ونعتقد أنهـا توقفت عن الصدور منذ بدء الحرب العالمية الثانية •

٤ ـ ترك جورج سارتون مؤلفات كثيرة تتعلق كلها بتاريخ العلم أهمها كتابان هما « مقدمة لتاريخ العلم » وقد صدر بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٤٨ ، و « تاريخ العلم » وقد صدر منه مجلد وحيد في عام ١٩٥٢ ويتناول العلم القديم والعلم الاغريقي وقد ترجم الى اللغة العربية بعناية من الجامعة العربية • تنظر قائمة الكتب التي سجلها المؤلف في ص ٢٠ من الكتاب ، وفي ص ٢٢ وفي ص ٢٣•

٥ ـ عرف نجيب العقيقي به في كتابـه (المستشرقون) في أسطر قليلـة اكتفى فيها بالحديث عن عمله وعن مجلته ، ثم ذكر عناوين بعض من آثـاره وسنوات نشرها وذلك في الجزء الاول من (المستشرقون) ص ٣٩٨ •

٦ ـ ألدومييلي ، العلم عند العرب ، الترجمة العربية ص ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ •

٧ ـ نذكر على سبيل المثال أبحاث سارتون عن العلم العربي في الجـزء الثاني من (مقدمة تاريخ العلم) ، حيث خصص للعلم العربي حوالي أربعمائة صفحة أرخت لجوانب العلوم العربية المختلفة بشكل جيد ، نالت معه ثناء جميع الذين قرأوها باللغة الانكليزية لما بدا فيها من عمق وموضوعية •

٨ ـ نشرته دار القلم بالقاهرة في عام ١٣٨١/١٩٦٢ وحبذا لـو أعيـد طبعه لأنه نفد من الاسواق ، ولم يعد موجودا •

٩ ـ من تقديم الدكتور حسين فوزي للترجمة العربية •

١٠ ـ المدخل من ص ٩ ، الى ص ٦٦ من الترجمة العربية •

١١ ـ من ص ٦٧ ، الى ص ٥٠٢ ٠
١٢ ـ الملحق من ص ٥١٣ ، الى ص ٦١٤ ٠
١٣ ـ من مقدمة المؤلف ص ٣ ٠
١٤ ـ ص ١٤٤ من الكتاب ٠
١٥ ـ ص ١٤٥ من الكتاب ٠
١٦ ـ ص ١٤٦ من الكتاب ٠
١٧ ـ ص ١١ من الكتاب ٠
١٨ ـ ص ٧٢ من الكتاب ٠
١٩ ـ ص ٩٤ من الكتاب ٠
٢٠ ـ ص ١٢٦٩ من الكتاب ٠
٢١ ـ ص ١٣٢ من الكتاب وص ١٤٣ ، كذلك ٠
٢٢ ـ ص ١٤٨ و ص ١٧٩ من الكتاب ٠
٢٣ ـ ص ٢٩٣ من الكتاب ٠
٢٤ ـ ص ٣٣٩ من الكتاب ٠
٢٥ ـ من ص ٣٣٩ ، الى ص ٤٠٤ ٠
٢٦ ـ من ص ٤٠٥ ، الى ص ٤٢٢ ٠
٢٧ ـ ص ٤٢٣ وما بعد ٠
٢٨ ـ ص ٤٢٧ وما بعد ٠
٢٩ ـ ص ٤٥٣ وما بعد ٠
٣٠ ـ من ص ٤٨٥ ، الى ص ٥٠٢ ٠
٣١ ـ ص هـ من التقديم ٠
٣٢ ـ ص ط من التقديم ٠

الفصل الثالث عشر

تاريخ الادب الجغرافي العربي

للمستعرب كراتشكوفسكي (١)

ـ ١ ـ

الجغرافيا : علم يعنى بوصف سطح الأرض وما عليه من مظاهر ، ثم يصف الظاهرات المختلفة ويحللها ، ويربط بينها ، ليستخلص منها قوانين عامة ٠ (٢) لم ينشأ هذا العلم نشأة مفاجئة ، بل تعود جذوره الى العصور القديمة المصرية والبابلية ، ثم كان اليونان أول من درسه دراسة أصولية ، فقال أرسطو بكروية الأرض ، وحدد المناطق المعمورة منها ، كما عنى سترابون بالجانب البشري ، ومدى تكيف الانسان مع الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه ، ففتح آفاقا جديدة للدراسات الجغرافية ٠ (٢) وقد بلغت هذه الدراسات القديمة ذروتها حينما وضع بطليموس كتابيه المعروفين : الجامع (وقد ترجمه العرب باسم المجسطي)، والمدخل الى الجغرافيا (وقد ترجموه باسم جغرافيا) ٠(٣)

ولقد كانت الحضارة العربية حلقة الوصل بين القديم والحديث : فلقد حافظ العرب على أروع ما في التراث الذي خلفته الامم قبلهم ، وأضافوا اليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضاري ، ما تجمع لديهم من المعرفة الجغرافية : عن طريق الرحلات الواسعة التي سجلوا مشاهداتهم فيها بدقة ووضوح ، وعن طريق الاجهزة العلمية التي ابتكروها أو حسنوا فيها ، مفيدين من تفكيرهم الحر الذي لم تقيده أغلال كتلك التي فرضت على التفكير الاوربي طوال العصور الوسطى ... وهكذا خلّفوا لنا مجموعة ضخمة من الكتب الجغرافية ، ومن الآلات التي تستعمل من أجل هذا العلم ، واستمرت جهودهم في تطوير الفكر الجغرافي دون انقطاع حتى كان عصر النهضة الاوربية والكشوف البحرية العظيمة .

– ٢ –

عرف الاوربيون علوم أجدادنا الجغرافية ومخترعاتهم منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، واقتبسوا منها ، وكان للجغرافيا العربية أثر كبير في النهضة الاوربية الحديثة في ميادين الكشوف الجغرافية ، والملاحة البحرية ، والاجهزة العلمية ، والخرائط ، كما تسرب ، الى اللغات الاوربية ، الكثير من الكلمات بألفاظها العربية الاصيلة .(٤)

وكان أول اتصال مباشر للعلم الاوربي بالاصول العربية في أوائل القرن السادس عشر ، واستمر يتقدم ويخلص من الشوائب ، حتى غدا – بدءا من أوائل القرن التاسع عشر – دراسات علمية عميقة متقدمة بلغت المائة بين بحث ومقالة وكتاب .(٥)

– ٣ –

ويمثل كتاب المستعرب (اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي) – (تاريخ الادب الجغرافي العربي) قمة اهتمام العلماء الاوربيين بهذا العلم ، فلقد أنفق صاحبه في اعداد مادته حوالي نصف قرن من عمره (بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩٤٥) (٦) مما هيأه ليكون أنسب من يقوم بكتابة تاريخ علم الجغرافيا عند العرب .

صدر الكتاب في موسكو باللغة الروسية عام ١٩٥٧ ، وترجم الى اللغة العربية(٧) ، وطبع في مجلدين ضخمين يقعان في أكثر من ألف صفحة .

– ٤ –

والمستعرب كراتشكوفسكي (المولود عام ١٨٨٣ ، والمتوفى عام ١٩٥١) ، روسي الاصل ، ترجم لنفسه بالعربية ترجمة طريفة نشرها عام ١٩٢٧ بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ،(٨) وها نحن أولاء نقتبس منها ما يلي :

« ولدت سنة ١٨٨٣ في ويلنا عاصمة ليتوانيا القديمة ، وكان والدي رئيسا لمدرسة المعلمين فيها . لم يمض من عمري سنتان حتى ارتحلت عائلتي الى طشقند ، حيث عين والدي رئيسا لمدرسة المعلمين فيها ، وبعد مدة وجيزة عين ناظرا للمدارس في آسيا الوسطى . تعلمت الاوزبكية لان حاضنتي كانت أوزبكية الاصل ، وتأثرت بما وقعت عيني عليه في المساجد والاسواق الشرقية وتنوع الامم والطوائف واختلاف الالبسة . وكان ذلك سببا في أني غدوت ميالا الى الشرق .

في سنة ١٨٨٨ ، عاد والدي الى ويلنا وصار مديرا للمكتبة العمومية ، ولم

يزل كذلك حتى فاجأته المنية سنة ١٩٠٣٠ كنت ضعيف الصحة تتناوبني الامراض لذلك عشت مع أمي في ملك لنا ، كانت فيه خزانة كتب كبيرة جمعها أبي وجدي ، تعلمت القراءة فيها ، وقرأت كثيرا من المؤرخين والقصاصين في اللغة الروسية ٠

وفي سنة ١٨٩٣ دخلت المدرسة الاعدادية (الجيمناز) في ويلنا ، وأكملت دروسها سنة ١٩٠١ ، وقد حاولت في الصف الاخير أن أتعلم العربية فلم يتيسر لي ذلك ٠

لم أتجاوز السادسة عشرة حتى قويت ميولي وتعينت غرائزي ، وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتي ، فرأيت ـ بعد بحث طويل ـ أن العلم يجذبني اليه ، وأن الشرق ميدان أفكاري ، لذلك دخلت في سنة ١٩٠١ قسم اللغات الشرقية في جامعة لينينغراد ، وانضمت الى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الاسلامي، فصرفت أربع سنوات في دراسة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية ٠ كان عمدتي في اللغة العربية العلامة (روزن Rosen) كما كنت أختلف الى بعض أولاد العرب الساكنين في روسية ٠

بعد انتهاء دروسي في الجامعة ، كنت أواصلها تحت أنظار البارون روزن المومأ اليه خلال سنتين ، وفي أواخر سنة ١٩٠٧ قدمت الفحص لنيل رتبة (الماجسطروس) في الآداب العربية ٠

وفي صيف تلك السنة أرسلتني نظارة المعارف وجامعة بطرسبورغ الى الشرق العربي لتعلم اللغة العربية والتعرف الى علماء العربيات والنظر في عوائد أبناء الشرق وآدابهم ٠ وقد قضيت سنتين بعيدا عن الروسية زرت خلالها مدن سورية وفلسطين ومصر ولبنان ، زرت المكاتب المشهورة وجلست أمام العلماء المكرمين ، واختلفت الى المدارس الكبيرة كالكلية اليسوعية في بيروت والجامع الازهر والجامعة المصرية ، وزرت في سياحاتي المكتبة الظاهرية في دمشق ،

والمكتبة الخالدية في القدس ، ومكتبة الموارنة في حلب ، والمكتبة الخديوية في القاهرة ... وتعرفت خلال اقامتي في الشرق العربي الى كثير من علماء العرب وأدبائهم وصحافييهم ولا أنسى لطفهم وعنايتهم مدى الدهر ٠ عرفت جرجي زيدان ، وأحمد زكي باشا ، والاستاذ نالينو الايطالي ، والسيد خليل السكاكيني ولويس شيخو واسعاف النشاشيبي ومحمد كرد علي ٠ واستفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي ٠ ولا أزال أرجو أن يرزقني الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ، ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية ٠

وبعد رجوعي الى الروسية عينت سنة ١٩١٠ مديرا لمكتبة فرع اللغات الشرقية في كلية لينينغراد ، وصرت معلما ثانيا للعربيات فيها ، وفي سنة ١٩١٤ سافرت الى أوربا لدراسة بعض المخطوطات في مكاتبها المشهورة ٠

في سنة ١٩٢١ انتخبت عضوا عاملا في أكاديمية العلوم الروسية في قسم التاريخ واللغات ، وانتخبت ـ في السنة التالية ـ كاتما لاسرار القسم المذكور ، وانتخبت في سنة ١٩٢٣ عضوا مراسلا في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان ذلك أكبر شرف نلته مدة عمري ، وصار هذا التشريف مساعدا لي ومشجعا ، ورأيت فيه تقديرا أتفاخر به لاتعابي في التعليم والبحث منذ عشرين سنة »(٩)٠

لقد استمر كراتشكوفسكي يوالي نشاطه العلمي بالتدريس في الجامعة وبأكاديمية العلوم السوفيتية ناشرا أبحاثه العديدة القيمة في دراسة الاسلام والحضارة العربية،ومتمتعا باحترام وتقدير الدوائر العلمية في العالم بأجمعه٠ كما لن ينسى له مواطنوه وتلامذته ما أبداه من شجاعة وانكار للذات أثناء حصار الالمان لمدينة لينينغراد في الحرب الاخيرة ، وذلك لمحافظته على نفائس الكتب والمخطوطات في الجامعة ٠ هذا وقد وافت المنية المستعرب الكبير كراتشكوفسكي في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥١ ٠ (١٠)

وتقديرا لجهوده العلمي وخدمته الكبرى للعلم السوفييتي فقد قرر مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي ، ورئاسة أكاديمية العلوم السوفيتية طبع منتخبات آثاره ، فظهرت في ستة مجلدات ضخمة في الفترة ما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ، وأشرف على نشرها نخبة من كبار علماء الاستشراق السوفييت من تلاميذه وزملائه .

— ٥ —

مؤلفات كراتشكوفسكي عديدة ، وهي تدور حول تاريخ الشعر العربي ونقده ، وتاريخ آداب اللغة العربية ، والتراث العربي عامة وحركة الاستعراب الروسي ،(١١) والمخطوطات العربية ،(١٢) والاسلام والحضارة العربية . وقد قام بترجمة الايام لطه حسين ، ومختارات من أدب الكتاب العرب ، ورسالة الملائكة للمعري . وحقق ونشر بعض الكتب العربية كرسالة الملائكة ، والمنازل والديار لاسامة بن منقذ ، وكتابي البديع وطبقات الشعراء لابن المعتز ، وديوان ذي الرمة ... وله كثير من الابحاث المتعلقة بالادب والنقد ،(١٣) يضاف الى ذلك كله تتلمذه على بعض المستشرقين ، وتعليمه واشرافه على بعضهم الآخر .

— ٦ —

أما كتابه (تاريخ الادب الجغرافي العربي) فموسوعة علمية فريدة لم يكتب لها مثيل من قبل ، يقع في أصله الروسي في مجلد ضخم (٨٠٠ صفحة يضاف اليها حوالي ،مائة صفحة فيها ثبت المصادر والفهارس) ، وهو في اللغة العربية في قسمين بلغت صفحاتهما ألف صفحة ، وتضمنت أربعة وعشرين فصلا ، فضلا عن مقدمات المترجم والناشر والمؤلف ، ومدخل الكتاب ، وملحقات فيها ثبت

بالمراجع ، وتعليق وفهارس مختلفة بأسماء الاماكن والقبائل والشعوب والكتب والرسائل ، ونقدم فيما يلي عناوين فصول الكتاب :

الفصل الاول : الجغرافيا عندالعرب قبل ظهورالمصنفات الجغرافية الاولى .
الفصل الثاني : بداية الجغرافيا الرياضية عند العرب .
الفصل الثالث : جغرافيو المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى .
الفصل الرابع : الجغرافيون اللغويون ورحالو القرن التاسع .
الفصل الخامس : المصنفات العامة في الجغرافيا في القرن التاسع والجغرافيا الاقليمية في القرنين التاسع والعاشر .
الفصل السادس : المسعودي والرحالة الذين زاروا الاصقاع الشمالية في القرن العاشر .
الفصل السابع : المدرسة الكلاسيكية لجغرافيي القرن العاشر .
الفصل الثامن : جغرافيو القرن العاشر الآخرون .
الفصل التاسع : البيروني وجغرافيو القرن الحادي عشر بالمغرب .
الفصل العاشر : جغرافيو القرن الحادي عشر والثاني عشر بالمغرب .
الفصل الحادي عشر : جغرافيو القرن الثاني بالمشرق .
الفصل الثاني عشر : ياقوت ومؤلفو النصف الاول للقرن الثالث عشر .
الفصل الثالث عشر : النصف الثاني من القرن الثالث عشر .
الفصل الرابع عشر : القرن الرابع عشر .
الفصل الخامس عشر : موسوعات عصر المماليك . أسفار ابن بطوطة .
الفصل السادس عشر : ابن خلدون والجغرافيا في الغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .
الفصل السابع عشر : المقريزي وجغرافيو مصر الى الفتح العثماني .(١٤)

الفصل الثامن عشر : الجغرافيا الاقليمية بالشام وفلسطين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ·

الفصل التاسع عشر : الادب الجغرافي الفارسي من القرن الخامس عشر الى الآونة الحاضرة ·

الفصل العشرون : الجغرافيا الملاحية لدى العرب والترك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ·

الفصل الحادي والعشرون : الادب الجغرافي التركي من القرن الخامس عشر الى القرن التاسع عشر ·

الفصل الثاني والعشرون : المصنفات الجغرافية للقرن السادس عشر بسوريا والاقطار المجاورة ·

الفصل الثالث والعشرون : القرن السابع عشر ·

الفصل الرابع والعشرون : القرن الثامن عشر

جاء الكتاب ممتازا في دقته وشموله وعمقه وتناوله جميع أطراف هذا الموضوع الهام من موضوعات الحضارة العربية : فهو « عرض منظم للادب الجغرافي ابتداء من التصورات الجغرافية الاولى عند العرب ، التي نلتقي بها في أقدم آثار الشعر الجاهلي وفي القرآن ، ثم تتبع لميلاد الجغرافيا الرياضية عند العرب ، معتمدا في ذلك على المصادر الاصلية وعلى الدراسات الحديثة ، مع بحث مسألة علاقتها بالعلمين اليوناني والهندي ، ويلي ذلك مفصل لميلاد بقية فروع الجغرافيا الاخرى ، كالجغرافيا الوصفية ، والرحلات ، والجغرافيا البحرية والعامة والاقليمية، مع ذكر مراكزها ومدارسها واتجاهاتها ، وأنماطها المختلفة، حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، مع عناية بترجمة معظم الشخصيات الكبيرة ، وأصحاب الاصالة ، وتوضيح الروابط والمؤثرات التي تركت أثرها

عليه ، مع تحليل دقيق لعدد هائل من مصنفات ما يزيد على ستين مؤلفا من العلماء العرب الاعلام وثبت بالمراجع يكاد يستغرق جميع المادة المتعلقة بهذا الموضوع ابتداء من العصور الوسطى الى أيامنا هذه ، مع تقدير نقدي للمتون التي نشرت والابحاث العلمية التي عملت حولها · »(١٥)

— ٧ —

وها نحن أولاء نستخلص من المقدمة التي كتبها كراتشكوفسكي أهم ميزات الادب الجغرافي العربي :

١ — المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية أمر مسلم به من الجميع في عصرنا هذا ، وقد وضح بجلاء في الخمسين عاما الاخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لنفسها طرقا ومسالك جديدة في العصور الوسطى ولا زالت حية الى أيامنا هذه ، أعني علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا · أما فيما يتعلق بالادب الفني العالمي فان العرب قد أسهموا بنصيب وافر يمثل جزءا أساسيا من التراث العام للبشرية ، كما امتد تأثيرهم كذلك الى عدد كبير من المصنفات والفنون الادبية التي نشأت في بيئات غير عربية · (١٦)

٢ — لقد اكتسب الادب الجغرافي والتاريخي العربي أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة ، فهو منذ عهد بعيد المصدر الاساسي والموثوق به في دراسة ماضي العالم الاسلامي ، اذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي العلم والدين، وللغويين وعلماء الطبيعة ·(١٦)

٣ — لا يقتصر محيط الادب الجغرافي العربي على البلاد العربية وحدها ،

بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الاولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب أو التي تجمعت لديهم معلومات عنها ٠ وذلك بنفس الصورة المتنوعة التي وصفوا بها بلاد الاسلام ٠(١٦)

٤ ـ قد يحدث أحيانا أن تمثل المادة الجغرافية العربية المصدر الوحيد أو الاهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما ٠(١٦)

٥ ـ يوشك هذا الادب أن يكون المعين الاول الذي يرده مختلف المتخصصين من غير المستعربين ، وأن يصل الاهتمام به الى درجة عالية ٠ يبرر هذا الاهتمام ، غنى هذا الادب الهائل ، ويزيد في الاهتمام به طابعه الفني أحيانا ٠ (١٧)

٦ ـ هنالك اتجاهان أساسيان في الادب الجغرافي العربي :

آ ـ اتجاه يولي وجهه شطر العلوم الدقيقة ، بالمعنى الذي نفهمه حاليا اذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ٠

ب ـ واتجاه يولي وجهه شطر الادب الفني بالغا ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الابداع ٠

ولقد أدرك العرب أنفسهم هذا الطابع المزدوج لعلم الجغرافيا ، وبينوه بدقة ، في تصنيفهم للعلوم ، لقد ضموا الجغرافيا الى العلوم الدقيقة ، وجعلوها أقرب ما تكون الى الفلك ، وهم لم يتنكبوا الصواب في ذلك ٠٠٠ وتشكل بموازاة ذلك منهج الجغرافيا الوصفية التي يرتبط بها ارتباطا وثيقا وهو قصص الرحلات ، ان المنهج الذي يسترعي النظر بغزارة مادته ، ويسبغ عليه طابعا مميزا ، ويعطيه شكلا خاصا ، يصعب ايجاد مثيل له في آداب الامم الاخرى ٠(١٨)

٦ ـ اتساع رقعة الدولة العربية ، والمهام الادارية التي نشأت عن مصالح الدولة ، والحج ، والرحلات التي قام بها العلماء والتجار ، والرحلة في طلب

العلم ، تلك هي أهم العوامل التي ساعدت على انبعاث علم الجغرافيا ونموه وازدهاره لدى العرب ٠ (١٩)

٧ ـ قدر العلم الاوربي منذ البداية الادب الجغرافي العربي ٠ فمنذ بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر ، أي عندما كان ذلك الادب أبعد من أن يكون معروفا في حجمه الحالي ، كتب مؤرخ الحروب الصليبية (بروتز) يقول : « ليس في وسع الادب الاوربي لذلك العهد أن يقدم مثالا يفضل مؤلفاتهم، ويكفي في هذا الشأن تصفح ما خلّفه المؤرخون العرب ، ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه في التاريخ في أوربا ، ليبدو لاول وهلة ، ودون تردد ، أين يكمن الفهم والاحساس التاريخي والوعي السياسي والذوق في الشكل والفن في العرض ٠»(٢٠)

٨ ـ وضح حاليا لدى العلماء الاوربيين بجلاء الاهمية الاساسية للادب الجغرافي العربي ، لقد قدم مادة جغرافية ، عرف العرب فيها معلومات عن مدى هائل من الارض : لقد عرفوا أوربا بأجمعها باستثناء أقصى شماليها ، وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا ، كما عرفوا افريقيا الى خط العرض ١٠ درجات شمالا ، وساحل افريقيا الشرقي ، وتركوا لنا وصفا مفصلا لجميع البلدان من اسبانيا غربا الى تركستان ومصب السند شرقا ، مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة ، وللمناطق المزروعة ، والصحارى ، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعارف ٠(٢١)

٩ ـ لم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب، بل أيضا الحياة الاجتماعية ، والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية ، كما لم تقتصر معرفتهم على بلاد الاسلام وحدها ، بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان ٠(٢١)

١٠ ــ اذا حاولنا حصر مزايا الادب الجغرافي العربي وعيوبه فانه يجب الاعتراف على أية حال بأهميته القصوى ، والتنوع الكبير في فنونه وأنماطه • ففيه تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات ، كما تقابلنا الكتب العلمية التي وضعت من أجل عمال الدواوين وجمهرة المسافرين • وهو يقدم متعة ذهنية كبرى اذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة ، والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة ، والامتاع والحيوية من جهة أخرى ، وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص • ولقد أثار هذا الادب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طورا واقعي وطورا أسطوري ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة ، ولذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد لها مثيل في أدب أي شعب معاصر للعرب •(٢٢)

١١ ــ أثبت البحث العلمي المعاصر أن مادة الادب الجغرافي العربي أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى في أيامنا هذه ، بل الواقع أنها أخذت الآن فقط تدخل بعض الشيء في نطاق البحث العلمي بصورة أوسع •(٢٣)

١٢ ــ اعترف العلم الحديث بأهمية الادب الجغرافي في الاطار العام للدراسات العربية فظهرت أبحاث سلفستر دوساسي وفرين ، ورينو ووستنفلد وكريمر وشفارتز،وكارادوفو وكرامرس وروسكا وشوي وبروكلمان وسارطون ••• كما ظهرت في القرن العشرين مجموعتان من النصوص المنتخبة من ميدان الجغرافيا كمقدمة لمن يودون الخوض في مصادره الاصلية • المجموعة الاولى نشرها الخبير الكبير في هذا الفن (دو خويه De Goeje) عام ١٩٠٧ ، والثانية نشرها المستعرب الفرنسي بلاشير عام ١٩٣٢ •(٢٤)

ــ ٨ ــ

حدد كراتشكوفسكي أغراض كتابه بما يلي : « تقديم لوحة عامة لتطور الادب الجغرافي ولشخصياته وآثاره المختلفة وذلك على ضوء الاستقراءات التي وصل اليها البحث المعاصر ، والمساهمة في تقديم العون اللازم كمرجع أولي بالنسبة للموضوعات المختلفة التي يعالج الكلام عليها » •(٢٥)

وقد عرف بالكثيرين من الجغرافيين العرب نذكر من أعلامهم : الكندي ، والبتاني ، والخوارزمي ، والجاحظ ، والدينوري ، ومحمد بن موسى ، وابن خرداذبة ، واليعقوبي ، والبلاذري ، والمقري ، وابن ماجد ، والفيروزابادي ، وابن عساكر ، وابن الجوزي ، والسبكي ، وابن دقماق ، وابن اياس ، وابن الوردي ، والسيوطي ، والمقريزي ، وابن خلدون ، وابن بطوطة ، والقلقشندي، وقدامة ، وأبا دلف ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ، والبيروني ، والادريسي ، وابن جبير ، والزمخشري ، والقزويني ، وأبا الفداء ، والنويري ، والعمري •••

كما أن في الكتاب تعريفا بأكثر من مئتي مؤلف في مادة الجغرافيا نذكر منها : الآثار الباقية في القرون الخالية للبيروني ــ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ــ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ــ أخبار الزمان للمسعودي ــ ارشاد الاريب لياقوت ــ أشكال البلاد للبلخي ــ اشتقاق البلدان لابن الكلبي ــ الاعلاق النفيسة لابن رستة ــ الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد ــ الاكليل للهمداني ــ تاج العروس للزبيدي ــ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ــ تاريخ دمشق لابن عساكر ــ التبصر بالتجارة للجاحظ ــ التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية للنابلسي ــ تحفة النظار في غرائب

الامصار وعجائب الاسفار لابن بطوطة ـ تحرير ما للهند من مقولة للبيروني ـ تقويم البلدان لابي الفداء ـ الدارس في أخبار المدارس للنعيمي ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ـ الخطط لمحمد بن يوسف الكندي ـ المواعظ والاعتبار للمقريزي ـ رحلة ابن خلدون في الغرب والشرق ـ رسائل اخوان الصفا ـ رسم المعمور من الارض للكندي ـ صبح الاعشى للقلقشندي ـ صور الاقاليم للبلخي ـ عجائب البلدان للقزويني ـ الفهرست لابن النديم ـ كتاب أخبار الرسل والملوك للطبري ـ كتاب الاشارات لمعرفة الزيارات للهروي ـ التنبيه والاشراق للمسعودي ـ الحيوان للجاحظ ـ صورة الارض لابن حوقل ـصورة الارض للخوارزمي ـكتاب العبر لابن خلدون ـكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، وللاصطخري وللادريسي ٠٠ المعجب في تلخيص أهل أخبار المغرب للمراكشي ـ معجم البلدان لياقوت ـ معجم ما استعجم للبكري ـ مقدمة ابن خلدون ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي ـ نفح الطيب للمقري ـ نهاية الارب في فنون الادب للنويري ٠

ـ ٩ ـ

خاتمة :

يمتاز كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) لكراتشكوفسكي بميزات هامة ثلاث :

الاولى : أنه أضخم وأكمل كتاب علمي صنف في موضوعه حتى الان ، كتاب مؤلف بدقة علمية ، وموضوعية دقيقة ، ومنهج علمي صارم ٠

الثانية : أنه استطاع ـ اعتمادا على المادة العلمية الضخمة التي

استوعبها ـ أن يؤكد مكانة الحضارة العربية في تاريخ البشرية ، والدور المرموق الذي لعبه علم الجغرافيا العربي في هذا الميدان ٠

الثالثة : حب للعرب عميق ، واعجاب بتراثهم المتنوع في مختلف الميادين الأدبية منها والعلمية ، وهو حب يتجلى في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب من جهة ، وفي كتاب آخر لكراتشكوفسكي (مع المخطوطات العربية) من جهة أخرى ٠

لذلك لا يملك القارىء العربي نفسه من أن يحيى من أعماق القلب هذا المستعرب العظيم ، ومن أن يقدر تقديرا عميقا ما بذل من جهود في خدمة علم الجغرافيا العربي ، جهود تجلت في هذا الكتاب القيم ، الذي يعتبر موسوعة ممتازة في ميدانه ٠

الحواشي :

١ ـ عنوان الأصل الروسي للكتاب كما يلي :

Ignate Ulianovich Krachkovski
ISTORIA
Arabskoi Geograficheskoi Literetusy
Moskova - Leningrad - 1947

٢ ـ الموسوعة العربية الميسرة ، الطبعة الاولى ١٩٦٥ ، دار القلم القاهرة ص ٦٣٤ ، مادة جغرافية ٠

٣ ـ الدكتور محمد محمود الصياد ، الفصل الخاص الذي كتبه عن الجغرافيا ، في كتاب (أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية) ص ٣١٢و٣١٣

٤ ـ تفصيل ذلك في الفصل الخاص الذي كتبه الدكتور الصياد ، والمنوه به في الحاشية السابقة ، وهو في حوالي خمسين صفحة من ص ٣٠٥ ، الى ص٣٥٣

٥ ـ نشير هنا بصورة خاصة الى كتابي المستشرق (رينو) جغرافية أبي الفداء Géagraphied' Aboulféda و ـ مقدمة عامة لجغرافية الشرقيين Intraduction à le géographie des orientaux, Paris, 1848.

وكتاب أحمد نفيس

Nafis Ahmed, Muslim Contribution Geography Colcuta 1947 .

والذي ترجمه فتحي عثمان بعنوان (جهود المسلمين في الجغرافيا) القاهرة ١٩٥٧ ، وكذلك ما كتب في كتابي العلم عند العرب لألدوميلي وتاريخ الفكر الأندلسي لبلانثيا ، وقد عرفنا بالكتابين في بحثين من أبحاث هذا الكتاب ٠

٦ ـ صلاح الدين عثمان هاشم ، في مقدمته لترجمة الكتاب ص ٦ ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في مقالته عن كراتشكوفسكي بمجلة الهلال عدد يناير ١٩٧٦ ، ص ٥٦ و ٥٧ ٠

٧ ـ من اختيار الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ٠ وقد قام بترجمته صلاح الدين عثمان هاشم ، وطبع في مجلدين ضخمين بلغت صفحاتهما حوالي ألف صفحة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة الجزء الاول ١٩٦٣ و الجزء الثاني ١٩٦٥ ٠

٨ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٧ ، المجلد السابع ص (١٢٢ ـ ١٢٦) ٠

٩ ـ لخصنا ذلك تلخيصا شبه حرفي عن المقدمة التي كتبها صلاح الدين عثمان هاشم لكتاب كراتشكوفسكي الذي نعرف به هنا ٠

١٠ ـ صلاح الدين عثمان هاشم ، مقدمة الكتاب ص ٥ ٠

١١ ـ لهكتاب بعنوان (من تاريخ الاستعراب الروسي) وصدر عام ١٩٥٠ ٠

١٢ ـ له كتاب بعنوان (مع المخطوطات العربية) صدر عام ١٩٤٥ ، وترجم الى لغات كثيرة بينها العربية ٠

١٣ ـ دكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، في مقالته بمجلة الهلال المنوه عنها في الحاشية رقم ٦ ، ص ٥٥ و ٥٦ ٠

١٤ ـ بهذا الفصل يبدأ المجلد الثاني من الكتاب ٠

١٥ ـ ملخص من مقدمة الناشر (غ ٠ تسرتيلي) ص ١٠ للكتاب ٠

١٦ ـ ملخص من الصفحة ١٧ من الكتاب ٠

١٧ ـ ملخص من الصفحة ١٧ والصفحة ١٨ من الكتاب ٠

١٨ ـ ملخص من الصفحة ١٨ من الكتاب ٠

١٩ ـ ملخص من الصفحة ١٨ و ص ١٩ من الكتاب ٠

٢٠ ـ ملخص من الصفحة ٢١ من الكتاب ٠

٢١ ـ ملخص من الصفحة ٢٢ من الكتاب ٠

٢٢ ـ ملخص من الصفحة ٢٤ و ص ٢٥ من الكتاب ٠

٢٣ ـ ملخص من الصفحة ٢٥ من الكتاب ٠

٢٤ ـ ملخص من الصفحة ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ ٠

٢٥ ـ ص ٣٧ ٠

الفصل الرابع عشر

الحضارة العربية

للمستعرب الفرنسي جاك ريسلر ٠(١)

- ١ -

أعجبت بهذا الكتاب اعجابا لا حد له ، وسعدت بقراءته والحياة معه ثم قمت بترجمة القسم الهام منه ، وهو القسم الذي يتحدث عن أثـر الحضارة العربية في الحضارة الغربية ٠(٢)

مؤلف الكتاب هو المستعرب جاك س٠ ريسلر ، وهو كما يعرف به علـى الغلاف « أستاذ بالمعهد الاسلامي بباريس » ٠ اننا لا نعرف الكثير عنه ، ولكنه يبدو لنا من كتابه مطلعا اطلاعا واسعا على حضارتنا وتراثنا بالاضافة الى اطلاعه على الثقافات الاوربية ٠

طبع الكتاب عام ١٩٦٢ ، وهو يقع في ٢٤٢ ص ، مطبوعة بحروف صغيرة وهو مبوب تبويبا دقيقا وملائما ، ويقع في خمسة أقسام ومقدمة ٠

القسم الأول : الأسس التي قامت عليها الحضارة العربية ٠ وفيه حديث مفصل عن العرب في العصر الجاهلي ، ثـم عن شعوب الشرق الأدنى ، وعـن الاصول المادية والمعنوية للحضارة ، ثم عن الرسول العربي (ص) وعن القرآن والدين ، والفكر الاسلامي ، وعن انتشار الاسلام ، وعن الاخلاق والعادات ، وتطور الدولة والأمة ٠(٣)

القسم الثاني : يعطيه العنوان التالي : ذروة الحضارة العربية ، وفيه حديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية والفنية ابان ازدهار الحضارة العربية ٠ ثم عن الصناعة والزراعة والتجارة ، وعن بغداد وبلاط الخلفاء فيها ، وعن الاسلام في الأندلس ٠(٤)

القسم الثالث : بحث مفصل وقيم جـدا عن (أثـر الحضارة العربية في الحضارة الغربيـة) وفيه تعريف واف بالآداب والفنون والعلـوم البحتـة والتطبيقات العملية ، والطب والفلسفة ، مـع أثـر جميع هـذه الامور في الحضارة الاوربية ٠ (٥)

القسم الرابع : وهو تحت عنوان غروب الحضارة العربية ٠ انه يبحث – بعد حديث عن الاندلس وانقسامها الى ممالك الطوائف – في أسباب ضعف الحضارة العربية ،ثم في الاشعاعات المتألقة الاخيرة ، ثـم في الدول الاخـيرة (المغولية والتركية والمملوكية ، ومملكة غرناطة) ٠(٦)

- ٢ -

ولعل خير ما يعرفنا بالكتاب أن نقرأ صفحات منه ٠ وهـا نحن نقـدم

بعض ما عربناه من القسم الثالث منه ، ذلك القسم الذي خصصه المؤلف للحديث عن (أثر الحضارة العربية في الحضارة الغربية) ٠

في الأدب : (٧)

كانت تكتب على واجهة جامعات الأندلس : « دعائم الدنيا أربع : علم الحكماء ، وعدالة العظماء ، وصلوات الابرار ، واقدام الشجعان » (٨) ، ولم يكن احتلال المعرفة المكانة الاولى في هذه الجملة مصادفة ، ذلك أنه بوساطة العلم ، قد تأصلت الحضارة العربية في اسبانية ، بشكل دائم لم تمح ذكراه أبدا ٠

ويكشف الشعر الغنائي العربي عن عامل تمثل المسيحيين الاسبان للموشحات ، وهو عامل كان من القوة بحيث نجده دون انقطاع في الشعر الشعبي القشتالي ، وفي التراتيل المسيحية ٠

وتدين (أغنية رولان Le chouson de Roland) التي ظهرت سنة ١٠٨٠ م ، والتي تؤلف آية في أدبنا الغربي البدائي ، تدين بوجودها الى الصلات الحربية التي كانت تقوم بصورة مستمرة على جانبي البيرينة ٠ ولقد تلقى (بوكاشيو وتشوسر Baecace Chauser) وكثيرون من القصاصين الالمان ، التأثير العربي بوساطة اسبانيا ٠ والاندلس هي التي أوحت الى (تينسون وبراوننغ Tennyson, Brouning) أجمل أشعارهما ٠ أما الكوميديا الالهية لدانتي ، فمدينة للفيلسوف والصوفي ابن عربي (من القرن الثالث عشر الميلادي) بدين كبير ، وهي مملوءة بالأوصاف العربية والاسلامية ، في تلك المقاطع التي تروي الرحلة الى الممالك السرية في السماء والجحيم ٠ كذلك فان جوهر خيال رواية (دون كيشوت) عربي ، فمؤلفها (سرفانتس

Cervantès) ، كان قد سجن في مدينة الجزائر ، وكان يقول : « لقد كتب كتابي هذا أولا باللغة العربية ٠ » وقصة (روبنسون كروزو Robinson Crusoé) لدانييل ديفو Daniel Defoe) ، تستلهم رواية (حي بن يقظان) الفلسفية لابن الطفيل ٠

في الفن : (٩)

لقد كفى الحضارة العربية قرن من الزمان لكي تتغلب على الزمن المفقود الذي كان يفصلها عن الحضارات السابقة ٠ كان هؤلاء العرب البداة ، المتعودون حياة الصحراء ، يملكون – والى مستوى عال – ميلا غريبا للاطلاع على المعارف ، واستعدادا مدهشا للتمثل والتكيف ٠ لقد تم كل شيء ، كما لو أن استعدادات نائمة ، وذكريات ساكنة ، قدكانت تستيقظ فيهم ٠ والحقيقة أنهم ، وهم ورثة الشعوب المجاورة ، والاغنياء بارث الحضارات الفارسية والهندية والصينية والاغريقية والرومانية ٠٠ لم يكن تطورهم لينتظر سوى الظروف المناسبة لكي يتجلى ويظهر ٠

لم تكن نتيجة تأثر العرب بالفنون السابقة تقليدا حرفيا لمفاهيم الشعوب الفنية التي غلبوها ٠ ذلك أن العرب قد خلقوا – على العكس من ذلك – فنا أصيلا متميزا ، مترجما في الحجر ، الميول الجمالية الناشئة عن حالتهم الروحية الجديدة ٠٠ لقد كان ذلك الفن حصيلة رائعة أعطتهم اياها : الملاحظة والتأمل والحب والاعتقاد ٠

لقد أثر طراز عمارة مسجد ابن طولون في القاهرة ، في الاسلوب القوطي، وقدم ايحاءات لابنية كاتدرائيات العصور الوسطى في العقود المدببة الموجودة فيه ، وفي الدعامات الضخمة التي حملت أروقته ٠

ويظهر أخيرا أن مسجد ابن طولون ، هو الذي ألهم الاساتذة المعماريين الذين تصوروا كاتدرائية شارتر ، بنوافذها ذات الزجاج الملون ، وشباكها الحجرية ذوات الزخارف الوردية أو النجمية • كما يمكن أن نسجل — أثناء التفتيش عن أثر الفن العربي في الغرب — أن أبراج أجراس الكنائس وأبراج الانذار في القلاع المسيحية، تمثل — في الغالب — مفهوم المنارة العربية الأساسي •

الترجمات : (١٠)

لقد تعجب أحد أباطرة بيزنطة عندما رأى ورود حق شراء مخطوطات اغريقية بين الشروط التي فرضها بربري منتصر(*) • كان هذا البربري — الذي يهفو الى العلم — قائدا كبيرا • لقد حصل الخلفاء العرب ، بهذا الشكل،وبأشكال أخرى ، على الكتب الاغريقية التي تعالج العلوم والرياضيات والطب • ولم يكتفوا بالمؤلفات الاغريقية ، ذلك أن المنصور قد أمر — في عام ٧٣٣ م بترجمة مؤلفات فلكية هندية مكتوبة منذ عام ٤٢٥ قبل الميلاد •

وفي عام ٨٣٠ م (وهذا التاريخ يستحق أن يسجل) باشر العرب عملية ترجمة ضخمة من الكتب الاغريقية • لقد كانت الترجمات تتم — حتى تلك السنة — بمبادرات فردية • أما المأمون فقد جمع المخطوطات للترجمة ، وقيد مجموعة من التراجمة في (دار الحكومة) ووضعهم تحت امرة حنين بن اسحاق ، الطبيب المسيحي ، والعلامة الكبير في الوقت نفسه • ولقد ترجم حنين نحو مائة من مؤلفات جالينوس ومدرسته الى اللغة السريانية و ٣٩ مخطوطة أخرى الى اللغة العربية • وعلى الصفحات الاوليات لبعض من هذه المخطوطات الاخيرة تتردد أسماء ابقراط وديسقوريوس وأفلاطون وأرسطو ••• وكانت تلك نقطة الانطلاق للاكتشافات العقلية •

(*) كان الرومان والبيزنطيون يلقبون أعداءهم جميعا بالبرابرة •

ولقد أمكن — بفضل الترجمات — الاحتفاظ بمخطوطات مفقودات وصلتنا ترجماتها العربية ، ان النقل في هذه الحالة يعدل الخلق •هذا هو شأن كتب جالينوس السبعة في الفلك ، وكتابي ابولينيوس في المخروطيات ، وكتاب هيرون في الميكانيك ، وكتاب علم الغازات (لفيلون Phélon) • فلقد شاء القدر أن يكون علم الاغريق متألقا في سورية لدى وصول العرب اليها • يضاف الى ذلك أن التراجمة قدّموا فائدة هامة : لقد شرحوا وفسروا للغرب نقاط النصوص الاغريقية الغامضة • ان التراجمة — وهم العلماء المحنكون المزودون بالمصادر — كانوا يحملون الى العمل مساهمة معرفتهم الخاصة وتبحرهم الشامل • لقد كان نجاحهم كبيرا الى حد أن أحد الخلفاء قد أرهق بيت المال ، عندما كان يدفع ، بوزن الذهب ، أجر أعمال هؤلاء العلماء الكبار • ولكن العمل مضى جيدا في طريقه ، فمنذ منتصف القرن التاسع ، أصبح بامكان العلماء العرب أن يأخذوا — بلغتهم الخاصة — علما بأعمال الفلاسفة الاغريق الرائعة ، مثلما كان الامر مشابها بالنسبة للمؤلفات العلمية الهندية والفارسية والسريانية •

في الكيمياء : (١١)

لقد أعطى (برتلو) في تاريخه عن (الكيمياء في العصور الوسطى)، ترجمة فرنسية لمطول (جابر بن حيان) ، وأبان أنه اذا لم يكن حجر الفلاسفة وأكسير الحياة ، الغاية الاساسية لابحاث السيميائيين العرب ، فانهم قد حققوا اكتشافات حقيقية وعلمية • كانت طريقتهم أكثر الطرائق علمية ، وكانت تقوم على الملاحظات الدقيقة ، وعلى المراقبة المستمرة ، لقد ولد السيميائيون اصطناعيا خضوع الظاهرة للملاحظة ، أي للتجربة • لقد اخترعوا الامبيق ، وقاموا بتحليل عدد وافر من العناصر ، وتوصلوا الى تمييز القلويات والحموض ، وتحديدها ، وحضّروا بضع مئات من العقاقير ••• كما حددوا طريقة صنع الثلج اصطناعيا،

وهو اكتشاف لم تعرفه أوربا الا في القرن السادس عشر • ولقد نقد (جابر بن حيان) نظريات ارسطو حول تكون المعارف بفكر بقي ثابتا لم يتغير — ودون تجديدات هامة — حتى أوائل عصر الكيمياء الحديثة ، أي القرن الثامن عشر • ان مؤلفات جابر بن حيان ، قد نشَّطت تطور الكيمياء في أوربا ، ولكن بعد مدة طويلة من وجودها بجميع فروعها لدى العرب المسلمين •

في الرياضيات : (١٢)

عن العرب أخذ الغرب الارقام ، تلك الارقام التي عرفت لدينا باسم الارقام العربية ، لاننا عن العرب أخذناها ، واذا كان هؤلاء أخذوها عن الهنود فان الصفر الذي يعد بين أهم فتوحات الجنس الانساني من اختراع العرب • فلقد اقترح محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) استعمال حلقة صغيرة للمحافظة على الترتيب ، اذ لم يكن قد ظهر رقم يحل محل العشرات •

ان هذه الحلقة التي يأتي منها الصفر ، لا تمثل الا الترجمة العربية لكلمة (صفر) التي تعني (الخالي) •

وتأتي كلمتا Algebre, Algcbree من العربية (الجبر) ويعني الاصلاح والترميم ، الخوارزمي المذكور أكبر رياضي في هذا الميدان،لقد أعطى هو نفسه في كتاب (الجبر والمقابلة) حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية ... وقد بقي هذا المؤلف الذي ترجمه (جيرار القرموني) في القرن الثالث عشر نصا أساسيا في الجامعات الاوربية حتى القرن السادس عشر • ولقد أوجد (أبو عبد الله البستاني) حقا علم المثلثات الحديث ، فأحلّ الحلول المثلثية محل الحلول الرياضية المأخوذة عن (بطليموس) ، والجيب محل وتر (أبقراط) ، وأدخل الظل منظما العلاقات المثلثية الرئيسية بالصيغة التي لا تزال تستعمل حتى اليوم •

ولذلك نستطيع أن نثق بمؤرخي العلوم ، الذين يؤكدون بأن العرب ، وليس الاغريق هم الذين كانوا أساتذة عصر النهضة الحديثة في مادة الرياضيات•

في الفلك : (١٣)

لم يكن مرصد بغداد الذي أنشأه المأمون على أرض كلدان القديمة، الوارث البعيد لبابل ، ولكنه كان المؤسسة العلمية والمجهزة بغنى ، والتي يقوم عليها مجموعة من العلماء والفيزيائيين المتعودين بالوراثة البحث الفلكي •

ان ملاحظاتهم الكثيرة تشكل سلسلة متصلة خلال قرنين ويكتب (سيديو) عنهم « ان ما يميز مدرسة بغداد منذ البدء ، هو عقليتها العلمية : الذهاب من المعروف الى المجهول وادراك دقيق للظواهر السماوية ، وعدم اعتماد حادث مبرهن عليه ما دامت حقيقته لم تثبتها الملاحظة • »

ويعتبر (لالاند) البتاني واحدا من عشرين فلكيا هم أكثر الفلكيين شهرة في تاريخ الانسانية • فقد اكتشف في عام ٩٢٠ مبادرة الاعتداليين ، وميل فلك الروج مع تقريب رائع اذا قيس بحساباتنا الحديثة •

كتب (الفرغاني) حوالي ٨٦٠ نصا فلكيا ، وعد حجة في أوربا خلال ٧٠٠ سنة •

وبرهن ابراهيم الزرقالي ، من طليطلة للمرة الاولى ، على تحول نقطة البروج الشمسية بالنسبة للنجوم • وفتح (البطروجي) ، بعد مدة يسيرة ، الطريق أمام (كوبرنيق) وقوض نهائيا نظرية فلك التدوير والدوائر المتداخلة، التي شرح بطليموس بوسطاتها مسار النجوم وحركاتها •

وخلص (سيد يو) الى أن مدرسة بغداد كانت في نهاية القرن العاشر ذروة

المعارف العليـا التي يمكن الحصول عليهـا من غير معونة النظـارات المكبرة والتلسكوبات ·

في الجغرافيا : (١٤)

قاس العرب ـ وهم المقتنعون بكروية الارض ـ درجة الهاجرة ، آخذين وضع الشمس في (تدمر وسنجار) وأعطت الدرجة استنادا الى حساباتهم ٥٦ ألفا من الاميال العربية وثلثي الميل ، أي مـا يقرب من ٨٧٠ مترا أكثر من الحقيقة وكانت تلك نتيجة رائعة حقا · ولقد ترجم العرب أعمال (بطليموس) وصححوا كثيرا من أخطائه · على أن (الادريسي) المولود في سنة ١١٠٠ **هو** معلم أوربا الحقيقي في مادة الجغرافية وليس بطليموس ، ان خرائط الادريسي التي تعتمد كروية الارض كانت تتويجا لعلم الخرائط في العصر الوسيط من حيث سعتها ودقتها وامتدادها ·

ولقد صحح العرب المسلمون بواسطة مقاييس فلكية ، أخطاء بطليموس الخطيرة في البحر المتوسط ، فبينما كانت خطوط العرض العربية صحيحة لبضعة دقائق تقريبا ، سجلت خطوط عرض بطليموس أخطاء في عدة درجات ·

في الفيزياء : (١٥)

أخذ (الكندي) منذ مفتتح القرن التاسع ، يفتش عن القوانين التي تنظم الجاذبية والتسارع وجاذبية الارض · وسجل (أبو علي الحسن بن الهيثم) الذي عاش في القاهرة بين سنتي (٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م) قفزة كبيرة في تقدم البصريات ، وعلم وظائف الابصار ولقد حث كتابه الكبير (المناظر) ـ المترجم الى اللاتينية ـ أبحاث الفيزيائيين · ولقد كان قريبا من اكتشاف العدسة المكبرة ، التي استند (روجر بيكون) و (ويتلو) وغيرهما من الاوربيين الى أعماله حولها ، للوصول

في أبحاثهم الخاصة ، الى المجهر والراصدة الفلكية · كما وصف بعقـل معجز حقا ، ظواهر انكسار الاشعة ، وذكر قبل الجميع استعمال الغرفة المظلمة ، وهي أساس التصوير كله ·

ويتألق ، حوالي العام الالف ، (أبو الريحان البيروني) الذي كان طبيبا قبل أن يبلغ الشهرة العالمية · ذلك أنه كان فيلسوفا ومؤرخا وجغرافيا ورياضيا وفيزيائيا ، وعالم لغة وشاعرا ، وأنه ترك في هذه المجالات كلها مؤلفات جعلت منه (ليوناردودافنشي) العرب ·

كتب البيروني في مقدمة مؤلفه الاول (آثار الامم الخالية) ولم يكن قد بلغ الثلاثين ، بصفاء قلب الشباب:« يجب أن تخلص العقول من جميع الاسباب التي تجعل الناس عميانا عن الحقيقة ، من العادات القديمة ، ومن العقل المتحزب ، ومن العاطفة ، ومن العداء الشخصي ، ومن شهوة التأثير · »

ولقد كان ذلك برنامجا ، وكان في الوقت نفسه جهرا بعقيدة · كانت نزاهة **البيروني أسطورية ، فقد روي** أنـه كان يعيد الى بيت المـال المبالغ التي كان يتقاضاها · ان سمات الخلق هذه يمكن أن تفسر الموضوعية ، والنزاهة العلمية ، النادرتين لهذا الكاتب : انه ناقد محض في التراجم والنصوص ، دقيق في العرض، معترف دائما بجهله ، وواعد بمواصلة أبحاثه حتى ظهور الحقيقية ·

لقد قاس في الفيزياء الاوزان النوعيـة ، مستعملا مثقلة من اختراعـه الخاص ، ثم عرض المبدأ الذي يثبت أن الوزن النوعي لجسم يتفق مع حجم الماء المزاح ، وفي مجال أكثر عملية ، انه هو الذي أثبت عمل الآبار الارتوازية ، استنادا الى مبدأ الاواني المستطرقة · ان نتـائج البيروني الذي كان معاصرا لنتاج ابن سينا الطبيب ، وابن الهيثم البصري العظيم ، والفردوسي الشـاعر

الملحمي الفارسي ... ان نتاج هؤلاء كلهم يدل على أن المدة التي تشمل القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ، هي ذروة العصور الوسطى .

وفي هذا العهد نفسه ، في حدود العام الميلادي الالف ، كان الغرب ينتظر نهاية العالم .

في التطبيقات العملية : (١٦)

ويكتب ريسلر – في نهاية بحثه عن التطبيقات العملية التي أخذها الغرب عن العرب وهي (الورق والزجاج والنسيج والجلود والمعادن والميكانيك والزراعة والتجارة) ، وعن المفردات الكثيرة التي نقلت بلفظها الى الفرنسية ... يكتب ريسلر قائلا : لنتخيل أن أوربة لم تجد في فجر العصور الحديثة هذه الانواع الثلاثة من التراث العربي الذي أسهم به العرب وهي البارود والبوصلة والكتاب. ترى كيف تكون أوربة ؟ وكم ستتأخر النهضة الاوربية ؟.

في الطب : (١٧)

شغل العرب المكان الاول في الطب ، وبقوا سادة العالم في العلم الطبي خلال أكثر من خمسة قرون . ان الطب والفقه – بحسب حديث معزوّ للرسول – هما نوعا العلم الاساسيان . ولقد كان جميع رحالة العصور الوسطى ، وهم كثيرون ، مجمعين على اعجابهم بمؤسسات الاستشفاء الموجودة في الشرق . ولقد أكد (نوبو ركر) : « ان تنظيم المستشفيات أروع ما أوجدته الثقافة العربية . »

لقد ألحق بكل واحدة من هذه المؤسسات أطباء وطلاب ، وكحالون ، وجراحون ، وحتى مجبِّرون للعظام . وكان المرضى يستريحون في أسرّة مزودة بالاغطية . وكان الطبيب يزورهم كل يوم ، كما يزورهم الممرضون عدة مرات ،

وكان هؤلاء يديرون شؤون الادوية ، ويقدمون وجبات الطعام ، وبذلك يكون وجود المرضى آنئذ ، غير مختلف ، بشكل محسوس ، عن وجود مرضى اليوم .

كان في بيمارستان دمشق ، أشهر المستشفيات عام (٩٧٨) مجموعة أطباء تتألف من ٢٤ طبيبا .

كانت المعالجات والادوية مجانية خلال ثلاثة قرون . وكان الناقهون يتلقون أحيانا ، كما كان الامر في بيمارستان القاهرة ، كمية من المال ، عند مغادرتهم اياه .

لا تظهر أسطورة (تودد) التي ترويها قصة (ألف ليلة وليلة) ، تودد الجارية الجميلة التي اجتازت بنجاح – أمام علماء بلاط هارون الرشيد – فحصا جادا في مختلف المواد الطبية والفقهية والرياضية والفلسفية ... لا تظهر هذه الاسطورة اتساع الثقافة العامة في ذلك العصر فحسب ، بل تظهر أيضا الاهتمام الذي كان الناس يحملونه نحو الطب . ذلك أن مجموعة غزيرة من الكلمات الطبية كانت تؤلف جزءا من المعرفة العامة ، وهي الكلمات التي لم يقصر الشعراء والكتاب والمرضى أنفسهم في تدريب قرائهم على استعمالها على حسب آلامهم ، وآلام الذين يجهدون لتخفيف آلامهم .

وهكذا هزت صبيَّة خليفة حتى الاعماق ، عندما أعلنت له تلك الجميلة دلائل حبها العنيف بكلمات لا يمكن الا أن يقول الانسان انها من (علم التشريح). لقد كتبت له قائلة : بين عظمتي الترقوة والغلصمة يضطرب ، شوق لا يستطيع شيء تسكينه أو تبريده . »

ونظم المتنبي في شيء من الدعابة ، قصيدة في وصف الحمى التي اصيب بها، والتي تركته كما يروي « شديد السكر من غير المدام » ويذهب مستعينا باستعارة لطيفة عذبة ، فيتخيل مرضه فتاة جميلة خجلة :

وزائرتي كـان بهــا حيــاء   فليس تـزور الا في الظـلام

ويقول عندما تغادره الحمى :

كأن الصبـح يطردهـا فتجري   مدامعهـا بأربعـة سجام ٠٠

ويميز الهذيان ، وعودة الحمى الليلية ، والارتعاشات والتعرق النهائي في دموع الوداع ، وداع الحبيبة التي تفر في الفجر ٠

وكان شاعر آخر يمرن بحسب العادة ، قريحته مستهزئا بطبيب مات حديثا :

« كيف حدث ذلك ؟ لقد مات بمرض قد اعتاد أن يشفي الناس منه » وها هو ذا يهتف مكشوف البصيرة :

« لقد ماتوا جميعا ٠٠٠ الذي وصف العقار ، والذي تناوله ، والذي جلبه، والذي باعه ، والذي اشتراه ٠ »(١٨)

وبعد أن يتحدث عن الاطباء (علي بن رين ، والرازي وابن سينا ، وعلي ابن العباس) عن حياتهم وآثارهم ، يتحدث عن الطب في الاندلس ، وعما تركه في أوربة ، ثم ينهي حديثه عن الطب قائلا : « ان أوربة عصر النهضة قد انكبت على دراسة الاطباء العرب،أكثر من انكبابها على دراسة طب أبوقراط أو جالينوس»٠

ثم يختم هذا القسم من كتـابه (قسم أثر الحضارة العربية في الحضارة الاوربية) بقوله :(١٩) تعد القرون الخمسة التي لخصناها بين أكثر العصور روعة في تاريخ الفكر الانساني ، ونستطيع أن نؤكد أنها قد جمعت في اللغـة العربية من كنوز المؤلفات والوثائق ، في العلوم ، والطب والفلسفة ، مالم يجتمع مثله في سائر اللغات مجتمعة ٠

وهكذا فان تيار الثقافة المولود في مصر وكلدان وآشور وفينيقية ، والذي

انتقل الى اليونان قد عاد تحت الشكل الموحد للهيلينية في الشرق الادنى ، حيث جمعها العرب ٠ لقد نموه بمنابع الاستيحاء من الهند المنقولة بوساطة فارس ، ثم وسعوه بمساهمتهم الاصيلة ومشوا به عبر افريقية حتى اسبانية اذ كان عليه أن ينمو هناك أيضا ٠ ومن طليطلة المدينة المثلثة الاديان ، انتشر التيار على مراكز الفكر الغربي في جنوبي فرنسة وبلغ دير كلوني ومنه الى (اللوتارينجي) والمانية وانكلترة ، وأوربة الغربية كلها ٠

لقد منح الشب العربي التقدم الانساني ، أكبر الاسهامات أهمية في العصر الوسيط » ٠

خاتمـة :

وهكذا يبدو لنا مؤلف الكتاب :

مطلعا اطلاعا واسعا على موضوعه بخاصة ، وعلى الثقافات بعامة ، محبا هذا الموضوع حبا جما ٠

عارضا له عرضا جيدا ودقيقا ٠ معجبا بحضارتنا اعجابا لا حد له ٠ مبينا أثرها في حضارة العرب في العصر الحديث بيانا رائعا ، يضاف الى ذلك اهتمامه بالمنجزات المختلفة من جهة وبالعباقرة الذين أنجزوها منجهة أخرى ٠ ان التراث ابن البيئة والشعب في رأيه ولكنه نتاج أناس ، وهبوا ذكاء وقادا وصبرا على العمل ، ومكنتهم ظروفهم أن يعملوا ، ويقدموا لنا تراثا ممتازا ٠

ولنا على الكتاب ملاحظتان :

أولاهما : الايجاز الشديد ، فالموضوع كبير ، وحضارتنا التي يتحدث عنها واسعة الآفاق عاشت عدة قرون منارة تشع ، وراية ترفرف ٠

والاخرى : ان المؤلف يقتبس آراء ، ونصوصا ، دون أن يشير الى مصادرها، أو يعزوها الى أصحابها ، أو يردها الى الكتب التي أخذها عنها ·

ولعله يرد على هاتين الملاحظتين بما أعلنه في مقدمة الكتاب ، من أنه انما ألفه ليعرّف بحضارتنا القارىء الاوربي العادي ، ولذلك قدم هذا التعريف موجزا ، وآثر ألا يغرق الصفحات بالهوامش التي ترد الى المصادر وتزعج القارىء العادي · أما نحن فكنا نفضل لو فصل القول في بعض الاماكن ولورد النصوص والافكار الى مصادرها وأصحابها ، ولو كان ذلك في النهاية ·

ومع هذا يبقى كتاب (الحضارة العربية) لجاك ريسلر ، كتابا جيدا جدا ، في مضمونه ، وشكله ، وفي اعجابه بحضارتنا وابراز مزاياها من جهته ، ثم في بيان أثرها في الحضارة من جهة ثانية ·

وحبذا لو طبعته الجامعة العربية طبعة أنيقة وفي جميع اللغات الاوربية ووزعته توزيعا واسعا على جماهير أمريكة وأوربة ، وبالملايين ، فان في ذلك تعريفا بحضارتنا ودعايةكريمة صادقة لنا ، تعريفا ودعاية يدخلانقلب الاوربي والامريكي وعقله ، لانهما نتاج عالم فرنسي من جهة ، ولانهما مكتوبان بروح علمية منهجية من جهة ثانية ·

الحواشي :

---

(١) عنوان الكتاب :

Jaquse C. Risler
Laciuibsation Arabe
Petite Bibliotleque Poyat, Paris, 1962.

(٢) من ص ١٤٥ ، الى ص ١٩٦ ·

(٣) ص ٧ وما بعد ·

(٤) ص ٦٩ وما بعد ·

(٥) ص ١٤٥ وما بعد ·

(٦) من ص ١٩٧ ، الى ص ٢٤٢ ·

(٧) ص ١٤٥ ·

(٨) كانت هذه الكلمات مسجلة على باب المسجد الجامع بغرناطة ، وقد ذكر ذلك ابن بطوطة في رحلته ·

(٩) ص ١٤٧ من الكتاب وما بعد ·

(١٠) ص ١٥٠ ·

(١١) ص ١٥١ وما بعد ·

(١٢) ص ٢٥٢ وما بعد ·

(١٣) ص ١٥٤ ·

(١٤) ص ١٥٦ وما بعد ·

(١٥) ص ١٥٧ وما بعد ·

(١٦) ص ١٦٦ وما بعد ·

(١٧) ص ١٦٧ وما بعد ·

(١٨) قيلت الابيات في رثاء أبي زكريا يوحنا بن ماسويه وهي

ان الطبيب بطبه ودوائه
لا يستطيع دفاع أمر قد أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يبرىء منه فيما مضى
مات المداوي ، والمداوى ، والذي
جلب الدواء ، وباعه ، ومن اشترى

(١٩) ص ١٩٥ ·

الفصل الخامس عشر

التصوير العربي

للعالم ريتشارد ايتنكهاوزن (١)

مقدمة :

١

التصوير أحد الفنون التشكيلية ، ويراد به النقوش والرسوم على الجدران والالواح وفي الكتب · يقابل كلمة (تصوير) باللغة الفرنسية Peinture وبالانكليزية Painting ، وبالالمانية Maleri ، وبالايطالية Pittura .

والتصوير أقدم الفنون التشكيلية على الاطلاق ، لان الانسان قد افتتح حياته مصورا ماهرا ، فعلى جدران الكهوف التي كان يسكنها – منذ حوالي عشرين ألف عام ، لوحات رائعات كل الروعة ، وجدنا بعضها في مغائر (التاميرا Altamira) في اسبانيا ، و (لاسكو Lascaux) في فرنسا ، و (التسيلي) في

ليبيا العربية · أما في العصور التاريخية ، فعند شعوب البحر الابيض المتوسط في مصر وكريت ، وعند شعوب الشرق الاقصى ، نجد أقدم أنواع التصوير ·

ثم عرفته الانسانية في عصورها المختلفة ، وأزهر ازدهارا عظيما عند الفرس والبيزنطيين ، وفي العصور الوسطى ، وشهد أروع آياته في أوربا ، بدءا من عصر النهضة الايطالية · ولا يزال التصوير أهم الفنون التشكيلية المعاصرة ، وتراثه ، من أروع ما خلّفت البشرية في تاريخها الطويل ·

٢

عرف العرب التصوير على الجدران قبل الاسلام ، في بلاد اليمن ، وفي الاقاليم المتصلة بالفرس والروم ، كالحيرة ، وجنوبي بلاد الشام ، واقليم الانباط ، ثم في مكة نفسها ، حيث كانت تلتقي التيارات المختلفة ويجتمع العرب المتأثرون بما رأوه في أسفارهم ورحلاتهم التجارية · ولكن ما وصل الينا من الصور والتزاويق على جدران العمائر العربية في العصر الجاهلي نادر جدا · فالآثار التي عثر عليها في بلاد اليمن ، تكاد تكون كلها أطلالا ، وتماثيل مخروطة ، ونقوشا بارزة · ولم نكن نعرف شيئا يستحق الذكر عن النحت والفنون الزخرفية في بلاد العرب الجنوبية قبل الاسلام ، الى أن كتب علماء الآثار عن مجموعة التحف السبئية التي جمعها في عدن (المستر كايكي مونشارجي Kaikee Muncharjee) ، وتتألف من عدد وافر من النقوش الكتابية ، والتماثيل الصغيرة ، وشواهد القبور ، وقطع السكة ، والتحف البرونزية ، من مسارج وغيرها · والمعروف أن الهمداني في كتابه (الاكليل) قد أشار عند وصفه بعض القصور اليمنية ، الى الصور التي كانت تزينها ، ومن ذلك ما كتبه في وصف قصر (ناعط) ·(٢) :

فمن كان ذا جهل بأيام حمير
وآثارهم في الارض فليأت (ناعطا)

يجد عمدا تعلو القنا مرمرية
وكرسي رخام حولها وبلائطا

ترى كل تمثال عليها وصورة
سباعا ، ووحشا في الصفاح خلائطا

تجانب ، ما تنفك تنظر ، قابضا
لاحدى يديه في الحبال وباسطا

ومستفعات من عقاب وأجدل
على أرنب ، هم ذا فراخ وقامطا

وسرب ظباء قد نهلن لمختف
وغضف ضراء قد تعلقن باسطا

وذا عقدة بين الجياد مواكبا
وسامي هاد للركاب مواخطا(*)

- ٣ -

أما بلاد العرب الشمالية ، فمعظم الصور التي نعرفها من العصر الجاهلي فيها ، نقوش محفورة في الحجر ، صفوية وثمودية ونبطية ، تمثل آلهة آدمية ورسوم حيوانات كالجمل والحصان • وقد كتب الأزرقي في كتابه (أخبار مكة

★ واضح أنه يصف صورة مرسومة على أحد جدران القصر تصور مشاهد صيد •

معاني المفردات : مستفعات : أرجلها مشقوقة ـ القامط : الصغير ، غضف : جـ أغضف : مشرخي الاذن ـ المواخط : السائرين سريعا •

وما جاء فيها من الآثار) أن أهل قريش أعادوا بناء الكعبة ومعهم النجار القبطي باقوم ، وأنهم « زوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعايمها ، وجعلوا في دعايمها صور الأنبياء ، وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة خليل الرحمن يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين • وروى الأزرقي في الموضوع نفسه : « أن النبي عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان : يا شيبة ، أمح كل صورة ، الا ما تحت يدي ، قال فرفع يده عن عيسى بن مريم وأمه • »(٣)

- ٤ -

أما بعد الاسلام ، فقد كان من المعروف ، الى فترة قريبة ، أن التصوير لم يزدهر عند العرب ، في عصورهم الزاهرة الأولى ، لتحريم الاسلام له ، وأن العرب لم ينتجوا فيه نتاجا يستحق الذكر ، وأن الشعوب الايرانية والهندية والتركية هي التي قدمت منه نتاجا ضخما ، لذلك سمي هذا الفن بالتصوير الاسلامي •

الا أن العلامة (أحمد تيمور باشا) قد تصدى لهذه القضية في العشرينات من هذا القرن ، وتقدم ليدحض قول القائلين « بقصور العرب في هذا الفن البديع » ، فنشر طائفة من المقالات والنصوص التاريخية والأدبية ، فيمجلتي الهلال والهندسة القاهريتين ، ثم جمعهما بعد ذلك في كتاب • وقد اهتمت به لجنة التأليف والترجمةوالنشر ، وعهدت الى الدكتور زكي محمد حسن ، بأمر الاشراف على اعداده للطبع ، فحقق نصوصه ، وردها الى مصادرها ، وعلق عليها تعليقات هامة جدا • طبع الكتاب عام ١٩٤٢ طبعة جيدة ، وجاء في أقسام أربعة : أولها القسم الذي جمعه وألف بينه العلامة أحمد تيمور باشا ، وقد تحدث فيه عن التصوير على الجدران والثياب والستور والأقداح والأواني والمصابيح والاثاث

والسلاح والنقود والشارات والبنود • ثم تحدث عن التصوير في الكتب والصحف والألواح ، وختم الكتاب بسبعة فصول قصيرة عن التماثيل في الجاهلية : التماثيل الثابتة ، والمتحركة والمصوتة ، وعن تماثيل الصبيان والحلوى ، والزهور والحقول • وأنهى الكتاب بالتعريف بتسعة وثلاثين مصورا •(٤)

وثاني هذه الأقسام شروح الدكتور زكي محمد حسن وتعليقاته على ما قدم العلامة تيمور في القسم الاول • (٥) وثالث هذه الاقسام شرح للصور والألواح الفنية التي وردت في القسم الاول والقسم الثاني من الكتاب مع تقديم صور شمسية لها • (٦) ورابع هذه الأقسام : فهرس واسع لمراجع وكشاف بالأعلام وفهرس للصور والالواح الفنية • (٧)

ان القسم الأول الذي كتبه العلامة تيمور باشا رائع بالنسبة لزمنه ، وللروح العربية الشائعة فيه ، وللثقافة الواسعة التي يعبر مضمونه عنها ، وقد حقق هدفين اثنين :

أولهما علمي : حين أثار هذا الموضوع ، ونبه الاذهان اليه ، وجمع من أجله المعلومات التي لا يزال أكثرها دفين المخطوطات •

والثاني قومي : حين تصدى للذين يدعون عزوف العرب عن التصوير ، وعدم ابداعهم في هذا الفن العظيم ، مثبتا ـ بروحه العربية الصافية ، وبما كان يملك من وسائل قليلة ، وكتب أكثرها مخطوط ـ أن الامة العربية أبدعت تصويرا ، وقدمت ، في جاهليتها واسلامها ، مصورين بارعين ، وكان في ذلك رائدا ، ومعبدا السبيل لمن بعده •

أما عمل الدكتور زكي محمد حسن فعمل ممتاز من الناحية العلمية : لقد أكمل الكتاب ، وقدم ايضاحات ودراسات وتعليقات هامة ، أتاحها له اطلاعه على الدراسات الحديثة من جهة ، واتقانه اللغات الاجنبية من جهة ثانية • على

أن الذي يؤسف له كونه قد تبنى غير ما تبناه المرحوم تيمور باشا ، وبقي مؤمنا بما يدعيه بعض العلماء والمستشرقين من أن « التصوير في العصر الاسلامي ، كان أكثر ازدهارا بين الشعوب الايرانية والهندية والتركية • وأن العرب لم يظفروا منه الا بنصيب محدود • » وهو يرد فنون التصوير العربية ـ كما يفعل المستشرقون ـ الى الاصول الهيلينستية والساسانية ، ولا يبرز الدور الاصيل الذي لعبه العرب في تمثل هذه الاصول السابقة ، وتقديم فن جديد هو (فن التصوير العربي) •

كتاب « التصوير العربي » :

ـ ٥ ـ

ذلك الفن الذي خصه العالم المستشرق (ريشارد ايتنكهاوزن) بكتابه الرائع (التصوير العربي) الصادر بالانكليزية في لندن عام ١٩٦٢ بعنوان (Arab Painting) ، والمنشور في جنيف في السنة نفسها مترجما الى اللغة الفرنسية بعنوان (La Peinture Arabe) ، والمترجم بعد هذا الى العربية والمطبوع عام ١٩٧٤ •(٨)

الكتاب هذا، هو الجزء الرابع من سلسلة (كنوز آسيا Les Tresorsd' Asia) التي أصدرتها مؤسسة سكيرا (Skira) عن الفنون الآسيوية : الصيني والفارسي والياباني والعربي والهندي •

يقع كتاب (التصوير العربي) في نسخته الفرنسية هذه في مائتين وعشر صفحات ، وفي مائتين وست وأربعين صفحة في الترجمة العربية ، وكلتا النسختين تضم ثمانية وثمانين لوحة مطبوعة بالالوان في أبهى حلة ، وأرقى طباعة ، مشكلة بذلك آية جمال جديد • (٩)

والكتاب مقدمة وخمسة أقسام • في المقدمة شرح لكلمتي تصوير

وعربي ٠(١٠) وفي القسم الاول (بداية الفنون التصويرية) ٠(١١) وفي القسم الثاني (ازدهار فن الكتاب) (١٢) ٠ وفي الثالث (بداية النهاية) (١٣) ٠ وفي الرابع (ما وراء العالم المادي)(١٤)٠ وفي الخامس (المرحلةالنهائية) (١٥)٠

ـ ٦ ـ

مؤلف الكتاب هو الدكتور ريشارد ايتنكهاوزن المولود عام ١٩٠٦ في ألمانيا وخريج جامعات مونيخ وكمبردج وفرانكفورت٠عين مساعدا للدائرة الاسلامية في المتحف الوطني ببرلين عام ١٩٣١ ، ومساعدا في نشر دراسات الفن الفارسي عام ١٩٣٢ ، ثم عضوا في المعهد الاميركي للفن والآثار الفارسية عام ١٩٣٤ ، ومعيدا للفن الاسلامي في معهد الفنون الجميلة بجامعة نيويورك عام ١٩٣٦ ، ثم مساعد أستاذ للفن الاسلامي في جامعة ميتشغان عام ١٩٣٨ ، وفي متحف فرير بواشنطن عام ١٩٤٤ ، وأستاذا للفن الاسلامي بجامعة ميتشغان عام ١٩٤٥ ، ومحررا لمجلة الفن الاسلامي بين سنتي ١٩٣٨ و ١٩٥١ ، Art Islamica ومجلة الفن الشرقي Art Orientulisاعتبارا من عام ١٩٥١ ، وكان في عام ١٩٦٢ ، عام صدور الكتاب ـ موضوع هذا البحث ـ محافظا رئيسيا في قسم فنون الشرق الأدنى في متحف (فرير Freer) بواشنطن ٠ وهو يشغل الان وظيفة أستاذ الفنون الجميلة بجامعة نيويورك ، مع رئاسة القسم الاسلامي بمتحف المترو بوليتان ٠

وللدكتور ايتنكهاوزن مقالات كثيرة في مختلف المجلاتالعلمية ، ولهدراسات عن الفنون الشرقية والاسلامية ، وعن المخطوطات المزوقة ، وعن الرسم عند الفاطميين ، وعن البرونز الاسلامي ٠ وله بحثان هامان أولهما : عن (الوحدة في الفن الاسلامي) ، وثانيهما : عن (الوحدة والتنوع في الحضارة الاسلامية) وفي اعتقادي أن كتابه (التصوير العربي) أهم الكتب التي خلفها ٠

يتبين من هذا الاستعراض السريع (١٦) لحياة المؤلف وأعماله ـ أنه من خيرة علماء الفنون والاستشراق خبرة بموضوعه ، ومن أكثرهم علما بالفنون العربية والاسلامية ٠ ان هذا العلم وتلك الخبرة ، يمنحان كتابه (التصوير العربي) قيمة موضوعية مؤكدة ٠

ـ ٧ ـ

كتاب الدكتور ايتنكهاوزن هذا أول كتاب يعالج باللغات الاجنبية ـ موضوع (التصوير العربي) ، ويفصله عن غيره من فنون التصوير التي عرفتها الحضارة الاسلامية ، وعرفتها الشعوب المسلمة الأخرى غير العربية ٠

يشرح المؤلف في المقدمة ما يريده بكلمة (عربي) ، انه يستعملها هنا « بمعناها الأشمل ، لتشير الى الحضارة العالمية لتلك الامبراطورية التي نشأت في القرون الوسطى ، وكان مصدرها الدين العربي الجديد (الاسلام) ، والتي كانت في البداية قوة عسكرية وسياسية في الجزيرة العربية ، والتي ارتبطت الى حد كبير معا برباط اللغة العربية ، لغة الدين ، والادارة ، والعلم ، والشعر ٠ » (١٧)

ان العطاءات التي أسهم فيها جماعات من أمم عريقة (كالفرس والمصريين والبربر والاتراك) ، معظمهم من المسلمين ، وان كان فيهم من أتباع الاديان الاخرى ـ هي عربية ، لا بمعنى الارتباط العرقي كما نعتقد اليوم ، وانما « بوجود وعي واضح بين المسلمين في العصور الوسطى على اختلاف قومياتهم ، وعي مؤكد بانتمائهم الى حضارة (عربية) ، قدسية المنبع ، وعي عبر عنه البيروني (٩٧٣ ـ ١٠٤٨) بقوله : ان دولتنا وامبراطوريتنا عربيتانوتوأمان الاولى تحميها قوة الله ، والثانية تحرسها يد السماء ، فلطالما حاولت طوائف من الرعايا أن تتآلف سوية لاضفاء الصفة غير العربية على الدولة ، لكنها لم

تنجح في هدفها ذاك ٠ لقد كانت اللغة العربية بالنسبة له ، هـي لغـة الدين والعلم ، وهي أعظم وسيلة للتماسك ، وقد أعرب عن غيرته على هـذا العنصر الحيوي في حضارته بقوله : للسب بالعربية أحب الي من المديح بالفارسية ٠»(١٨)

وقد تناول المؤلف في كتابه رقعة جغرافية تتألف بالدرجة الاولى من العراق وسورية ، ومصر ، والى حد أدنى من ذلك مناطق تقع بين اسبانيا والمغرب في الغرب ، وبين الهضبة الايرانية في الشرق ٠ أما حدوده الزمنية فتمتد بين أواخر القرن السابع والقرن الرابع عشر الميلاديين ٠ (١٩)

ـ ٨ ـ

أما (التصوير) فقد استعمل عند الدكتور ايتنكهاوزن في كتابه ، موضوع هذا البحث ، في أوسع معاني هذه الكلمة ، فهـي تشمل بالاضافة الى تصاوير الجدران والرسوم على الخشب والـرق والورق ، « الرسوم علـى الزجـاج ، ورسوم الفسيفساء الزجاجية والرسوم على الفخار أيضا » (١٩) ٠ والتصوير بهذا المعنى بحاجة الى توضيح ، نظرا للوهم السائد ، على نطاق واسع في العالمين الاسلامي والغربي ، بأن الدين الاسلامي ، وهو ذو طبيعة معادية للاصنام ، قد جعل التصاوير مستحيلة تقريبا ٠ » (٢٠)

يخصص المؤلف لهذا ثلاث صفحات من المقدمة لمعالجة قضية (موقف الدين الاسلامي من التصوير) ، متناولا اياهـا من وجهـة النظر الواردة في القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية ، والاحكام الفقهية من جهة ، ثم مستعرضا اياهـا بحسب العصور والاقاليم والملـوك من جهـة ثانية ، مقررا أن ليس في القرآن الكريم ما يؤيد الوهم بتحريم الاسلام للتصوير تحريما قاطعا (٢٠) ، وأن في أحاديث الرسول تفصيلا بالنسبة لرسوم الاشخاص والحيوانات والاشياء ٠(٢١)

أما الاحكام الفقهية ، فكانت تتردد بين التحريم القاطع ، والتفصيل بحسب الموضوع ، والاستعمال ، ومكان الرسم ٠ (٢١)

ثم يقرر بعد هذا أن العرب ـ على الرغم من ذلـك ـ قـد رسموا علـى الابنية وعلى الخشب وعلى الزجاج ، وفي الكتب ، صورا متنوعة ، كما أنهـم استعملوا الالوان ، وأفادوا من الفسيفساء ، وزوقوا المصاحف بالرقش العربي الجميل ٠٠ فعلوا ذلك كله منذ العهد الاموي ، واستمروا في ذلك في جميع العهود مما خلف هذا الفن التصويري الذي سيدرسه في كتابه ، علـى الرغـم من أن مادته المتوفرة محدودة بسبب عـدم اكتمال أعمـال التنقيب ، وفساد كثير مـن المخطوطات بفعل عوامل الطبيعة ، وتشويه أعداء التصاوير ٠ (٢٢)

ـ ٩ ـ

عالج القسم الاول (بداية الفنون التصويرية) في العهد الاموي وأوائـل العباسي (حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) ٠ في العهد الاموي، عبرت تصاوير الفسيفساء في قبة الصخرة بالقدس (٢٣) ، وفي الجامع الاموي الكبير بدمشق (٢٤)، والصور الجدارية والارضية المرسومة بالالوان وبالفسيفساء في قصير عمرة بالاردن ، (٢٥) ، وقصر الحير الغربي الذي يقع على الطريق من دمشق الى تدمر ، (٢٦) وخربة المفجر الموجودة قرب أريحا (٢٧)، عبرت تصاوير المسجدين والقصور هذه عن (الاعلان عن سلطة عالمية) والتأكيد عليها من قبل السلالة الاموية الحاكمة في أشكال كثيرة استعملت في المباني الدينية والدنيوية على حد سواء ٠ ففي صور فسيفساء الجامـع الاموي الكبير رموز لمـدن كثيرة « تؤكد بأن العالم كله قد أصبح تحت درع الخلفاء » (٢٨) ، وفي قصير عمرة تمثل الخليفة الاموي عن الملك « سيد الكون » (٢٩)، عاهـلا عظيمـا جالسا

على عرشه،وأمامه يقف ملوك الارض يعترفون بسلطانه ويخضعون له٠(٢٩)

وحصلنا من العصر العباسي ـ الذي ازدهرت فيه الآداب والفنون ـ على مجموعة كبيرة من أوائل التصاوير في قصور الخلافة في سامراء (٣٠) ، حيث رسمت (تسليات البلاط) ، وفي سقف كنيسة القصر في بلرمو ، حيث بقيت لنا سلسلة واسعة جدا من الرسوم التصويرية المشتقة من فن سامراء ٠ (٣١) والتي تصور لنا مباهج البلاط (٣٢) وصور حيوانات ذات طابع زخرفي فحسب (٣٣) ٠ كما وصلتنا من العهد نفسه (أوائل القرن الحادي عشر الميلادي) مخطوطات فيها صور تدل على اهتمام الحكام بالقضايا العلمية (٣٣) كمخطوطة كتاب (صور الكواكب الثابتة) الذي ألفه عبد الرحمن الصوفي حوالي سنة (١٠٠٩) لعضد الدولة البويهي ٠(٣٤)

ـ ١٠ ـ

تزويق المخطوطات بالصور الملونة أهم انجازات التصوير العربي الباقية، فلقد زينت الكتب العلمية والطبية ، والفلكية ، ايضاحا لموضوعاتها ومضموناتها ٠ كذلك زينت بعض الكتب الادبية (ككليلة ودمنة لابن المقفع ، الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، ورسائل اخوان الصفا ، والديارات للشابشتي) ، وحظي كتاب مقامات الحريري بعناية المصورين فزوق بالصور عدة مرات ٠

خصص ايتنكهاوزن لموضوع تزويق المخطوطات القسم الثاني من أقسام مؤلفه ، وأعطاه عنوان (ازدهار فن الكتب) ، وأوفاه حقه من البحث في أطول أجزاء الكتاب (٧٧ ص) (٣٥)، ووزعه على فقرات متعددة : فقدم ملاحظات عامة عن المخطوطات ، (٣٦) ثم الاسلوب الفخم في الطريقة الفارسية ، (٣٧)

والفن البيزنطي في لباس عربي ٠ (٣٨) والمساهمة العربية الاسلامية ، (٣٩) وتفاعل التيارات الحضارية ، (٤٠) وانجازات في بغداد (٤١) ، والحياة الشاملة في العالمين الخارجي (٤٢) ، وفي آلام الحب ٠ (٤٣)

زوق المصورون (كليلة ودمنة) لابن المقفع منذ العهود الاسلامية الاولى ، ووصلتنا صور حيواناته في أقدم مخطوطة كتبت في سوريا في حدود سنة (١٢٠٠ الى ١٢٢٠ م)،(مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس)(٤٤) كذلك وصلتنا ستة أجزاء من مخطوطة لكتاب الاغاني (مكتوبة بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٩ م محفوظة أجزاؤها في القاهرة واسطنبول وكبنهاكن) (٤٥)، وقد زود كل جزء « بغرة نجد فيها حاكما مصورا في احدى الوضعيات المميزة يستقبل أصحاب مقامات عالية ، ويشرب مع فريق من ندمائه ، أو يجرب قوسا وسهما ، أو يمتطي صهوة جواد ، أو يكون وحيدا في البرية يصطاد بعقابه ، أو في مجموعة نساء البلاط يرقصن ، ويعزفن على الآلات الموسيقية ، ويستحممن » (٤٥) زوق هذان الكتابان في أسلوب فخم على الطريقة الفارسية في التصوير ٠

ـ ١١ ـ

أما عندما كانت تترجم الكتب الاغريقية عن مخطوطات بيزنطية مزوقة برسوم أشخاص ، فانها كانت تزوق بصور « تتمسك بمظاهر عدة من الاسلوب البيزنطي بلباس عربي ـ كما يسميه المؤلف ـ في مخطوطة لكتاب (مادة الطب لديوسقوريدس) حيث صور (ديوسقوريدس) نفسه انسانا عربي الوجه واللباس ٠(٤٧) أما صور النباتات فمن أجملها صورة شجرة الكرمة التي « تمثل نمو النبتة من الجذر الى آخر فرع فيها ، وقد تم تمييز تدرج اللون في

الاوراق بشكل دقيق ، في حين رسمت العروق بشكل واضح،كما رسمت الاوراق بشكل واضح ، بتحرك كل جزء منها بحرية في الفضاء ، أمـا أوراقهـا فقد عولجت بطريقة بدت فيها وكأنها طبيعية • » (٤٨)

كذلك كان الامر في كتاب للمبشر محمود الدولة أبي الوفاء الدمشقي الذي استوطن مصر وعاش في أواخر القرن الخامس الهجري ، وألف كتابه (مختار الحكم ومحاسن الكلم) عن حياة حكماء الاغريق وأقوالهم من أمثال (هوميروس ، وصولون ، وابقراط وسقراط ، وأرسطو ، وفيثاغورس وجالينوس وغيرهم) ، وهو كتاب وصلتنا نسخة مزوقة منه (محفوظة في اسطنبول) ، تحوي منمنمات تعرض لنا مواضع بيزنطية بلباس عربي ، (٤٩) استطاع الرسام أن يضفي عليها حيوية قلما تمكن فنان عربي آخر من اضفاء مثلها على صوره • (٥٠)

- ١٢ -

على أن الاسهام العربي الاسلامي في فن المنمنمات ، الذي تخلص من الأثرين الفارسي والبيزنطي ، وبدا بشخصية عربية واضحة ، انما بدأ بالازدهار اعتبارا من أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، حين كثر الطلب على المخطوطات المزينة بالصور من قبل الامراء والحكام والموسرين من التجار الذين أقبلوا على شراء النتاجات الفنية على نطاق واسع • ساعد على ذلك عاملان : موجة الفنون الشعبية الدرامية (خيال الظل ، ومسرح الدمى) ، والاقبال الكبير على تزيين كتاب (مقامات الحريري) • هنا نجد واقعية في الرسم ، وشخصيات عربية متميزة ، استطاعت أن تفرض نفسها حتى في الكتب التي تعالج موضوعات اغريقية (كما نجد ذلك في كتاب الدرياق المنسوب الى جالينوس) (٥١) •

- ١٣ -

على أن هناك كثيرا من المخطوطات التي جمعت في تصاويرها بين السمات الثلاث السابقة الفارسية والبيزنطية والعربية ، تلك التصاوير التي تمثل (تفاعل التيارات الحضارية) • ففيها قد تظهر هذه السمات بشكل منفصل في منمنمات مختلفة ، وفي بعضها تم الدمج بمهارة بين تيارين فنيين أو أكثر • نجد ذلك في مخطوطة كتاب (مادة الطب لديوسقوريوس) المزوقة ببغداد في سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ، والمحفوظة بنيويورك (٥٢)، والتي نجد فيها صورا بيزنطية الطابع ، وأخريات عربيات السمات ، وفي مخطوطة كتاب الدرياق الموجودة في المكتبة الوطنية في فيينا والمرسومة في الموصل في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث تجتمع في صورة واحدة ميزات الفنين الفارسي والعربي • (٥٣) أما كتاب (معرفة الحيل الهندسية) للجزري بديع الزمان اسماعيل ، المؤلف حوالي سنة ١٢٠٦ م في آمد ، فقد حلي بتصاوير تتجلى فيها تأثيرات هندية وعربية وبيزنطية ، كما نجد ذلك في صورة (ساعة الفيل) الموجودة بمتحف الميترو بوليتان بنيويورك • (٥٤)

- ١٤ -

وفي فقرة (انجاز بغداد) يسجل المؤلف « ان فن التصوير العربي بلغ قوة تكامله التام بعد سنة ١٢٠٠ م بفترة قصيرة في عاصمة الخلافة العباسية، وبلغ مجده الكامل هناك في الربع الثاني من ذلك القرن » (٥٥)، في عدة مخطوطات ، وبخاصة في غرة مخطوطة (رسائل اخوان الصفا) المحفوظ في اسطنبول ، والمنسوخ ببغداد في سنة ١٢٨٧ ، حيث توجد منمنمتان « تمثلان الاسلوب البغدادي في أوج عظمته ، وفي مظهره الاكثر حيوية • » (٥٦)

ويمكن اعتبار فكرتهما الاصلية نتاجا مميزا . يمثل الوحـدة السعيدة للعالم العربي على أحسن شكل . فها هنا تسود الالـوان الحمراء والزرقـاء والخضراء ، وهنا ظفرنا في النهاية باهتمام حقيقي بالمكان ، وبأقواسه المعقدة وأشكاله الزخرفية المتنوعة ، وستائره الملفوفة على الاعمدة ، وقد رسم ذلك كله بدقة . (٥٧) ، كما أن ايماءات الاشخاص المتنوعة ، والتوتر الداخلـي السائد في المناظر ، تقاوم النزوع نحو الجمود ، والطريقة التي رسمت بهـا التفاصيل الثانوية جذابة جدا . (٥٨)

— ١٥ —

ويخصص ايتنكهاوزن فقرة (حياة شاملة : العالم الخارجي) لمخطوطات المقامات التي أنجزت في بغداد ، والتي بلغ فن التصوير العربي ذروته فيها ، بالجهد الكبير والمتنوع الذي بذل فيها — (٥٩)، يضاف الى ذلك أنها « توفـر نظرة ليس لها مثيل في حياة العالم العربي ، انها رسوم ذات صفة اعلامية عن العراق بشكل خاص لانها قد أنجزت هناك .. انها في الحقيقة مرآة فريـدة للحضارة العربية في العصور الوسطى ، تعكس عمليا كـل مظاهـر الوجـود البشري من المهد الى اللحد . » (٥٩)

ولقد زوّقت مخطوطات مقامات الحريري عـدة مرات ، ووصلتنا منهـا ثلاث : الواحدة في استنبول ، والاخرى في لينينغراد ، والثالثة : موجودة بالمكتبة الوطنية بباريس ، وهي مشهورة أكثر « لان كثيرا من رسومهـا قـد نشرت ، ومعظم منمنماتها قد انتزعت منها ، وعرضت في معرض أقيم سنة ١٩٣٨ » .

نسخت هذه الاخيـرة وزوقت من قبل (يحيى بن محمود الواسطي) سنة ١٢٣٧ ، بتسع وتسعين صورة ممتازة درس المؤلف كثيرا منها ، مبرزا نواحي

الجودة والجمال فيها ، ومقدرا ما تعطينا من تصوير دقيق عن الحياة الاجتماعية في بغداد في القرن الثالث عشر الميلادي : « ففيها استعراض للاغنياء والفقراء ، للحزانى والمبشرين ، للمنفعلين والهادئين ، للطفيليين والمتضجرين .. وعـن طريقها اطلعنا على العمائر المدنية المحلية التي زالت في الحقيقة منذ زمـن طويـل .. » (٥٩)

كذلك يخصص الفقرة الثانية من فقرتي الحياة الشاملة (لآلام الحب)(٦٠) والمؤلف يسجل بهذه المناسبة » أن موضوع الحب من الموضوعات الرئيسية في الأدب العربي ، الا أنه — حتى الان — لـم يكتشف سوى مخطوطتين شهيرتـين تعالجان موضوعه » (٦٠) وفيهمـا تصاوير ، احداهمـا بسيطة موجـودة في الآستانة ، والاخـرى مخطوطة (بياض ورياض) المحفوظـة في الفاتيكان ، والمرسومة في مراكش أو الاندلس ، في القرن الثالث عشر (٦١)، وهـي نص مزين بصور كثيرة ، تروي حبا عذريا لعاشقين (٦١) . والمؤلف يأسف لاختفاء التصوير العربي الاسباني ، « لانه أصبح مـن المستحيل أن نقيس ، بشكـل دقيق ، مدى التأثير الذي أحدثه هذا الفن في التصوير المسيحي . »(٦٢)

— ١٦ —

وعلى الرغم من أن الغزو المغولي للشرق الأدنى نقطة تحول كبرى في تاريخ التصوير العربي الاسلامي ، وأنه كارثة لا توازيها كارثـة أخرى في التاريخ العربي ، وعلى الرغم من هجرة فناني بغداد شرقا باتجاه العواصم المغولية التي أنشئت حديثا ، وغربا باتجاه مصر والمغرب والأندلس ،(٦٣) ... على الرغم من ذلك كله ، فان فن التصوير العربي الذي بلغ ذروته في بغداد في القرن السابع الهجري — الثالث عشر الميلادي قد استمر بتقاليده وسماته في مصر ، وفي الشرق متأثرا بالسمات الصينية الى حد ما .

وقد قدم لنا المؤلف في القسم الثالث من الكتاب دراسة لمخطوطات زوّقت في المشرق هي : منافع الحيوان ،(٦٤) والآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ،(٦٥) وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ،(٦٦) وهي مخطوطات ، امتزجت فيها تقاليد التصوير العربية لمدرسة بغداد بتقاليد الفن الصيني ٠

أما في مصر وبلاد الشام « فقد تمسكت مخطوطات عصر المماليك بأمانة بالتقاليد التي نشأت عن طريق فن الكتاب الذي ظهر في القسمين الأعلى والأدنى من العراق وسوريا ٠ وهنا نواجه للمرة الثانية كتبا علمية مصورة ومؤلفات أدبية »(٦٧) كرسالة دعوة الأطباء للمختار بن الحسن بن بطلان ، المحفوظة مخطوطاتها في ميلانو ، ومقامات الحريري المكتوبة والمزوقة ، في سوريا حوالي عام ١٣٠٠ م ، والموجودة مخطوطاتها في فيينا(٦٨) ، وفي اكسفورد ، وكليلة ودمنة الموجودة في دار الكتب الوطنية بباريس(٦٩) ، وفي اوكسفورد ، وكتاب الحيوان للجاحظ المزوق في سوريا في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي المحفوظة مخطوطته في ميلانو ٠(٧٠)

- ١٧ -

وينهي المؤلف القسم الثالث من الكتاب ببيان يسمي فيه مراكز انتاج الكتب المزوقة بالتصاوير ، وأساليب هذه المراكز ٠ وهذه المراكز خمسة هي : سوريا والقسم الشمالي أو الأعلى من العراق ، والقسم الأوسط والجنوبي من العراق ، واسبانيا ومراكش ، ومصر ٠(٧١)

ففي سوريا كان « التفهم الكلاسيكي للصور البشرية وللتركيب المعماري قد أمكن الحفاظ عليه لفترة أطول ، وبمستوى أعلى من أي مكان آخر ،(٧١)

وفي بغداد ومدن جنوبي العراق الأخرى ، نجد أكثر المدارس تحررا وواقعية ،(٧١) وفي اسبانيا ومراكش ارتبطت المنمنمات بمدارس التصوير التي قامت في الشام والعراق (٧١) مع اضافة عناصر اسبانية فعربيته مميزة(٧١) وبلغت الاتجاهات نحو تقليص الشكل والحركة المقيدة تقريبا ذروتها فيما يمكن أن يعتبر الفن المصري خلال القرن الرابع عشر ٠(٧١)

- ١٨ -

القسم الرابع من الكتاب مخصص (لتزويق القرآن) ويراد به « التصوير الزخرفي الخالص لمخطوطات القرآن الكريم أي فن المزوقات الهندسية مضافا اليها أشكال نباتية بمثابة عناصر ثانوية ٠ »(٧٢) انه الفن الذي ازدهر منذ القرن الحادي عشر ، حتى غدا شكلا أساسيا لزخرفة القرآن ، على الرغم من بعض اعتراضات أبداها بعض الفقهاء ٠

بدأت زخرفة القرآن الكريم ، برسم أشكال زخرفية تفصل بين الآيات ، ثم أتت الزخارف التي تفصل بين السور ، من دون عنوان في أول الأمر ، ثم أصبحت بعنوان فيما بعد ٠ ثم تلتها زخارف الهوامش التي تشير الى الآيات الخوامس والعواشر ، والمقاطع التي تتطلبها شعائر السجود، ومختلف أقسام الكتاب الكريم ٠

وظهرت أخيرا زخارف أخذت تغطي صفحة الغرة بكاملها « اما على شكل تركيب في صفحة واحدة أو صفحتين »(٧٢) ، أو باضافة زخرفة متشابهة الى خاتمة المخطوطة ٠ ان هذا النوع الاخير من الزخارف هو الذي تمثلت فيه أعظم المشروعات التي كان يطمح اليها مزوقو القرآن ، وهو الذي قدم أجمل المزوقات، التي درس المؤلف دراسة مفصلة أربعة منها وهي : المحفوظة في مكتبة بدبلن (تزويق سوريا في القرن التاسع وبغداد في السنة ٣٩١ هـ -

١٠٠٠ م)(٧٣) ، وفي مكتبة باستنبول (تزويق بلنسية باسبانيا سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م)(٧٤) . وفي دار الكتب الوطنية بالقاهرة (تزويق مصر بين سنتي ٧٧٠ و ٧٩٠ هـ — ١٢٦٨ و ١٣٨٨ م) ٠(٧٥)

والملاحظة هنا أن هذه الزخارف تشمل صفحات كبيرة لان مخطوطات القرآن يفترض فيها أن تكون كبيرة ، وأن تختلف عن أحجام الكتب الاعتيادية ٠ فمساحة صفحته الاولى (١٢ × ٢٨/٥ سم) والثانية (١٧/٧ × ١٣/٥ سم) والثالثة (١٧/٥ × ١٨/٥) والرابعة (٩/٥٠ × ٧٠/٥ سم) ٠

— ١٩ —

ويطرح ايتنكهاوزن في القسم الخامس والاخير من الكتاب سؤالين : ما الذي حدث لفن التصوير العربي بعد سنة ١٣٥٠ م ؟(٧٦) ولماذا انقرض التصوير العربي قبل أوانـه ، بفترة طويلة ، سبقت تلف الحرف العربيـة الاسـلامية الاخرى ؟(٧٧)

يجيب المؤلف عن السؤال الاول بأنه « فيحقل تزويق القرآن استمر الاسلوب المميز حتى افتتاح مصر على أيدي الاتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ م »(٧٦) ، أما في تزويق الكتب العادية فان فن التصويرالعربي قد أصبح اماخاضعا لاساليب غير عربية ، أو أنه هبط الى أدنى مستوى فني ٠(٧٨)

أما السؤال الثاني فيجيب ايتنكهاوزن عنه ، برد أسباب انقراض التصوير العربي ، قبل أوانه الى ثلاثة أسباب رئيسية :

أولها : تأثير السيطرة الاجنبية(٧٧)، ولا سيما حين خضعت الاقطار العربية الثلاثة ، مصر وسوريا والعراق ، للسيطرة العثمانية التركية ٠

وثانيها : الانحطاط الاقتصادي والاجتماعي الشامل في سلطنة المماليك من القرن الرابع عشر وما بعـده ، ذلك الانحطاط الذي يعـود الى سـوء الحكم الاستبدادي ، وفساد الادارة وعدم كفاءتها ، والى السياسات المالية والاحتكارية المدمرة ، واستغلال الطبقات العليا ٠٠٠ وأخيرا الى التخلي عن (مصر باعتبارها طريقا تجاريا الى الهند والشرق الاقصى ، بعد أن اكتشف (فاسكو دي غاما) الطريق حول (رأس الرجاء الصالح) ٠(٧٩)

وثالثها : انتصار المتمسكين بأهداب الدين ، انتصارا لا يعني ظهور موقف لا يحتمل فن الاشخاص فحسب ، بل لا يحتمل حتى وجود الفن وأي فن من هذه الشاكلة ٠(٧٩)

وتكون خاتمة الكتاب تقييما للدور الكبير الذي لعبه الفنان العربي في ترك هذا التراث لنا « انه — بالطريقة المهيأة التي استطاع بها أن يترجم الموضوعات الملكية والسياسية والعلمية والشعرية الى أشكال مرئية ، وبمهارته في استيعاب العناصر الاجنبية ، وبقدرته على تأليف الصور الاخاذة ، وبعضها لا يمكن نسيانه قط ، وبرغبته — فوق كل شيء — في أن يفعـل ذلك تحت أنظار من ينكرون محاسنه الروحية ، ويدينونه في الحياة الازلية ٠٠٠ — ان الفنان لم يكن له ، في هذا كله — سوى قلة من النظراء ٠ ان الشيء المحقق ، هو أن الفنان كان يبذل كل ما في وسعه ، ولذلك تركت أعماله لنا ، حتى في العدد المحدود الذي بقي منها ، أصدق وأوضح مرآة لتلك الحضارة الزاهرة التي انقضت منذ عهد بعيد ٠ »(٨٠)

خاتمة :

تعمدت أن أطيل في تقديم موضوع (التصوير العربي) ، وعرضت بتوسع

مضمون كتاب الدكتور ايتنكهاوزن الذي يدرسه ، كما أكثرت من الاستشهاد بجمل وعبارات وردت فيـه • وكان غرضي من ذلك أن أقدم للقارىء فكرة تاريخية عن التصوير ، وصورة واضحة عن التصوير العربي • فعلت ذلك ، لان الكتاب ، الذي أعرّف به في هذا الفصل ، يعالج موضوعا جديدا وهاما في تاريخ الدراسات الفنية من جهة ، ويقدم للقارىء الاوربي والعربي دراسة موضوعية وايجابية لهذا الجانب الهام والخطير من جوانب الحضارة العربية من جهة ثانية •

وقد تبين لنا بوضوح ، أنه بقي من حضارتنا ــ على الرغم مما ألمَّ بها من كوارث ومحن أتلفت أو شوهت تراثها ــ كمية ضخمة من التصاوير الجميلة التي توزعت على جدران قصور ، وفي بطون مخطوطات ، لتقوم دليلا ناصعا على أن العرب قد صوروا ، وأنتجوا تصويرا عربيا ، قدم لنا العالم ريتشارد ايتنكهاوزن عنه كتابا امتاز بدراسة علمية وفنية ممتازة ، وبطباعة أنيقة ، حوت أكثر من ثمانين لوحة فاتنة فيها ، فوق ما في الكتاب ، الدليل الذي لا يدحض على وجود (التصوير العربي) ، فنا أصيلا ، وجانبا بارزا من جوانب الحضارة العربية •

الحواشي

(١) عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

Richard Ettinghausen
La Peinture Arabe,
Edition Skira' Geneve 1962

(٢) الهمداني في كتابه الاكليل ص ٤٣ و ٤٤ •

(٣) ملخص بايجاز عن كتاب (التصوير عند العرب) للعلامة أحمد تيمور باشا ، مع تعليقات الدكتور زكي محمد حسن ص ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ •

(٤) يقع هذا القسم في مائة وأربع عشرة صفحة •

(٥) عدد صفحات هذا القسم مائة صفحة •

(٦) عدد صفحات هذا القسم ست وستون صفحة •

(٧) عدد صفحات هذا القسم خمس وخمسون صفحة •

(٨) ترجم الى اللغة العربية وطبع ببغداد تحت عنوان (فن التصوير عند العرب) عام ١٩٧٤ • وقد قام بالترجمة الدكتور عيسى سلمان ، وسليم طه التكريتي •

(٩) الجيد في النسخة العربية ، أن لوحاتها هي لوحات النسخة الاجنبية •

(١٠) ص ١١ ، الى ص ١٦ من الترجمة العربية •

(١١) ص ١٧ ، الى ص ٥٦ من الترجمة العربية •

(١٢) ص ٥٧ ، الى ص ١٣٢ من الترجمة العربية •

(١٣) ص ١٣٣ ، الى ص ١٦٤ من الترجمة العربية •

(١٤) ص ١٦٥ ، الى ص ١٧٦ من الترجمة العربية •

(١٥) ص ١٧٧ ، الى ص ١٨٧ من الترجمة العربية •

(١٦) اعتمدنا في اثبات هذه الترجمة على ما كتب عن المؤلف في غـلاف النسخة الفرنسية للكتاب ، وعلى كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي الجزء الاول ، وعلى كتاب (فنون الشرق الاوسـط في العصور الاسلامية) لنعمت اسماعيل علام •

(١٧) ص ١١ من الكتاب في ترجمته العربية •

(١٨) ص ١١ و ١٢ من الكتاب في ترجمته العربية •

(١٩) ص ١٢ من الكتاب في ترجمته العربية •

(٢٠) ص ١٢ من الترجمة العربية •

(٢١) ص ١٣ من الترجمة العربية •

(٢٢) ص ١٥ من الترجمة العربية •

(٢٣) ص ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من الترجمة العربية ، وقبة الصخرة مسجد بني بأمر الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١ م ٠

(٢٤) ص ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ من الترجمة العربية ومن المعروف أن المسجد الجامع الكبير بدمشق شيده الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٦ م ٠

(٢٥) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ ويعتقد المؤلف أن هذا القصر قد بني في عهد الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣ م) ٠

(٢٦) ص ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ ، وقصر الحير الغربي يحتمل أن يكون قد شيد في حدود سنة ٧٣٠ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، وقد نقلت واجهته الضخمة ، والرسوم التي وجدت فيه الى المتحف الوطني بدمشق ٠

(٢٧) ص ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ ٠

(٢٨) ص ٢٨ من الكتاب ٠

(٢٩) ص ٣٢ من الكتاب ٠

(٣٠) ص ٤٢ و ٤٣ و ١٩٠ ، والمعروف أن الصور عثر عليها بين أنقاض مدينة سامراء ، ثم ضاعت معظمها نتيجة لآثار الحرب العالمية الاولى ، ولكننا اطلعنا عليها عن طريق الكتاب الذي نشره ارنست هرزفلد،مكتشف هذه الصور٠

(٣١) ص ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ ، والكنيسة المقصودة هي (الكابلا بلاتينا) التي شيدت للحكام النورمان في صقلية في سنة ١١٤٠ ، وفي سقفها الخشبي الصور المشار اليها ٠

(٣٢) ص ٤٧ من الكتاب ٠

(٣٣) ص ٥٠ من الترجمة العربية ٠

(٣٤) ص ٥٢ من الكتاب ٠

(٣٥) من ص ٥٧ ، الى ص ١٣٤ ٠

(٣٦) ص ٥٩ من الترجمة العربية ٠

(٣٧) ص ٦١ من الترجمة العربية ٠

(٣٨) ص ٦٧ من الترجمة العربية ٠

(٣٩) ص ٨١ من الترجمة العربية ٠

(٤٠) ص ٨٧ من الترجمة العربية ٠

(٤١) ص ٩٧ من الترجمة العربية ٠

(٤٢) ص ١٠٤ من الترجمة العربية ٠

(٤٣) ص ١٢٥ من الترجمة العربية ٠

(٤٤) ص ٦١ من الترجمة العربية ٠

(٤٥) ص ٦١ و ٦٢ ٠ من الترجمة العربية ٠

(٤٦) ص ٦٧ من الترجمة العربية ٠

(٤٧) الصورة في الصفحة ٦٩ من الكتاب وفي الصفحة ٧١ كذلك ٠

(٤٨) ص ٧٠ ، وصورة شجرة الكرمة في الصفحة ٧٢ من الكتاب ٠

(٤٩) ص٧٤ من الكتاب ٠

(٥٠) ص ٧٨ من الكتاب ٠

(٥١) ص ٨١ وما بعد ٠

(٥٢) ص ٨٧ من الكتاب ٠

(٥٣) ص ٩٠ وما بعد ٠

(٥٤) اللوحة موجودة في الصفحة ٩٣ ٠

(٥٥) ص ٩٧ من الكتاب ٠

(٥٦) ص ١٠٠ ، والمنمنمتان موجودتان في الصفحتين ٩٨ و ٩٩ من الكتاب ، وفي الصفحة ١٠١ تفصيل من الثانية ٠

(٥٧) ص ١٠٢ من الكتاب ٠

(٥٨) ص ١٠٣ من الكتاب ٠

(٥٩) ص ١٠٤ من الكتاب .
(٦٠) ص ١٢٥ من الكتاب .
(٦١) ص ١٢٨ من الكتاب ، والصور موجودة في الصفحات ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٩ .
(٦٢) ص ١٣٢ من الكتاب .
(٦٣) ص ١٣٥ من الكتاب .
(٦٤) ص ١٣٥ من الكتاب .
(٦٥) ص ١٣٦ من الكتاب .
(٦٦) ص ١٣٨ من الكتاب وما بعد .
(٦٧) ص ١٤٣ من الكتاب .
(٦٨) من ص ١٤٦ ، الى ص ١٥١ .
(٦٩) ص ١٥٣ من الكتاب .
(٧٠) من ص ٦ ، الى ص ١٦٠ .
(٧١) ص ١٦١ من الكتاب .
(٧٢) ص ١٦٧ من الكتاب .
(٧٣) ص ١٦٨ و ١٧١ من الكتاب .
(٧٤) ص ١٧٢ من الكتاب .
(٧٥) ص ١٧٤ من الكتاب .
(٧٦) ص ١٧٩ من الكتاب .
(٧٧) ص ١٨٣ من الكتاب .
(٧٨) ص ١٨٠ من الكتاب .
(٧٩) ص ١٨٤ من الكتاب .
(٨٠) ص ١٨٧ من الكتاب .

الفصل السادس عشر

المعجزة العربية

للمستعرب الفرنسي ماكس فانتاجو (١)

ـ ١ ـ

كان العرب ، فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين ، سادة العالم حقا في ميادين الحضارة المختلفة ، وقد أعطوا في مجالات الفلسفة والقانون والعلوم والفنون عطاء اعترف المنصفون من علماء الشرق والغرب ـ وبخاصة في الكتب التي قدمنا تعريفا بها في الابحاث السابقة ـ بأنه كان حلقة هامة في سلسلة الحضارات الانسانية ، واسهاما من أمتنا في تقدم البشرية نحو النور والعرفان . وقد دعيت تلك الحلقة ، أو ذلك الاسهام باسم (الحضارة العربية) ، وهي الحضارة التي نقلنا فيما تقدم عرضا لانجازاتها ، وتقييما لهذه الانجازات ، من وجهة نظر علماء أوربيين ، اخترناهم من أمم مختلفة ، ومن أزمنة مختلفة .

— ٢ —

ونعرف الآن بكتاب هام جدا من بين هذه الكتب التي أنصفت حضارتنا ، وأعطتها حقها ، كتاب أبرز جوانب لم تكن قد أبرزت من قبل ، ورفع حضارتنا الى أفق رفيع تستحقه ، جاعـلا منها موضوعا لمؤلف كتبـه المستعرب الفرنسي (ماكس فانتاجو) ، وأعطاه عنوان (المعجزة العربية) ٠

ولقد سعينا جاهدين لنعرف شيئا عن مؤلف الكتاب : عن حياته ، ودراسته ، وآثاره ، فلم نوفق الى ذلك ٠ لذلك نكتفي بالحديث عن كتابه هذا ، منتظرين أن نقع ذات يوم على تعريف به، تعريف سننقله فرحين سعداء ، لانه يطلعنا على حياة انسان أحب العرب وحضارتهم ، وأشاد بهم وبها في كتاب قيم حقا ٠

— ٣ —

وعلى الرغم من صغر الكتاب المذكور (فهو لا يقع في ترجمته العربية في أكثر من مائة صفحة من القطع الصغير) ، فانه قد طرح قضايا هامة جدا ، وعالج موضوعات خطيرة ٠

ولقد قدم المستشرق المرحوم الخالد الذكر (ماسينيون) للكتاب بمقدمة رائعة ، تحدث فيها عن الحضارة العربية ، وعن انجازاتها ، وقارنها بالحضارة الغربية ، ثم تحدث بعد هذا عن اللغة العربية ، ومكانتها الرفيعة ، وصلاحيتها للتعبير عن مكتشفات العصر الحديث ، والعلوم الجديدة ، وطلب الينا — نحن الناطقين بالضاد — أن نتمسك بلغتنا ، لانها كانت في رأيه ولا تزال « لغة الحرية العليا ، ووحي الحب ، والرغبة التي تطلب الى الله — من خلال الدموع — أن يكشف عن وجهه الكريم ٠ »(٢)

وكان ماسينيون قد كتب قبل ذلك بقليل قائلا : « ومن حق العرب علينا — نحن ضيوفهم والوافدين عليهم ، من مثلي أنا والسيد فانتاجو — أن نرفع الصوت عاليا طالبين اليهم المقاومة : أن يقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنـازل عن شرفهم ، وتقليـدهم وآبائهم ، والاستسـلام أمـام القوة الاستعمارية ،ورؤوس المال المصرفية التي تطلب اليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم ، مع هذه الحضارة الكاذبة ، حضارة الانسان الآلي ، التي لم تعـد تؤمن بنفسها ، أو بالذات الالهية ، وتصبو الى اخضاع العالم لنظامية ثقافية اميركية بلهاء ٠

ان هذا الانتاج الصناعي المغشوش سيسقط وشيكا ، فليصمدوا ، فالعالم بحاجة اليهم ، ولندفعهم الى احترام عربيتهم ، هـذه الآلة اللغوية الصافية ، والصالحة لنقل اكتشافات الفكر عبر الدول ، فلا نحيلها مسخا مقلدا للغاتنا الآرية ، كما لا نتركها تتحجر في قومية ضيقة، فعل العبرانية الجديدة للصهيونية المتطرفة ٠ »(٢)

— ٤ —

والكتاب موزع على ثمانية أبحاث ومقدمة وخاتمة ٠ وقد أعطى فانتاجو أبحاثه العناوين التالية :

١ — نهاية العهد اليوناني القديم ٠
٢ — سر العلم الهندي (القرن السادس) ٠
٣ — الفتح العربي (القرن السابع بعد الميلاد) ٠
٤ — اتصالات العرب الفكرية الاولى مع اليونان والهنود (القرن الثامن) ٠
٥ — المعجزة العربية (القرن التاسع) ٠

٦ ـ نجاح المعارف العربية وانتشارها (القرن العاشر) ٠
٧ ـ انهيار العرب (القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر)٠
٨ ـ يقظة الغرب (القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر) ٠ (٣)

ـ ٥ ـ

يبين المؤلف في البحث الأول أن (العهد اليوناني القديم) قد انتهى بسقوط بلاد اليونان تحت حكم الدولة الرومانية ٠ ولقد كان من المنتظر أن يهضم الرومان الثقافة الهيلينية بسرعة فيحملوا مشعل الحضارة عاليا ، الا أن الذي حدث هو العكس (٤)، فقد بقي اللاتين مستعصين على تقبل العلم اليوناني ، وكانت مهمة حفظ العلم وتطويره من نصيب الايرانيين أولا ، ثم العرب ثانيا ٠ (٥)

وكانت أزمة حادة قد أصابت العلم اليوناني في أواخر القرن الثاني الميلادي ، رغم تأثير جالينوس وبطليموس ٠ لقد تزعزعت الثقة بالعلم ، وقوي أعداؤه ، وكثر الشك ، ونجحت مدرسة ابيقور التي دعت الى الهرب من العلم ، (٦) وترك اليونان ديانتهم واعتنقوا اليهودية ثم المسيحية ٠٠ وتحولت مراكز العلم الى الشرق ، وتبناه الساسانيون ، وغدت المدائن والرها وجند يسابور مدن العلم بحق ، كما أن أغلب الكتب اليونانية قد ترجمت الى السريانية والفهلوية (٧)، بعد رحيل النساطرة المسيحيين ـ نتيجة الاضطهادات المذهبية ـ الى المدائن ونصيبين وجند يسابور ، حيث نظموا المدارس الفارسية وترجموا الكتب العلمية اليونانية ٠ وفي جند يسابور التقت الثقافتان الهندية والهيلينية ٠ (٨)

ويخصص فانتاجو البحث الثاني للعلم الهندي الذي اكتشف رجاله التحليل

الجبري واستعملوا النظام العشري ، واخترعوا الصفر الذي أحدث ثورة في عادات العالم الحسابية والتجارية ٠ (٩)

وازدهرت الدولة الساسانية ، وحدث فيها لقاح بين العلمين اليوناني والهندي ، وبدا أن الفرس سيسيرون بالعلم في طريق جديدة ٠ ولكن تراجعهم أمام هرقل ، وانهيار دولتهم عسكريا وسياسيا في أوائل القرن السابع قد منع ذلك ٠ (١٠) وهكذا لم تفد السريانية ولا الفهلوية من هذه الحركة العقلية التي بعثت الحياة في جامعات الرها وجند يسابور والمدائن ، كما أنها لم تكن اللغة اليونانية ، على الرغم من انتصار الجيوش البيزنطية ، ولكنها كانت لغة شعب جديد ، لم يكن يسمع عنه كثيرا في اطار الامبراطوريات ، انه الشعب العربي ، الذي لعب في تاريخ الحضارة دورا عظيما ٠ (١٠)

ولم يكن العرب قبل الاسلام بدوا فقراء نصف برابرة ، كما خيل لبعض الناس ، لقد كانت كثرتهم تسكن مدنا غنية (في الحجاز) ، وكانوا على اتصال دائم ـ ومنذ قرون طويلة ـ بمصر وآشور ويونان والفرس والهنود بسبب تجارتهم ، وكان شعرهم قد بلغ مرتبة عالية من النضج ، كما حمل (أذينة) أحد ملوكهم لقب امبراطور روماني ، واعتنق الكثيرون منهم اليهودية والمسيحية وكان اتصالهم كبيرا بالفرس والروم في سورية والعراق واليمن ٠

وأتى الاسلام دينا جديدا ملبيا ببساطته حاجات العرب ، وتحققت بفضله وحدة القبائل العربية ٠٠ ولما انطلق العرب فاتحين استقبلهم النسطوريون واليعاقبة في سوريا وفلسطين ومصر كفاتحين محررين نظرا لما عانوه من اضطهاد وظلم ٠ (١١)

وفي أقل من عشر سنوات قضى العرب على الامبراطورية الفارسية ، وانتزعوا من الامبراطورية اليونانية أجلّ مقاطعاتها ، وأصبحت دمشق في عهد

بني أمية الذين «حولوا جمهورية المدينةالدينيةالعربية الى امبراطورية حقيقية» أصبحت دمشق عاصمة لامبراطورية أكبر من امبراطوريتي الاسكندروالرومان، لقد امتدت من شواطىء الاطلسي حتى أواسط آسيا ٠ (١٢)

وفي القرن الثامن الميلادي بدأت اتصالات العرب الفكرية باليونان والهنود (١٣)٠ ولقد أفاد بنو أمية من جهود السابقين ولغاتهم ، ولكنهم بدأوا بعد ذلك سياسة التعريب(١٣) ، تلك السياسة التي أحدثت تحولا عميقا ٠(١٤) لقد بدأ عصر جديد وحضارة جديدة : في العهد الاموي نشأ فن البناء العربي ، وشجع خلفاء بني أمية على الترجمة ، وأقبل الاعيان العرب على استشارة العلماء بغض النظر عن دينهم ٠٠ وهكذا عرف العرب على الاغريق ، ونقلوا المبتكرات اليونانية الرئيسية الى لغتهم ، كما كان لهم في الوقت نفسه اتصالات بعالم الهنود الفكري ، الذين أخذوا عنه (في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن) النظام العشري الذي تبنوه بسهولة تامة ، في الوقت نفسه الذي كانت تنقل فيه كتب أرسطو الى العربية ، (١٥) ٠

وهكذا فان المهمة التي عجز عن اتمامها الفرس الساسانيون (وهي المزج بين العلوم اليونانية والهندوكية) قد قام بها العرب ، وكان لنجاحها نتائج ضخمة بعيدة الأثر ٠(١٥)

— ٦ —

ونصل بعد هذا الى البحث الخامس من أبحاث الكتاب وهو أهم ما فيه ، ذلك أن فانتاجو يشرح فيه ما يريده بكلمتي (المعجزة العربية) ٠

فلقد تمت هذه المعجزة في رأيه في القرن الثالث الهجري (التاسعالميلادي) ذلك القرن الذي عرف عاهلين عظيمين هما هارون الرشيد والمأمون ٠ أما

الأول فقد رعا العلم وكرم العلماء ، الى حد أنه غسل يدي أحد كبار العلماء العرب على مشهد من الجمهور ، وكان ذلك تقليدا ماجدا ٠ (١٦) وأنشأ الثاني (وهو المأمون) دار الحكمة ، وأرسل الى الهند والى بيزانطة من يشتري المخطوطات ، أو ينسخها ، ثم يعود بها الى بغداد لتترجم ٠

وحوالي هذين الخليفتين العظيمين كان هناك شعب ذكي متطلع الى المعرفة « فالشعوب لا تملك الا الحكام الذين تستحق » (١٧) وعلماء كبار ، تمكنوا من المزج بين المعارف اليونانية والهندية ، مكتشفين خصوبة الجبر ، وروعة الحساب ، وفائدة الكيمياء ، عصر ينبغي أن يسمى في رأي مؤلف الكتاب عصر (المعجزة العربية) (١٨) ٠

— ٧ —

هذه المعجزة استمرت في القرون الثلاثة التالية ، على الرغم من تجزؤ الامبراطورية الى ثلاث خلافات في بغداد والقاهرة وقرطبة ٠ فلقد كانت سوق العلم رائجة ، وكانت الثقافة مزدهرة ، وكانت المعارف والاعمال ـ لكونها مكتوبة باللغة العربية ـ مفهومة ، منذ القرن العاشر الميلادي ، في مساحةواسعة شاسعة تمتد بين القوقاز والبيرنة ، ومن بخارى الى قرطبة ٠ (١٩) فضياع الامبراطورية لم يسيء الى بغداد الا قليلا ، لانها ـ بعد أن خسرت لقبها كعاصمة سياسية كبيرةـ قد اكتسبت بفضل (المعجزة العربية) لقب العاصمة الفكرية(١٩) وغدت قرطبة ـ بفضل مكتبتها النادرة التي ضمت أربعمائة ألف مجلد « لؤلؤة العالم » (٢٠)، كما أن القاهرة الغنية التربة قد ضمت الازهر الذي يجب اعتباره « سيد الجامعات المعاصرة » (٢١) ٠

وكانت المعجزة العربية تنتشر من الشرق الى الغرب ، من حلب الى بخارى ،

ومن القاهرة الى قرطبة ، بفضل انقسام الامبراطورية ٠ لقد أسست في كل مكان مدارس وجامعات ومكتبات أشاعت فيها حيوية مثيرة ، وظهرت في كل مكان رغبة في التثقف واكتشاف الحقيقة ، (٢٢) « وأصبح المتوسط بحرا عربيا حقيقيا ، وأصبحت العربية في كل شواطئه لغة دولية للتجارة والعلم ٠ »

— ٨ —

أما في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، فقد انهارت قوة العرب السياسية أمـام غزوات الغرب المسيحي من ناحية ، والشرق التركي الآسيوي من ناحية أخرى ، وان لم يحدث انهيار في الحضارة الفكرية ٠(٢٣) ولقد حاول الغزنويون والسلاجقة الدفاع عن الحضارة العربية ، ولكنهم لم يوفقوا في محاولتهم هذه لأنهم عجزوا — بسبب خشونة ايمانهم الديني ، وقسوتهم وحداثة عهدهم بالعقيدة — عن ايجاد الجو الملائم للبحث العلمي ٠ (٢٤) أما في الأندلس فقد لفظت الخلافة الاموية أنفاسها الاخيرة ، وقامت دول الطوائف، التي سهل ضعفها على مسيحيي الشمال أن يسترجعوا الاندلس شيئا فشيئا ٠

ولكن اسبانيا العربية قدمت — مع هذا — البتروجي العالم الفلكي ، وابن زهر الطبيب العظيم ، وابن رشد « الذي رفع في حقل الفلسفة مذهبا جديدا ترك وراءه دويا عظيما ، حتى في العالم الغربي » (٢٥)، واذا كان صلاح الدين قد أنهى الامبراطورية الفاطمية ، فانه قد استطاع بضمه مصر والشام أن يخلق امبراطورية حقيقية زاهرة ٠ « لقد كان صلاح الدين بفضل ذكائه وتحرره وفروسيته وانسانيته العميقة ، ذا أثر كبير في رجال عصره الاصدقاء منهم والاعداء ٠ ولقد كان له ميل شديد الى العلوم ، وكان يكرم العلماء فيجلبهم الى بلاطه ٠ وبلغ من اهتمامه بالعلوم أنه لم يكن ينام الا وهو مطمئن الى وجود

عالم قريب منه ، بحيث يستطيع أن يتعاون معه على حل المسائل التي يفرضها على نفسه خلال الليل ٠» (٢٦)

وبدءا من السنة (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) — وهي سنة سقوط بغداد تحت نير المغول — أخذت تخبو نار العلم ، ونام العرب علميا ، « بعد أن انتهت محاولتهم في انتزاع أسرار الوجود ، وانماء قوة الانسان ، والوصول الى معرفة الحقيقة ٠ »(٢٧) ذلك أنهم خضعوا طوال قرون لفنون الاضطهاد العنيف ، واختفت الحرية لديهم شيئا فشيئا ، وحرم تعليم الفلسفة ، ومزقت كتبها ، وأصبحت نادرة ، وحرم الفلك ، وأصبحت العقلية « محدودة مغلقة أمام العلم عاجزة عن استقبال الافكار الجديدة ٠ » (٢٧)

— ٩ —

وهكذا توقفت الجهود التي بذلتها شعوب الشرق لتطوير معارف البشر في القرن الثالث عشر ، أي بعد انهيار دولة العرب ، وغرق الشرق — حتى أوائل القرن التاسع عشر — في نوع من « الانهيار العقلي المحزن » ٠(٢٨) في ذلك الوقت بالذات ، كان الغرب يبرز حيويته الشابة بانتصاراته المتتابعة ، كما كان يجدد عقله وعلمه بعد اتصاله بالعرب ، والترجمة عنهم ، ونقل علومهم الى اللاتينية ، لقد نشر الامبراطور فريدرك والعالم (ليونار فيبوناتش) العروبة في الميدان الايطالي ، وحافظت الحضارة العربية في اسبانيا على امتيازها في نظر الغربيين ، على الرغم من استرجاعهم لقسم كبير من البلاد (٢٩) وامتد شعاع الثقافة العربية كذلك الى فرانسا عبر جبال البرينيه والالب (٣٠) على أن الحضارة لا تنتقل بسهولة ، ولم يستطع المترجمون اللاتين ، ومن تلاهم من العلماء (كروجر بيكون) مثلا أن يكتشفوا شيئا جديدا ، أو أن يجدوا ظاهرة ممتازة في حقل المعرفة كان العرب يجهلونها من قبل ٠ (٣١)

ثم أخذت أوربا بدءا من القرن الرابع عشر تنظم سبل الافادة من العلم العربي ، فاتخذ (مؤتمر فيينا للاساقفة الكاثوليك) قرارا باحداث كراسي لتعليم العربية في جامعات الغرب الرئيسية ، مما سهل انتقال شعلة العلم الى أوربا ، وظهور علماء كبار ، نشروا لاول مرة مؤلفات علمية وفلسفية أصيلة ذات قيمة كبيرة ٠ (٣٢) واذا كان العالم العربي قد نام ، والفكر في دمشق والقاهرة وغرناطة ومراكش قد انهار ، فانبذور العلمكانت تنمو في فلورانسا وباريس واوكسفورد والبندقية ، وكانت تبشر بحصاد مدهش ٠٠ فأوربة قد أكملت يقظتها ، وراحت تثبت قدرتها على السير وحدها منتصرة خلال الأعصر الحديثة في الطريق الى المعرفة ٠ (٣٣)

ـ ١٠ ـ

أفكار أربع هامات طرحهن فانتاجو في خاتمته التي أعطاها عنوانا كلمة (خلاصة) ٠

الفكرة الاولى : أن مؤرخي الغرب قد جعلوا العالم الغربي محورالتاريخ، مهملين كل ما عداه ، وبخاصة تاريخ القرون الوسطى التي كان العرب سادة حضارتها ٠ وشدد على ضرورة اعطاء العرب وحضارتهم حقها من الدراسةحتى في البرامج التعليمية ٠(٣٤)

الفكرة الثانية : أن الظاهرة المميزة للقرون الوسطى هي عروبة الحضارة فيها ، اذ « أننا اذا استثنينا بضعة مؤلفات مكتوبة بالسنسكريتية ، واثنين أو ثلاثة مكتوبة باللاتينية ، لوجدنا أن كل الرسائل العلمية الممتازة كانت مكتوبة باللغة العربية ٠ » (٣٥)

الفكرة الثالثة : ان تأثير اللغة العربية في شكل التفكير الاوربي كبير ، وقد لحظ ذلك الاجتماعي الكبير اوزفلد شبنكلر وسجل ملاحظاته في كتابه الشهير « انهيار الغرب » ٠ لاشك أنه قد أخطأ حين بالغ بدعواه أن العهد العربي قد بدأ في القرن المسيحي الاول ٠ وقد يثير ابتسامتنا حين يعلن أن بانتيون روما هو أول المساجد ، أو حين يتحدث عن الخليفة (ديو كليتان) ، أو يعتمد ديوفانت رياضيا عربيا ٠٠ ولكنه مع ذلك محق من ناحية أخرى الى حد بعيد جدا ٠ فقد لعبت اللغة العربية دورا أساسيا كوسيلة لنشر المعارف ، و (آلة للتفكير) خلال المرحلة التي ابتدأت حين جمع العرب حضارتي الهند واليونان ، ثم انتهت حين خسروا السيطرة على طريق الهند ٠ (٣٥)

الفكرة الرابعة : قضية أصول العلماء والأدباء والفلاسفة الذين ساهموا في الحضارة العربية ٠ يقول فانتاجو : « ومما لاشك فيه أن العلماء والفنانين المنتجين لم يكونوا كلهم من دم عربي ٠ ولكن ما أهمية هذا أيضا ؟ فهل نظن أن كل من نسميهم يونانا هم من دم هيليني نقي ؟ لا أحد يزعم ذلك ٠ فقد كان بينهم ليديون وكاريون ومقدونيون وسوريون ٠٠ نسميهم يونانيين لانهم كانوا يتكلمون أو يكتبون أو يفكرون باليونانية ٠ وكان ايزوقراط يقول : اليونان هم الذين يشاركون في تكوين ثقافتنا ، لا الذين يشاركوننا فيأصولنا٠

فبالرغم من فوارق الجنس والعصر ، والازياء واللهجات ٠٠ يظهر أن العبقريات المختلفة كالخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ، تسمح لنا ـ لمجرد كونها قد فكرت باللغة العربية ـ أن نسمي العصر الذي عاشت فيه (القرون الوسطى العربية) تماما كما نسمي العصر السابق باسم (العصر اليوناني) ٠ (٣٦)

الحواشي :

١ ــ عنوان الكتاب باللغة الفرنسية كما يلي :

Vintajoux (Max)
Le Miracle Arabe, Charlot, Paris, 1950

وقد ترجمه الى اللغة العربية رمضان لاونـد وطبعته دار العلم للملايـين سنة ١٩٥٤ على مطابع دار الكشاف ببيروت ٠

٢ ــ من مقدمة ماسينيون ٠ ص ٦ من الكتاب ٠

٣ ــ كانت مقدمة ماسينيون في ست صفحات ، ومقدمة المؤلف في خمس ، والبحث الاول في أربع عشرة صفحة ، والثانـي في اثنتي عشرة ، والثالث في سبع ، والرابع في أربع ، والخامس في ثلاث عشرة صفحة ، والسادس في اثنتين وعشرين ، والسابع في احدى عشرة ، والثامن في احدى عشرة صفحة والخلاصة في خمس صفحات ٠

٤ ــ الكتاب ص ١٣ ــــ ٥ ــ الكتاب ص ١٦
٦ ــ الكتاب ص ١٩ ــــ ٧ ــ الكتاب ص ٢٢ و ٢٣و٢٤ ٠
٨ ــ الكتاب ص ٢٥ ــــ ٩ ــ الكتاب ص ٢٩ و ٣٠
١٠ــ الكتاب ص ٣٥ ــــ ١١ــ الكتاب ص ٣٦
١٢ــ الكتاب ص ٣٩و٤٠ ــــ ١٣ــ الكتاب ص ٤٠
١٤ــ الكتاب ص ٤٢ ــــ ١٥ــ الكتاب ص ٤٤
١٦ــ الكتاب ص ٥٠ ــــ ١٧ــ الكتاب ص ٥٦
١٨ــ الكتاب ص ٥٧ ــــ ١٩ــ الكتاب ص ٦١

٢٠ــ الكتاب ص ٦٥ من الكتاب والتسمية أطلقها طالب مسيحي أوربي أتى يدرس في قرطبة علوم العرب ٠

٢١ــ ص ٦٥ من الكتاب ــــ ٢٢ــ ص ٦٦ من الكتاب

٢٣ــ ص ٦٩ من الكتاب ــــ ٢٤ــ ص ٧٠ من الكتاب
٢٥ــ ص ٧٣ من الكتاب ــــ ٢٦ــ ص ٧٤ من الكتاب
٢٧ــ ص ٧٦ من الكتاب ــــ ٢٨ــ ص ٨٠ من الكتاب
٢٩ــ ص ٨٨ من الكتاب ــــ ٣٠ــ ص ٨٩ من الكتاب
٣١ــ ص ٩١ من الكتاب ــــ ٣٢ــ ص ٩٣ من الكتاب
٣٣ــ ص ٩٥ من الكتاب ــــ ٣٤ــ ص ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ من الكتاب
٣٥ــ ص ١٠٠ من الكتاب ــــ ٣٦ــ ص ١٠١ من الكتاب ٠

الفصل السابع عشر

خاتمة

- ١ -

عرضنا في الفصول السابقة آراء في الحضارة العربية ، لخمسة عشر مستعربا ينتمون الى الجنسيات الاسبانية والفرنسية والألمانية والايطالية والروسية والانكليزية • ألف هؤلاء الأعلام كتبا كثيرة ، وكتبوا أبحاثا أكثر من أن تعد ، ولكننا اخترنا منها ستة عشر كتابا ، تناولت جوانب حضارتنا المختلفة في الفن والعلم والأدب والفلسفة ، فضلا عن تقديمها – في غالب الاحيان – تاريخ العرب بشكل مفصل أو موجز •

ألف أول هذه الكتب وهو تاريخ العرب العام ، في حوالي العام ١٨٦٠ ، وصدر منها كتابا فن التصوير والحضارة العربية في عام ١٩٦٢ ، فتكون هذه الكتب قد ألفت وطبعت خلال قرن من الزمان ، امتد بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين • ان هذه الكتب لا تزال – على الرغم من

مضي أكثر من قرن على سنة طباعة بعضها – تحمل قيمتها العلمية ، وتقدم للباحثين في الحضارة العربية معلومات هامة • يضاف الى هذا أن لبعضها قيمة تاريخية ، لكونه من أوائل الكتب التي طبعت مزودة باللوحات الملونة ، ككتابي حضارة العرب لغوستاف لوبون ، والفن العربي لبريس دافين •

كتبت هذه الكتب باللغات الاسبانية والفرنسية والألمانية والروسية والانكليزية والايطالية ، وترجم بعضها الى اللغة العربية ، ولا يزال بعضها : كتاريخ الطب العربي للوسيان لوكلير ، والفن العربي لبريس دافين ، ومدونة الكتابات العربية لماكس فان برشم وزملائه،وقصة المعراج وأثرها فيالكوميديا الالهية لآسين بلاثيوس ، والحضارة العربية لجاك ريسلر •• لا تزال هذه الكتب مكتوبة في لغاتها الأصلية ، تنتظر من ينقلها الى العربية •

- ٢ -

تناولت هذه المؤلفات حضارتنا من جميع جوانبها ، وتحدثت عنها بانصاف وموضوعية مبينة قيمتها ، وأهميتها ، ومكانتها في التاريخ الحضاري ، وأثرها في الحضارة الحديثة بعد عصر النهضة •

وأكدت تلكم الكتب خاصة على عروبة حضارتنا ، فسمتها حضارة العرب أو الحضارة العربية ، ووصفت جوانبها ، التي عالجتها ، بالعروبة : فالعلم عربي ، والتصوير عربي ، والطب عربي ، والفلسفة عربية ، والادب عربي •

لم يفعل مؤلفو هذه الكتب ذلك عن تعصب للعرب ، ولم يلقوا الكلام على عواهنه ، بل تمشوا مع طبيعة الاشياء ، ونزلوا على حكم حقيقة تاريخية بسيطة تقول :

– ان هذه الحضارة عربية لأنها استظلت براية الدولة العربية ، أو برايات

دول كانت لغاتها الرسمية عربية ، ثم ان تراث هذه الحضارة قد ألف باللغة العربية التي كانت لغة الثقافة والعلم والتجارة والناس خلال قرون ثمانية تمتد بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين ــ الثامن والخامس عشر الميلاديين ، كما أنها كانت خلال هذه القرون لغة مفهومة ، محبوبة في بلاد تمتد بين بخارى شرقا وقرطبة غربا ٠

ــ ٣ ــ

مؤلفو هذه الكتب التي تحدثنا عنها وعرضناها فيما تقدم قد كتبوا كتبهم بروح من التجرد والانصاف والموضوعية ، وبعضهم أبان الجوانب السلبية الى جانب الجوانب الايجابية في حضارتنا ٠ على أن بعضهم الآخر ، قد أحب العرب حبا جما ، ورفع حضارتهم ــ والدور الذي لعبته في تاريخ الانسانية ــ الى ذروة عالية : فلقد دونت باللغة العربية مؤلفات لا تحصى ، (١) وجمعت هذه اللغة من كنوز المؤلفات والوثائق في العلوم والطب والفلسفة ، مالم يجتمع مثله في سائر اللغات مجتمعة ، (٢) لقد تمت في التاريخ معجزة حين اتخذ الشعب العربي ، فاتح نصف العالم ، الشعوب التي غلبها أساتذة له ، (٣) وأنتج حضارة وصفت بالعبقرية في أحدث كتاب صدر في الولايات المتحدة باللغة الانكليزية ، (٤) وبالاعجاز في كتاب خاص صدر في منتصف القرن العشرين باللغة الفرنسية ، وحمل عنوان (المعجزة العربية) (٥) ٠

هؤلاء العلماء لا يمكن أن يتهموا بالتعصب للعرب ، ولا بالسير مع هواهم واعجابهم بالحضارة العربية ، ينبغي ألا ننسى أن أكثرهم قد أمضى عمره في دراسة هذه الحضارة ، أو أمضى نصف عمره في دراسة جانب منها ، وأنهم عرضوا ، تأييدا لتقديرهم الكبير للحضارة العربية ، مبررات موضوعية وأدلة علمية ، وفصول الكتاب قريبة منا ، وفي كل صفحة منها سطور مما نذهب اليه٠

ــ ٤ ــ

ولم تنس هذه الكتب أن ترفع من شأن العرب في العصر الجاهلي ، فعوامل اتحاد الاصل ، ووحدة الطبائع والعادات ، ووحدة اللغة ، والاسواق العامة ، والشعر الذي يلقى فيها ، والروح الدينية التي توجه نحو الوحدانية ، والحج الى الكعبة ٠٠ كل أولئك عوامل كانت تحفز القوم الى الوحدة العربية (٦) ٠ ومن الوهم القول بهمجية العرب قبل ظهور محمد ، لان ظهور الحضارة لا يكون الا نتيجة نضج بطيء ، وتطور الاشخاص والامم والنظم والمعتقدات لا يتم الا بالتدريج (٧)٠ وللعرب حضارتهم في اليمن والبتراء وتدمر والحيرة وبصرى ، وهم قد ظهروا على مسرح التاريخ قبل الرومان بقرون كثيرة ، وأنشأوا المدن العظيمة ، وكانت علاقاتهم بأرقى شعوب الارض وثيقة (٨)٠ والثقافة العربية لا ترجع الى ذلك العصر الغامض المسمى أيام الجاهلية ، وانما ترجع الى زمن أبعد من ذلك كثيرا (٩) ٠ ولذلك يجب أن نقلع عن اعتبار بلاد العرب صحراوية وهمجية ، فقد كانت على خلاف ذلك مركزا تجاريا في العالم القديم ، ولم يكن المسلمون الذين خرجوا منها لاقامة الامبراطورية غير خلف لهؤلاء الذين كان لهم تأثير عميق في مصير الشرق في العصور القديمة (٩) ٠

وفي هذه الكتب اشادة بالابطال العرب ، وبالشخصيات التي أسهمت في اذكاء حضارتهم ٠ فالرسول العربي « أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، القريب والبعيد والقوي والضعيف عنده في الحق سواء ٠ كان يحب المساكين ، ولا يحقر فقيرا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ٠٠ عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله (ص) من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ٠ » (١٠)

وأوائل الخلفاء لم يسكرهم سلطانهم ، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء ، بل ظلوا أوفياء لحياة الزهد والورع التي كان محمد قدوة لهم فيها ، فكانوا

يستقبلون الفقراء والمظلومين في بيوتهم ، وسار عمر بن الخطاب الى القدس ليتسلمها من غير حاشية أو حرس ، وتوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوى ثوب وعبد وجمل ، وكان علي يتصدق في كل جمعة بما عنده من النقود ٠ (١١)

وكان المأمون يعد سلامة الامم في العلم ، فلم يرد أن يشع نور العلوم من جود ولي الامر الطارىء ، بل جعل شرف الآداب في حرز من تقلبات الحوادث بما حبسه عليها من الوقف الدائم ٠ وارتوى المأمون من مبادىء التسامح الحكيم ، وأحاط نفسه بعلماء اليونان والفرس والقبط والكلدان ، فكان راغبا عن أي تمييز في مادة الدين ٠ فكان من الامور التي اصطلح عليها أنه اذا ما اجتمع أرباب عشر أسر من النصارى أو اليهود أو المجوس ، أمكنهم أن يقيموا كنيسة ، وأنه يمكن كل رجل أن يمارس المناصب العامة من أية ديانة كان ٠(١٢)

أما صلاح الدين الايوبي فهو الجماع لافضل الصفات ، وهو الشجاع عند كل ابتلاء ، العظيم النفس ، الصادق في عهوده صدقا منقطع النظير ، الخالص التقوى ، المشبع بروح العدل ، المعتدل وقت النصر ٠ (١٣) لقد استعاد بيت المقدس ، فكان متسامحا مع المغلوبين ، لقد أطلق سراح عدد كبير من الاسرى ، ودفع أخوه الملك العادل فدية ألفين منهم ، وكانت هذه ثمرات الحضارة من جهة وكانت أعمال الصليبيين حين احتلوا بيت المقدس ، قبل ثمانين عاما ، ثمرات الهمجية من جهة أخرى ٠ (١٤)

جمعت حضارة العرب جانبي التراث البشري : المادي والمعنوي ٠ فموهبة العرب قد استطاعت أن تخلق فنا موحدا من هذه التنوعات في الاسلوب التي لاحظوها في الاعمال المختلفة للاجناس التي خضعت لحكمهم ، (١٥) هذا الفن

العربي ، الذي أبدع في العمارة فنا أصيلا متميزا ، مترجما في الحجر الميول الجمالية الناشئة عن حالته الروحية الجديدة ، لقد كان ذلك الفن حصيلة رائعة أعطاه للعرب التأمل والملاحظة والحب والاعتقاد ، (١٦) أما في التصوير بمعناه الواسع فقد أبدع العرب في تصاوير الجدران والرسوم على الخشب والرق والورق والرسوم على الزجاج ، ورسوم الفسيفساء الزجاجية والرسوم على الفخار ، (١٧) وهو التصوير الذي كان موضوع كتاب العالم ايتنكهاوزن الذي عرّفنا به في فصل قريب ٠ (١٨)

أما تراث العرب المعنوي أو الفكري فالكتاب أهم ما قدمه العرب في هذا المجال ٠ فلقد دونت مؤلفات لا تحصى في كل موضوع ، وذلك باللغة العربية التي هي لغة العلم في الشرق وفي جميع البلدان الاسلامية ٠ (١٩) وعلى الرغم من أن كثيرا من كتب التراث العربي قد ضاع ، فان ما بقي منها يعد في مجموعه من أوسع ما عرف في دوائر الادب ، (١٩) مما حدا بأحد المستعربين الى أن يؤكد « أنه قد جمع في اللغة العربية ، من كنوز المؤلفات والوثائق في العلوم والطب والفلسفة ، مالم يجتمع مثله في سائر اللغات مجتمعة » (٢٠) ٠ وليس في ذلك أية مبالغة ، اذ يكفي أن يرجع الى عناوين المؤلفات التي سجلها ابن النديم في (الفهرست)، وطاش كبرى زاده في مفتاح السعادة ، وحاجي خليفة في كشف الظنون وبروكلمان في تاريخ الادب العربي ، وفؤاد سيزكن في تاريخ التراث العربي ، (٢١) الذي بلغ عدد صفحات أجزائه الخمسة في الاصل الالماني ثلاثة آلاف ٠٠ يكفي أن يرجع القارىء الى عناوين المؤلفات التي سجلها هؤلاء الاعلام ليتأكد من صحة هذه المقولة ، وليعرف أن عدد كتب المكتبة العربية ضخم حقا٠

استقت الحضارة العربية من منابع خمسة ، وكانت مصادرها عربية

واسلامية ويونانية وهندية وفارسية • فلقد أضاف العرب ـ بوساطة الترجمة ـ الى تراثهم العربي والاسلامي ، تراث الاغريق والفرس والهنود ، محققين بذلك ما سمي (بالمعجزة العربية) التي استطاعت لاول مرة مزج الحضارتين الاغريقية والهندية (٢٢) • ولقد تم ذلك بسرعة ، فلقد كفى الحضارة العربية قرن من الزمان لكي تتغلب على الزمن المفقود الذي كان يفصلها عن الحضارات السابقة وكان العرب يملكون ميلا غريبا للاطلاع على المعارف ، واستعدادا مدهشا للتمثل والتكيف •• ذلك أن تطورهم ـ وهم ورثة الشعوب المجاورة ، والاغنياء بارث الحضارات الفارسية والهندية والصينية والاغريقية والرومانية ـ أن تطورهم لم يكن لينتظر سوى الظروف المناسبة لكي يتجلى ويظهر • (٢٣)

ولقد كان دور العرب في تاريخ الحضارات العام كما يلي :

– ابداعا في مجال الأدب العربي والدراسات اللغوية والبلاغية والنقدية والادبية حوله ، وفي دراسة القرآن وتفسيره وعلومه •

– أخذا في مجالات الفن والعلم والفلسفة عن الاغريق والفرس والهنود والصينيين •

– مزجا لذلك كله ، وعطاء متميزا أسهم فيه جميع من أتقن اللغة العربية من مواطني الدولة العربية على مختلف أديانهم وعناصرهم ، عطاء دفع الحضارة الانسانية الى الامام بما أبدع في مناحيها المختلفة •

– تأثيرا في الغرب ، تم عن طريق الترجمة الى اللاتينية ، وأسهم في الاسراع بالنهضة الغربية الحديثة •

فالقرون الخمسة التي ازدهرت فيها الحضارة العربية تعد بين أكثر العصور روعة في تاريخ الفكر الانساني ، وتيار الثقافة المولود في مصر وكلدان

وآشور وفينيقية ، والذي انتقل الى اليونان ، قد أخذه العرب ، ونموه بمنابع الاستيحاء الهندية ، ثم وسعوه بمساهمتهم الاصيلة ، وساروا به عبر افريقية الى اسبانيا حيث نما وازدهر هناك ، ثم انتقل الى طليطلة ومراكز الفكر الغربي في جنوبي فرنسة ، ومنها الى أوربة الغربية كلها ••

أخذ ، وابداع ، وعطاء ،

ذلكم هو دور العرب في التاريخ الانساني ، وذلكم هو الاسهام الذي « منحه الشعب العربي للتقدم الانساني في العصر الوسيط » (٢٤) • وهما دور كبير واسهام عظيم شهد بسموهما وأهميتهما هؤلاء العلماء الاعلام الاعاجم فيما تقدم من فصول هذا الكتاب •

ذلك الدور وذلك الاسهام ثم تلك الشهادة تقدم تأكيدا لنا ـ نحن المؤمنين بأمتنا ، وبقدرتها على تخطي الصعاب ـ على أن مستقبلها سيكون عظيما مثلما كان ماضيها عظيما ، وأنها لابد منتصرة على أعدائها ، وعلى ما وضع في طريق نهضتها ، وعودتها الى ميدان التاريخ من معوقات •

ولن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي يعود فيه العرب من جديد الى مسرح التاريخ ، شعبا عظيما ، وأمة مجيدة ، ثم اسهاما في الحضارة الانسانية واغناء للتراث البشري ، واسعادا لبني الناس أجمعين •

الحواشي :

١ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ص ٣٨٣ •

٢ ـ ريسلر ، الحضارة العربية (بالفرنسية) ص ١٩٥ •

٣ ـ لوكلير ، تاريخ الطب العربي (بالفرنسية) ص ج ٢ ص ٢ و ٣ •

٤ ـ عبقرية الحضارة العربية مصدر النهضة ، كتاب صدر في نيويورك عام ١٩٧٥ في طباعة ممتازة ، وقد ألفه جماعة من العلماء العرب والمستعربين ·

٥ ـ ماكس فانتاجو المعجزة العربية · باريس ١٩٥٠ ·

٦ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام من ص ٥١ ، الى ص ٥٧ ·

٧ ـ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٨٧ وما بعد ·

٨ ـ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٩٧ ·

٩ ـ فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ص ٣٠ ·

١٠ ـ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٣٤ ·

١١ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ص ١٢٤ ·

١٢ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ص ٢١٣ ·

١٣ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ص ٢٦٢ ·

١٤ ـ لوكلير تاريخ الطب العربي جـ ١ ص ٤ ·

١٥ ـ بريس دافين ، الفن العربي بالفرنسية ص ٢ ·

١٦ ـ ريسلر ، الحضارة العربية ص ١٤٧ ·

١٧ ـ ايتنكهاوزن ، التصوير العربي ص ١٢ ·

١٨ ـ الفصل الخامس عشر من فصول هذا الكتاب ·

١٩ ـ سيديو ، تاريخ العرب العام ص ٣٨٤ ·

٢٠ ـ ريسلر ، الحضارة العربية ص ١٩٥ ·

٢١ ـ فؤاد سيزكن ، تاريخ التراث العربي بالالمانية في خمسة أجزاء ضخمة صدر الاول عام ١٩٦٧ وهو خاص بعلوم القرآن والحديث والفقه والعقائد والتصوف ، والثاني عام ١٩٧٦ وهو خاص بالشعر ، والثالث عام ١٩٧٠ ويضم كتب الطب والصيدلة وعلم الحيوان والطب البيطري ، والرابع وفيه كتب السيمياء، والكيمياء وعلم النبات والزراعة وقد صدر عام ١٩٧١ · والخامس وهو خاص بالرياضيات وقد صدر عام ١٩٧٤ ·

بدىء بترجمته الى اللغة العربية ، وصدر الجزء الاول من الترجمة العربية وهو يقع في ٥٦٨ ص ويعادل ثلث المجلد الاول من النص · تنظر الترجمة العربية وقام بها الدكتور فهمي أبو الفضل ، طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ ·

ويمتاز هذا الكتاب عن الكتب السابقة ، وبخاصة كتاب بروكلمان ، بأنه آخر مرحلة متطورة في تصنيف العلوم العربية ، وطبقات مؤلفيها ، ويضم بين دفتيه أشتات هذا التراث المخطوط في كل مكتبات العالم التي زارها المؤلف ، وأطلع على فهارسها وقوائم كتبها ، واختار منها ما أمكن اختياره · تنظر الصفحة (م) من مقدمة الجزء الاول من الترجمة العربية ·

٢٢ ـ فانتاجو ، المعجزة العربية ص ٥٧ من الترجمة العربية ·

٢٣ ـ ريسلر ، الحضارة العربية ص ١٤٧ ·

٢٤ ـ ريسلر ، الحضارة العربية ص ١٩٥ ·

٢٥ ـ ريسلر ، الحضارة العربية ص ١٩٦ ·

١٩٧٧/١٢/١٥٠٠

طبع في دار الأنوار للطباعة ـ دمشق
المنطقة الصناعية

سعر الكتاب

سورية	٦٠٠ ق٠س	لبنان	٦٠٠ ق٠ل
الكويت	٧٠٠ فلس	الاردن	٦٠٠ فلس
عدن	١٢٠٠ فلس	قطر	١٢ ريال
البحرين	١٢٠٠ فلس	السعودية	١٠ ريال
أبو ظبي	١٥ درهم	دبي	١٥ درهم
ليبيا	٧٥٠ درهم	تونس	١٢٠٠ مليم
المغرب	١٢ درهم	الجزائر	١٢ دينار
السودان	١٥٠٠ مليم	العراق	٧٠٠ فلس
مصر العربية	٩٠٠ فلس	الخليج العربي	١٢ درهم

اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق

دار الانوار للطباعة ـ دمشق

السعر ٦ ل.س